إحسان عبد القدوس

- وعاشت بين أصابعه
- أرجوك خذنى من هذا البرميل
- خيوط فى مسرح العرائس

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

وعاشت بين أصابعه

كلمة

هذه القصة كلها خيال ، ولكنى فى هذه المرة ازددت جرأة فى التعبير عن خيالى فاستعنت بأسماء وشخصيات معروفة حتى أعيش الواقع .. وشكرا للأسماء والشخصيات المعروفة إذا كانت قد منحتنى هذا الحق ، وآسف إذا كنت قد أغضبتها وكأنى تماديت فى استغلالها .. واعذروا خيالى ..

« إحسان »

— ١ —

كانت الفنانة هناء وصفي قد بدأت تعترف بينها وبين نفسها بأنها تهتز فوق القمة .. لم تعد كما كانت . الشركات السينمائية لم تعد تتهافت عليها وتتحمل شروطها وتستسلم لأجرها الغالي كما تعودت .. والمخرجون السينمائيون أصبحوا لا يحاولون ملاحقتها ومطاردتها الغرام والركوع تحت قدميها حتى تقبل ترشيحهم لإخراج أفلامها .. وملحنو الأغاني خفت التنافس بينهم على اكتساب صوتها حتى بدأت تبذل مجهودا من جانبها لتحرضهم على خصها بألحانهم .. حتى الصحف .. إن صورها لم تعد تنشر في المجلات بنفس الحجم وفي نفس المكان ، وأخبارها أصبحت تنشر في سطور قليلة باهتة ضمن بقية الأخبار ..

وهي واثقة أنها لم تفقد شيئا من قيمتها الفنية ، ولا من شبابها ولا من جمالها ، ولكن لعله الغرور .. لعلها أصيبت بغرور النجاح فتكاسلت وأهملت نفسها في معركة المنافسة بينها وبين غيرها من الفنانين .. إن مجال الفن كمجال الإنتاج وكمجال السياسة تسيطر عليه معارك المنافسة .. إن الزعيم الوطني يظل يحارب ويقاوم المنافسة في سبيل الاحتفاظ بزعامته حتى يموت ، وكذلك الفنان مهما بلغت قيمته وحتى بعد أن يصل إلى الزعامة الفنية .. وقد عاشت أم كلثوم وعبد الوهاب في معركة مستمرة بينهما حتى يحتفظ كل منهما بزعامته

فى مواجهة الآخر .. وعبد الوهاب عاش فى معركة مع فريد الأطرش ثم احتوى عبد الحليم حافظ تحت قيادته بحيث لم يعد خطرا عليه .. وأم كلثوم رغم طغيان زعامتها الفنية عاشت تدافع عن هذه الزعامة حتى آخر أيامها .. استطاعت وهى لا تزال فى بدايتها أن تزيح من طريقها منيرة المهدية ثم فتحية أحمد ، ثم بعد أن ظهر جيل جديد لمعت فيه أسمهان دخلت أم كلثوم فى معركة عنيفة معها .. معركة على جميع الجبهات .. لتبقى محتفظة بزعامتها الفنية ... بل إن أم كلثوم لم تكن تستسلم لظهور أى فنانة لها قيمتها فى أى بلد عربى .. فلم تستسلم لظهور فيروز فى لبنان بل سلطت عليها كل فنها وكل ذكائها فى معركة واسعة ظلت أم كلثوم خلالها محتفظة بالشخصية الفنية الأولى .. وأكثر من ذلك أن أم كلثوم لم تستسلم حتى لعبد الحليم حافظ ودخلت معه فى معركة حتى يبقى داخل حدوده دون أن يعتدى على حدودها ..

إن الفن كالجوهرة الغالية فى حاجة لأن يدافع عنها صاحبها حتى لا تسرق أو تضيع أو يذوى ضوؤها .. ومعارك الدفاع فوق القمة أقسى وأعنف وأمر من معارك أصحاب الجواهر الصغيرة الذين يقيمون على سفوح الفن ،.. ولكن الغرور دفع الفنانة هناء إلى أن تتصور أنها أكبر من أن تدخل معركة فنية مع أى فنان آخر .. أو دخول المعارك .. إن نجاحها الفنى فتح لها حياة خاصة واسعة أصبحت أشبه بسوق المصاغ والجواهر لا يتردد عليها إلا الأغنياء ولا يشترى منها إلا الأكثر غنى من الآخر .. إن شخصيات دول البترول وشخصيات الطبقة الحاكمة فى كل الدول العربية أصبحت تتهافت عليها وتطرق بابها لتلقى تحت

أقدامها بالهدايا الغالية كأنها قربان يقدم فى معبد الفن .. وقد حسبت قيمة الهدايا التى وصلتها خلال ثلاثة أشهر فوجدتها أضعاف ما تحصل عليه من السينما ومن الحفلات الخاصة فى ثلاثة أعوام ، حتى أصبحت تستهتر بهذا الدخل وتأمر بتوزيعه على العاملين فى استديوهات السينما أو على أعضاء الفرق الموسيقية .. أصبحت فى غنى عن إيرادات الفن .. عن ثمن الفن .. وأصبحت بعد أن كانت تعمل فى أربعة أفلام سينمائية كل عام تكتفى بفيلم واحد ، وبدل أن تشترك فى المسرحيات أعلنت اعتزالها المسرح وبدل أن تقيم حفلة عامة كل شهر أصبحت تقيم حفلة واحدة فى العام كله .. إن الفن أصبح بالنسبة لها مجرد مزاج أو هواية وليس حرفة تمتص كل حياتها ، ويكفيها هدايا وشيكات مشايخ البترول وحكام العرب .. إن أم كلثوم كانت تتلقى أيضا مثل هذه الهدايا أو الهبات بل قطعا إنها حصلت من فصوص الماس ومن الجواهر والذهب ومن قطع السجاد ومن السيارات ومن كل أنواع الهدايا الغالية على أضعاف أضعاف ما حصلت عليه هناء ، ولكن أم كلثوم كانت أذكى من هناء وكانت تعلم أن هذه الهدايا لا تقدم لشخصها ولكن تقدم لفنها فلم تستطع حياتها الشخصية أن تأخذها من حياتها الفنية .. لو ضاع فنها لضاعت معه الهدايا .. فلم يستطع أى إغراء أن يأخذها من الفن ، وكانت تلطع على بابها أمراء ومشايخ البترول إلى أن تنتهى من إعداد أغنية جديدة قد يستمر إعدادها شهرا أو شهرين أو ثلاثة .. ومعروف أنها لطعت أحد مشايخ البترول على بابها أكثر من خمسة أعوام لم يكف فيها عن نثر الماس والذهب تحت قدميها إلى أن قبلت أخيرا أن تغنى له أغنية خاصة كان يلح فى طلبها .

وعبد الوهاب قد جعله الفن معبودا للنساء .. نساء الطبقة الثرية صاحبة الملايين .. وقد أخذ منهن الكثير ولكن لم تستطع واحدة منهن أن تأخذه من فنه .. بل إنه تزوج سيدة غنية وهو لا يزال أقرب إلى عمر الصبا ولم يستمر زواجه سوى أيام لأن كل غناها لم يستطع أن يلهيه عن فنه ..

ولكن ربما كانت شخصية هناء تختلف عن شخصية أم كلثوم ، فهى شابة صغيرة وهى جميلة وإحساسها بشبابها وجمالها أقوى من إحساسها بفنها ولذلك كانت تتلقى هذه الإغراءات التى تحيط بها كامرأة لا كفنانة دون أن تكتشف أن الرجل الذى يصل إليها لا يتباهى بأنه وصل إلى امرأة جميلة ولكنه يتباهى بأنه وصل إلى فنانة ، ويتفاخر بترديد اسمها وحكايته معها أمام أصدقائه وفى مجالسه لأنها معروفة ومشهورة لا لمجرد أنها امرأة جميلة ..

إنها وقعت فى نفس الخطأ الذى يقع فيه أحيانا الفنان عبد الحليم حافظ ويتصور أن ذكاءه واتصالاته الشخصية أقوى من فنه .. وقد استطاع بذكائه أن يكسب صداقة كثير من مراكز القوى العربية وبين أصدقائه ملوك وبينهم أغنى أغنياء رجال الأعمال وبينهم حكام وبينهم بنات أكبر العائلات ، وهذا النجاح يتغلب أحيانا على فنه فأصبح يغيب عن الفن فى زيارات عمل لأصدقائه الكبار .. أصبح أقرب إلى رجل أعمال منه إلى فنان .. بل أصبح ذوقه فى العطاء الفنى أقرب إلى ذوق أصدقائه من الملوك والأمراء والمشايخ منه إلى ذوق الرجل العادى الذى ينام على رصيف الشارع الفنى .. وقل إنتاجه كفنان واعتزل السينما وأصبح لا يقيم حفلات عامة إلا فى مواسم السياحة ليضمن

وجود أفراد الطبقة التى يحتاج إليها كرجل أعمال .. ولكن ذكاء عبد الحليم حافظ كان يثور عليه أحيانا ويدفعه إلى أن يحسب حساب مصير الفنان .. كان يثور على نفسه كرجل أعمال ويستسلم للفن .. يعطى للناس شيئا جديدا ويعطى لنفسه حقنة فيتامين فنى تحفظ له مكانته وقيمته الفنية إلى أن يعود رجل الأعمال ويتغلب على الفنان من جديد ..

وقد تأخرت هناء كثيرا حتى أحست بحاجتها إلى حقنة فيتامين فنى ، كان غرورها يعميها عن التقدير الصحيح لما وصلت إليه قيمتها بين الجماهير ، وربما لم يبدأ غرورها يخفت إلا بعد أن بدأت تلاحظ أن قيمة الهدايا والهبات التى تصلها بدأت تضعف .. إن بعض الشخصيات البترولية الذين كانوا يفدون عليها وفى يد كل منهم هدية لا تقل قيمتها عن قطعة ماس من حجم عشرة قراريط أصبحوا يزورونها بأيد فارغة كمجرد استعادة ذكريات قديمة .. حتى صديقها مرتضى عبد الرحمن أبلغها تخليه عنها وابتعد عنها بعد أن أرسل لها مع سكرتيره شيكا كأنه يدفع لها مؤخر الصداق .. إن قيمة الشيك أقل بكثير مما كانت تنتظره ..

وقد مر على هناء أكثر من ثلاث سنوات وهى معتمدة اعتمادا أساسيا على صديقها مرتضى .. وكانت ميزته بالنسبة لها أنه ليس من أثرياء دول البترول الذين يجرون وراء المظاهر ويتحدثون كثيرا عن علاقاتهم بالفنانين ، ولكنه ثرى محلى .. مصرى .. رجل أعمال قديم استطاع أن يحتفظ بثروته ويزيد عليها بعد الثورة .. وهو عجوز يقول إنه فى الثانية والخمسين ولكنه قطعا لا يقل عن الخامسة والستين وإن

كان لا يزال محتفظا بلون نضر وجلد مشدود قد يكون لونا مدهونا وجلدا شدته عملية جراحية .. ثم كان وضعه الاجتماعى كشخصية معروفة وكزوج وكأب وجد له أحفاد ، يفرض عليه أن يعتزل المجتمعات المفتوحة ويتستر على صداقته لها ، ولا يزورها إلا مرة أو مرتين على الأكثر كل شهر ، وهو ما كان يخفف كثيرا من مسئوليتها عن الاحتفاظ بصداقته التي يدفع ثمنها غاليا .. ولم تكن تعطيه كثيرا من نفسها أو من جسدها لأنه فى الغالب لا يطلب شيئا .. كان خفيفا عليها .. ولكنها كانت تطمئن إليه .. تحس أنها تستطيع أن تعتمد عليه كرجل سواء كان صديقا أو أبا أو جدا وكانت أحاديثه فيها متعة كبيرة .. متعة ذكرياته القديمة التي يرويها كقصص مثيرة ، ومتعة معلوماته وآرائه الفنية .. لقد عاش الفن .. فن الطرب وفن الموسيقى وفن التمثيل .. عاش إلى حد أن أصبح كأنه خبير .. وهو لم يدفعه إليها إلا فنها لقد اكتشف فيها من الفن أكثر مما تعرف عن نفسها ، وإن كان لا يطلب شيئا من فنها أكثر من أن تقضى معه هذه الليالى المخطوفة التى يقضيها معها .. قد تغنى له فقرة من أغنيتها .. وقد تمثل له مشهدا من فيلم أو مسرحية .. وقد يدلى برأيه فى هذا اللحن أو هذه القصة .. ثم لا شيء أكثر من بضع قبلات بين شفتيها ومعظمها فوق خديها ..

وهي لم تكن أبدا امرأة رخيصة .. كانت تضع لنفسها سعرا كامرأة أغلى بكثير من سعرها كفنانة .. كانت تعتبر كل هذه الهدايا التى تصلها هدايا لفنها .. ولكن الهدية كانت تصل قيمتها أحيانا إلى أكثر مما يساوى الفن فى تقديرها .. سجادة عجمى ، أو شقة تمليك فى عمارة جديدة ، أو خاتم سوليتير أكثر من سبعة قراريط .. وأمام مثل

هذه الهدايا كانت تضعف كفنانة وتحس أنه أصبح عليها أن تكون امرأة .. ولكنها لا تقبل أن تكون مجرد جسد بل كانت تصر على أن تحكم ذوقها .. ليس أى رجل يستحق جسدها حتى لو دفع الملايين ، ولكن يجب على الأقل ــ بجانب ملايينه ــ أن تتذوقه .. أن يكون وسيما ، وأن يكون متمدينا ، أو يكون رقيقا ، والأهم ألا يكون من هواة الفضائح حتى لا يفضحها .. ربما كان أكثر من كانت تطمئن إليه وهى تعطيه جسدها هو صديقها محروس العبد الله .. إنه شاب من السعودية وصل بشبابه إلى سن الأربعين .. وقد التقت به أول مرة لقاء عابرا فى بيروت بين فريق من الأصدقاء ، وافترقا دون أن تدرى عنه شيئا ودون أن يلفت نظرها بشىء إلا بوسامته وبصمته الطويل ونظرته المهذبة ، ولكنها ما كادت تعود إلى القاهرة حتى وصلتها منه هدية غالية تحملها صديقة لها ومع الهدية ورقة صغيرة كتب عليها « إلى أن نلتقى » ، ثم أصبح يرسل إليها فى كل مناسبة وأحيانا بلا مناسبة هدية. ودائما .. إلى أن نلتقى .. إلى أن التقيا فى لندن بعد أكثر من عامين لم تنقطع خلالهما هداياه .. ولم تكن ذاهبة خصيصا له ولكنها ذاهبة إلى لندن وأغرتها صديقتها بأن تقبل دعوته لها هناك .. وخصص لها فيلا رائعة فى أرقى أحياء لندن .. ليست فيلا .. إنه قصر تعيش فيه كأنها ملكة بريطانيا .. وجدته كما رأته فى لقائهما الأول .. وسيما صامتا مهذبا .. لم تقاوم طويلا .. ليس هناك ما ينقصه مما يبرر مقاومتها له .. وكان يتردد عليها فى القصر الذى خصصه لها فأصبح يعيش معها ، ثم أصبحت تخرج معه علنا فى لندن وتقبل أن يشتركا فى توجيه الدعوات إلى الأصدقاء لقضاء سهرات فى القصر .. وكان مفروضا أن

تبقى فى لندن عشرة أيام فأقامت شهرين ، وأرسلت إلى القاهرة لتنشر الصحف أنها تعالج نفسها هناك .. وبعد ذلك أصبحت تقضى كل عام ثلاثة أشهر على الأقل فى قصرها هناك .. فى لندن .. بل إنها فى العام الثالث قضت ستة أشهر كاملة وتحملت الكثير من الإشاعات التى أحاطتها خلال غيبتها ، وكلها إشاعات لم تصل إلى اكتشاف صديقها محروس العبد الله فهى لم تكن تلتقى به أبدا فى لندن ، وأصدقاؤهما هناك كانوا بضعة أفراد ليس من طبيعتهم نشر الفضائح ، وهو نفسه كان مصابا بداء الصمت فلا تخرج منه كلمة تكشفها أمام الناس ، وعلى قدر ما كانت تستريح لصمته كانت أحيانا تضيق به .. تريده أن يتكلم .. أن يثرثر .. يسليها بكلامه وثرثرته ، وقد كان يتكلم أحيانا ولكنه لم يثرثر أبدا .. وهى تزداد تعودا عليه كأنها أدمنته .. أدمنت كل شيء فيه حتى صمته ، بل إنها مرت بها فترة فكرت أن تتزوجه ، وقد عرض عليها الزواج فعلا ، ولكنها قاومت التفكير فى الزواج حتى رفضته .. كانت تعلم أنها لو تزوجته فكأنها تنازلت عن كل شخصيتها الفنية ، ولا شك أن أكثر ما يشده إليها ويربطه بها هو قيمتها وشهرتها الفنية .. إنه لا يحس وهو معها أنه مع مجرد امرأة تعجبه ولكنه مع الفنانة هناء وصفى المعروفة المشهورة ، ثم إنها عرفت منه أنه زوج لثلاث من نساء بلده ، سعوديات ، وسبق أن تزوج اثنتين واحدة علوية من سوريا والثانية كردية من لبنان ، ولو تزوجته لأصبحت مجرد واحدة من الحريم .. حريمه الخاص .. وربما تركها فى السعودية وخرج يبحث عن امرأة أخرى .. لو تزوجته لأصبحت كالتحفة الغالية التى يشترى مثلها كثير من العرب لمجرد أنها غالية ثم يضعونها فى

البيت وينسونها .. لو تزوجته لأراحته من انتظارها أو من حرصه على مرضاتها حتى يطمئن إلى أنها ستعود دائما إليه .. لا .. لن تتزوجه ..

وكان قد مر على صداقتهما أربعة أعوام عندما سافرت إليه فى لندن وكان فى استقبالها فى المطار ليعتذر لها بأنه لن يستطيع أن يصحبها إلى القصر الذى تعودت أن تقيم فيه لأن زوجته أو على الأصح إحدى زوجاته تقيم فيه مع أولادهما ، وأنه قد اشترى شقة فى عمارة تطل على حديقة هايدبارك لتقيم فيها .. وصدمت .. كانت قد تعودت على هذا القصر حتى أصبحت تحس أنه قصرها .. ملكها .. بل أنها كانت تسافر إلى لندن لتعيش فى هذا القصر لا لمجرد أن تلتقى به .. ثم إنه كان يستطيع أن يأخذ زوجته لتقيم فى أى مكان آخر غير قصر ذكرياتها ، بل إنه لم يتعود أن يدعو واحدة من زوجاته إلى لندن ، وكان أولاده يأتون إليها وحدهم ويرسلهم فى دراسات صيفية داخل الجامعات أو يتركهم يقيمون بعيدا عنه وعنها .. ثم إن هناك شيئا تغير فيه .. إنها تحس فى صمته بنوع من البرود لم تتعوده ، وابتسامته اتسعت عما كانت عليه فأصبحت ابتسامة مفتعلة .. ثم فوجئت بأن الشقة التى اشتراها لتقيم فيها قد اشتراها باسمها هى لا باسمه .. وفهمت .. إن هذه الشقة هى هدية الوداع وهى هدية غالية لا تقل قيمتها عن أربعين أو خمسين ألف استرلينى .. شكرا يا صديقى العزيز .. ووجدت نفسها تتخلص بسرعة من شخصيتها كامرأة وتستعيد بسرعة شخصية الفنانة المعروفة المشهورة وتعامله كأحد المعجبين الذين يلقون الهدايا الغالية فى معبد الفن .. وزياراته لها بدأت تتباعد وأسلوبه فى لقائه أصبح أسلوب صديق لا أسلوب عشيق .. ثم

بدأت تسمع كلاما عن علاقة جديدة له مع امرأة سورية .. وصمتت .. أصبح يشكو من صمتها أكثر مما كانت تشكو من صمته .. وهى فى صمتها تتعمد أن تبدو مترفعة مغرورة كأى فنانة ناجحة .. وفى يوم واحد باعت الشقة التى اشتراها وأودعت قيمتها الضخمة فى البنك ، وربما كان من صالحها أن تحتفظ بها حتى يكون لها مقر فى لندن ، ومن يدرى قد ترتفع الأسعار فى السنوات القادمة ، ولكنها كانت تريد أن تقنع نفسها بأنها ليست مجرد امرأة عادية تملك شقة فى لندن ولكنها الفنانة الكبيرة التى تستطيع دائما أن تجد رجلا يدعوها إلى قصره ..

وعادت إلى مصر قبل أن ينقضى أسبوعان .. عادت وفى قلبها جرح .. هل كانت تحب محروس .. لا .. لقد كانت تحب الحياة التى يقدمها لها .. إنها لم تحب أبدا هذا الحب العبيط الذى يتحدثون عنه وتقع فيه النساء الساذجات .. إنها تحب ما يصل إليها لا ما تعطيه .. إنها تحب النجاح .. تحب الشهرة .. تحب الثراء .. تحب الفن عندما يعطيها لا عندما يأخذ منها .. تحب الموجود لا المجهول .. تحب اللحظات التى تسعدها لا الأيام التى لم تأت بعد .. لا ..

لقد أحبت مرة هذا الحب التى تعتبره الآن مجرد سذاجة ..

كانت لا تزال فى الرابعة عشرة من عمرها . وكان اسمها أيامها سعاد محمد عبد العزيز ، لم تكن قد سميت بعد باسم هناء وصفى .. وكان الفن لا يزال بالنسبة لها هواية تتظاهر بها بين بقية البنات .. كانت تغنى وترقص بلدى وتمثل مقلدة كل مشاهير أهل الفن .. وقد عرفت

بهوايتها بين كل عائلات الحي فكانت تدعى مع أمها إلى كل لقاءات السيدات لتغني وترقص وتمثل .. وكانت أيامها كلها لهوا صاخبا وكانت تتلذذ بمطاردة الصبيان لها إلى أن رأت عباس .. إنها لا تدرى ماذا أحبت فيه .. ربما بهرها بزى طلبة كلية البوليس الذى كان يتمايل به أيام أجازته .. وربما أثارها أنه لم يحاول مطاردتها أو مغازلتها مما دفعها إلى أن تبدأ هي بمغازلته ومطاردته ، واستجاب لها في كبرياء وعنطزة ، وبدأت تعطيه .. كانت متعتها في أن تعطيه لا أن تأخذ منه .. لم تحس أبدا بأنها أخذت شيئا حتى وهى تعطيه بكارتها .. لم تأخذ متعة ولا وعودا ولا حتى صورا زاهية لمستقبلها ، إنما فقط أعطته .. لذة العطاء كانت هى كل شيء تحس به .. تعطيه .. وترضيه .. تطيع أوامره .. وهو لا يريدها أن تغنى أو ترقص إلا له وحده فامتنعت عن الرقص والغناء رغم تحايل صديقاتها ورغم صرخات أمها ورغم أوامر أبيها .. كلهم يريدونها أن ترقص وتغنى بل إن كلا منهم لا يتصور لها مستقبلا إلا كمطربة أو راقصة ، ولكن عباس لا يريد .. وهى لم تعد تعطى إلا ما يريدها عباس أن تعطيه .. وقد بدأ والدها يصحبها ويقدمها إلى بعض أهل الفن .. قدمها إلى محمد عبد الوهاب وإلى زكريا أحمد وإلى أحمد رامي وإلى عزيزة أمير وكثير من الذين كانوا يسيطرون على صناعة السينما أيامها .. لا يريد أن تكون حبيبته مطربة أو ممثلة أو راقصة .. إن مستقبله كضابط بوليس يرفض ذلك .. فكانت ترفض أن تخرج مع أبيها فى طوافه بها على أهل الفن ، فإذا ألح تعمدت أن تخيب أمله فيها ، وعندما أخذها إلى عبد الوهاب ليسمعه صوتها لعله يرسم لها مستقبلها ، تعمدت أن تغنى أمامه من مخارج

أنفها .. تعمدت أن تكون خنفاء ، واستمع لها عبد الوهاب من خلال ابتسامة هادئة ثم قال ضاحكا :

ــ يا سلام .. شفايفك حلوة يا آنسة .. إنت بتاكلى بيهم ولا بتاكلى من مناخيرك ..

وضربها والدها يومها علقة ساخنة تحملتها وهى سعيدة لأنها تعطى حبيبها عباس ..

وهى امرأة فى الرابعة عشرة من عمرها تعيش فى انتظار أن تعطى المزيد دون أن تأخذ .. ولكن عباس بمجرد أن تخرج فى كلية البوليس اختفى من حياتها بلا حتى كلمة وداع .. وأيامها كادت تموت من الصدمه ولكنها الآن تعرف أنه كان نهاية طبيعية لهذا النوع من الحب الساذج .. نهاية لكل عطاء لا يقابله أخذ .. وبعد أن تحررت من العطاء استسلمت لوالدها ليحملها إلى دنيا الأخذ .. أن تأخذ من فنها .. وعرفت واشتهرت .. وبعدها بسنوات جاء عباس يحمل لها باقة ورد .. ربما جاء لتعطيه كل ما وصلت إليه من فن ومجد وثراء .. ورفضت أن تسمح له بالدخول وحمل لها الخادم باقة الورد ، وقلبتها بين يديها .. إن ثمنها لا يزيد على خمسة وعشرين قرشا .. كل هذا لم تأخذ ثمنا له إلا خمسة وعشرين قرشا .

وهى لم تتزوج حتى اليوم ، ربما كان من حقها هى الأخرى أن تحمل لقب عذراء الفن ، ولكنها مكتفية بإصرارها على لقب آنسة .. الآنسة هناء وصفى ..

وهى الآن ليست فى حاجة لمن يعولها أو ينفق عليها .. إنها ثرية .. فى منتهى الثراء .. وهى تختزن الآلاف فى بنوك مصر وفى بنوك أوروبا

وفى دولاب ملابسها وتضع بعضها وديعة عند شقيقتها .. وهى أيضا تملك عمارة وقطعة أرض فى منطقة الهرم .. إنها ليست محتاجة .. ولكن الأخذ ليست قيمته فيما تأخذ ، ولكن فى مجرد الأخذ .. أن تأخذ معناه أنها لا تزال فنانة ناجحة ولا تزال امرأة جميلة .. أن الأخذ كالتصفيق .. تأخذ تصفيق الجمهور الواسع وتأخذ هدايا الجمهور الضيق الذى يضم الأغنياء .. ولكنها تحس الآن أنها تفقده لـذة الأخذ .. وأنها تهتز بعنف فوق القمة التى وصلت إليها .. القمـة الفنية .. مضى الآن أكثر من عامين ولم يتقدم إليها أحد بعرض لتمثيل فيلم سينمائى .. لقد تعودت على إلحاح منتجى الأفلام ، وكانت تباهى بأنها ترفض كثيرا من العروض فيلحون عليها بالإغراءات حتى تقبل .. وفى آخر مرة تقدم إليها أحد المنتجين فرفضته فى انتظار أن يلح عليها ، ولكنه خرج ولم يعد .. لم تعد تملك قوة الرفض ، ولا قوة جذب الإغراءات .. وهى تستطيع أن تنتج فيلما لحسابها ومن أموالها الخاصة .. ولكنها لم تنزل إلى هذا المستوى الذى ازدحم هذه الأيام بنوع من الفنانات ، كل منهن تصادق رجلا من رجال البترول أو من رجال الأعمال لينتج لها فيلما لحسابها ، حتى أصبح معظم الإنتاج السينمائى الآن يمول عن طريق العلاقات الخاصة بين الفنانات والأثرياء ، وربما لو أجتمع خمس من هذا النوع من الفنانات لاستطعن أن ينشئن أكبر شركة للإنتاج السينمائى تنافس شركات هوليوود ، وتزاول أعمالها فى دار تضم غرفة نوم وغرفة العقود .. لا .. لن تنتج أبدا لحسابها الخاص ومن أموالها حتى لو ماتت من الجوع الفنى واختفى اسمها بين الفنانات .. إن أكبر ما تعتز به هو تهافت المنتجين

والمخرجين عليها .. هو أن يدفعوا لها لا أن تدفع لهم ، وأن يكسبوا بها لا أن تكسب بهم ، وكل ما هناك أنها أهملت فنها مدة طويلة وأهملتهم .. ويجب أن تبذل مجهودا أكبر حتى تعود وتبرز شخصيتها فى الوسط السينمائى والفنى .. ثم إنها لن تتبع الطريق الذى تتبعه المطربات الأخريات ، حتى يهربن من دلال وتحكم الملحنين .. كل منهن تزوجت ملحنا .. فايزة تزوجت محمد سلطان .. ووردة تزوجت بليغ حمدى ، وفيروز تزوجت الرحبانى ، وعايدة الشاعر تزوجت سيد إسماعيل .. و .. و .. كل منهن أصبح لها « ملحن شرعى » .. أبدا لن تبحث عن ملحن تتزوجه حتى لو كان عبد الوهاب .. إنها كأنها بذلك تضع فنها فى صندوق زجاجى لا تستطيع أن تخرج منه .. كأنها تعيش العمر كله فى لحن واحد ، وذوق فنى واحد .. ثم إن الملحن الشرعى أبرد وأضعف من الملحن العازب ، إن بليغ حمدى أكثر تحررا فى ألحانه مع أم كلثوم منه فى ألحانه مع وردة .. شىء طبيعى فالزوج الملحن عندما يلحن لزوجته كأنه يساعدها فى أعمال المطبخ .. أبدا لن تشترى ملحنا وتتزوجه كأنها تقبض عليه .. وصحيح أن المطربات المغتربات قد اكتسحن السوق .. فيروز اللبنانية ، ووردة الجزائرية ، فايزة السورية ، وعليا التونسية .. و .. و .. ولكنها تستطيع أن تسترد منهن السوق .. تستطيع أن تجدد زعامة أم كلثوم الفنية على كل العالم الفنى .. ويجب أن تحاول .. يجب أن تنسى نفسها كامرأة وتعيش كلها فى فنها ..

وهنا ظهر فى حياتها الأستاذ طاهر عبد الحميد ..

إنها تعرفه من زمان طويل ربما منذ بدأت أولى خطاها فى عالم

الفن ، ولكنها كانت دائما تعرفه من بعيد .. ولم تكن فى حاجة إليه ولم يكن فيه ما يغريها به .. ولكن الأستاذ طاهر شيء كبير .. إنه يسيطر بشخصيته على عالم الفن كله .. يكفى أن يقول كلمتين ليرتفع فنان ويهوى فنان .. وهو صديق كل الكبار .. صديق عبد الوهاب وأم كلثوم ويوسف وهبى وفاتن حمامة .. و .. و .. إن مجرد صداقته لها قيمة كبيرة .. وفى الجلسات التى يتزعمها بنكاته اللاذعة وضحكاته وآرائه وأشعاره يتم كثير من الانطلاقات والصفقات الفنية .. وهى تعرف عنه كل هذا ولكن تحسب حسابه ولا تضمه إلى أصدقائها .. كان يخيل إليها أنها ليست فى حاجة إليه .. ومن يدرى .. ربما كان هو السبب فى هذا الجفاف الفنى الذى يحيط بها .. ربما كان فى جلساته يذبحها بنكاته التى تصدر كأنها أحكام بطردها من عالم الفن .. ربما .. ولكنها يجب أن تسعى إليه .. إنها واثقة أنها تستطيع أن تستولى عليه .. وبعدها يصبح الأستاذ طاهر عبد الحميد هو السلاح الذى تسترد به كل وقفتها فوق قمة الفن ..

وطاهر الأستاذ .. كان شخصية عجيبة فى كل المجتمعات .. كان يستطيع دائما أن يفرض نفسه ويفرض ما يريد دون أن تكون له وظيفة رسمية تتيح له أن يفرض إرادته .. كان كل ما يرسم شخصيته هى مواهبه الخاصة ، وكان دائما واثقا مغرورا بهذه المواهب .. وربما بدأ غروره منذ كان صبيا إلى حد أن تصور أنه ليس فى حاجة إلى أن يتم تعليمه .. إن مواهبه تغنيه عن أن يكون تلميذا لمدرسين لا يصلون إلى مستواه فى الذكاء ولا إلى قدرته الخاصة فى الوصول إلى العلم .. وفعلا انقطع عن المدارس وهو لا يزال فى الثانية عشرة من عمره وبدأ

يعلم نفسه .. أدمن القراءة وكان يفرط فى إدمانه ، وإن كان بقى دائما لا يقرأ إلا اللغة العربية ، ولا يهتم إلا بما هو عربى .. لم يصل إلى مستوى عباس العقاد الذى استطاع أن يعلم نفسه علما واسعا يشمل العالم كله ..

وكان الأستاذ طاهر يعلم منذ البداية أنه ليس إنسانا وسيما .. لا وسيم الوجه ولا وسيم القوام .. كان قصيرا أقرب إلى قزم ، رفيعا كأنه بلا لحم ، ورأسه كبير ووجهه عريض كأنه يحمل فوق كتفيه حملا ثقيلا .. ولكنه منذ البداية أيضا استطاع أن ينسى الناس عجز وسامته بمقدرته على أن يشغلهم بحديثه .. منذ أيام صباه وأولاد الحى يتجمعون حوله ليحكى لهم أى شىء .. يروى لهم قصصا ، أو يحكى لهم أخبارا عن أهل الحى ، أو يسمعهم أشعارا حفظها وأشعارا كتبها ، وفى دقائق يصبحون ملك يديه يضحكهم أو يبكيهم ، ويثيرهم أو يخمدهم .. وبقى دائما هكذا .. موهبته الأولى هى الفن الحديث إنه فن أقوى تأثيرا من فن الكتابة والخطابة ومجاله أوسع .. إنه فن كل يوم وكل ساعة .. وقد نقل فنه — فن الحديث — إلى المستويات العليا .. مستوى الشخصيات التى تتزعم كل مجال .. مجال السياسة ، ومجال الثراء ومجال الفن ومجال الصحافة .. وكان يتعمد الوصول إلى هذه الشخصيات .. كل الشخصيات على اختلاف مواقفها تجرى وراء طاهر عبد الحميد ليحيى لها السهرة بأحاديثه .. النحاس باشا يدعوه إلى جلسته ومحمد محمود باشا الذى يتزعم الحزب المعارض يدعوه .. وأم كلثوم وعبد الوهاب .. ويوسف وهبى وأنور وجدى .. وندوة « الأهرام » وندوة « المصرى » وندوة كلوب محمد على

وندوة نادى السيارات و .. و .. كل شخصية تعتز وتفرح بأن الأستاذ طاهر يشترك في سهراتها بأحاديثه ومواهبه .. ولم يكن الأستاذ طاهر يلبي أى دعوة .. كان دائما يعطى لنفسه حق الاختيار .. وكان الاختيار يقوم دائما على شيء يريده ويحققه دون أن يفصح عنه .. وكان أحيانا يتخذ موقفا معارضا عنيفا ضد شخصية من هذه الشخصيات التى تمثل قمة المجتمع المصرى لمجرد أنها لا تحقق ما لا يفصح عنه .. وقد كانت أحاديث طاهر على قدر ما هى ممتعة على قدر ما يمكن أن تكون خطرة .. وعلى قدر ما تخدم على قدر ما تهدم .. كان يستطيع بلباقته أن يضمن أحاديثه قصصا وروايات قد تطيح بوزارة وتلقيها خارج الحكم ، أو يجعل فنانة تطلق زوجها أو تهجر عشيقها ، أو يتسبب فى فشل مسرحية أو فيلم سينمائى أو القضاء على شاعر يحاول أن يثبت وجوده .. كان قوة ذاتية خطيرة ..

وكان فى شخصية الأستاذ طاهر خطأ آخر يختلف اختلافا كبيرا عن مظهره ، فرغم أنه كان يستقبل فى جميع الجلسات والسهرات استقبال الصديق لا استقبال المكانة الرسمية ، وتترك له كل حقوق الصديق سواء كان جالسا مع رئيس وزراء أو زعيم من الزعماء إلا أنه كان يحس دائما فى دخيلة نفسه أن كل هذه السهرات ليست إلا مجال عمل .. وكلهم يضعونه فى مكانة معينة .. كلهم أسياده ، وكأنه مضحك الملك ، أو كأنه أبو نواس فى حضرة الخليفة .. وهو يجلس بينهم بعد أن يكون قد أعد كل كلمة يقولها وكل نكتة يطلقها وكل قصيدة شعر يرددها وكل خبر جديد يذيعه .. وهو يحس بالإرهاق من هذه الجلسات .. إرهاق لا يبدو عليه أبدا .. وهو يسعى بين حين

وآخر لأن يرتاح .. أن يجلس بين جماعة لا يحس بينهم أنه يعمل ويفتعل ويمثل .. وأن يجلس وهو يحس أنه سيد الجلسة .. أنه الزعيم .. أنه الأستاذ .. وكان يجد راحته بين الشبان الجدد الذين لا يزالون فى الخطوات الأولى من معركة الحياة .. من النجاح .. وكان من بين مواهبه أنه يستطيع أن يكتشف المواهب الجديدة .. المواهب التى لا تزال معلقة على أغصان شجرة النجاح قبل أن تنضج .. فكان يلم حوله هذه المواهب الشابة ويدعوهم إلى جلسته فى الليالى التى يعفى نفسه فيها من جلسات العمل .. هو الذى يختار من يدعوه وهو الذى يدفع قيمة الحساب . ويجلس بينهم وكأنه جالس على العرش .. عرش العلم والفن والمعرفة .. ثم أنه الأستاذ .. أستاذ كل الأجيال الجديدة .. وكانوا يجلسون حوله وهم مبهورون بكل كلمة يقولها .. مبهورين بشخصيته .. تلامذة مبهورين بشخصية الأستاذ وينفخون فيه كل أحاسيس الأستاذ وغرور الأستاذ ومتعة الأستاذ .. وكان إحساسه بأستاذيته يدفعه إلى أن يشاركهم فى مسئوليتهم عن نجاحهم .. يراجع إنتاجهم ويتتبع خطواتهم ، ويتوسط لهم لدى المسئولين حتى يرتفع بهم إلى أعلى .

ولكن الأستاذ طاهر كان غريبا .. فلا يكاد واحد من الشبان الذين جمعهم حوله ينجح فعلا ويصبح ممثلا مشهورا أو مهندسا معروفا ، أو سياسيا له مجاله حتى يطرده من جلسته .. بل أحيانا يبدأ فى إطلاق تشنيعاته عليه .. التشنيع الذى يصنعه فى قالب نكتة .. إنه يحس كأن هذا الذى نجح قد تخلى بنجاحه عنه .. لم يعد تلميذه ولم يعد معتمدا عليه بل انضم إلى صف الشخصيات الهامة التى يعيش هو — أى الأستاذ

طاهر ـ معتمدا عليها .. وهو عنده من الأسياد ما يكفيه وليس فى حاجة لأن يضم إليهم سيدا آخر حتى لو كان هو الذى صنع هذا السيد أو ساهم فى الوصول به إلى قصر السيادة ..

كان هذا هو الأستاذ طاهر عبد الحميد الذى تجاهلته الفنانة هناء وصفى كل هذه السنوات التى عاشتها مغرورة تعطى حياتها الخاصة أكثر مما تعطى حياتها الفنية ..

وبدأت تفكر كيف تكسبه ..

لا يمكن أن تبدأ الاتصال به لمجرد السؤال عن الصحة ، لقد مضى أكثر من خمس سنوات وهى لم تسأل أبدا عن صحته ، بل إنه سبق أن دخل المستشفى ليجرى عملية جراحية ولم تسأل عنه ولا حتى بباقة ورد ترسلها إليه نيابة عنها .. ربما الأفضل أن تتفق مع صديقتها فايزة على أن تدعوه إلى سهرة تقيمها وتدعوها معه ويلتقيان لقاء صدفة .. ولكن لا .. إن لقاء الصدفة لا يكفى وقد تغلبها فايزة فى الاستيلاء على طاهر .. يجب أن تجد عذرا للاتصال به اتصالا مباشرا .. أن تطلب منه مثلا أن تغنى إحدى قصائده .. وفعلا قضت أياما وهى تبحث له عن قصيدة .. إنها لم تعود أن تقرأ له ، بل لم تعود أن تقرأ الشعر عموما إنما فقط تغنيه .

ووجدت قصيدة قديمة عنوانها « صدى الآهات » اختارها لها ابن عمها محمود ، ثم رفعت سماعة التليفون بعد أن أعدت وحفظت كل كلمة تقولها .. وقالت فى صوت متردد خجول من أيام غرورها :

ـ أنا هناء .. هناء وصفى .. و ..

وانطلق صوت طاهر يقاطعها فى كلمات ضاحكة :

ــ هناء .. متى عدت من القمر .. متى وصلت إلى الأرض ؟!..

وقالت وقد أعادت لها ضحكة طاهر ثقتها بنفسها :

ــ أنا كنت مريضة يا أستاذ طاهر وكنت أسافر إلى لندن كثيرا .. لابد أنك تعرف ..

وقال طاهر فى صوته الضاحك :

ــ أبدا .. كلنا كنا نعتقد أنك صعدت إلى القمر مع أصدقائنا الأمريكان وأن أهل القمر أمسكوا بك .. بعضهم قال إنك تزوجت هناك وبعضهم قال إنهم أكلوك .. المهم الحمد لله على السلامة .. ما هى أخبارك ؟..

وقالت ضاحكة :

ــ أخبارى أنى فى حاجة أن تقرضنى .. أن أستلف منك ..

وتغير صوت طاهر وقال ورنة جدية حنونة تنطلق مع صوته :

ــ أى شىء .. آمرى ..

وقالت :

ــ أريد أن تسلفنى قصيدة أغنيها ..

وعاد طاهر يضحك قائلا :

ــ كنت أعتقد أنك فى حاجة إلى سلفة أكبر .. أفزعتنى .. أى قصيدة تريدين ؟..

قالت بسرعة :

ــ قصيدة صدى الآهات ..

وضحك طاهر ضحكة عالية ثم قال :

ــ يا هناء يا حبيبتى هذه القصيدة ليست لى إنها للشاعر عبد العظيم

فتحى .. هل تريدين أن أستلفها لك منه ؟..

وصاحت هناء كأنها تستغيث :

ــ لا .. لا .. لقد اخترتها لأنهم قالوا لى إنها لك .. أنت الأهم .. اختر لى قصيدة من قصائدك ..

أرجوك يا أستاذ ..

وسكت طاهر برهة ثم قال فى رنة هادئة تنبض بالحرارة كأنه يلقى قصيدة غزل :

ــ هناء .. الوسيلة الوحيدة هى أن أستلف منك بدلا من أن تستلفى منى ..

وقالت هناء فى فرحة :

ــ تحت أمرك ..

قال :

ــ أنى أريد أن أستلفك أنت شخصيا .. إن كل لمحة منك هى بيت من أبيات الشعر .. وخطوطك أشبه بنغمات القوافى .. فدعينى أستلف ملامحك وخطوطك وأترجمها إلى قصيدة شعر جديدة .. إن الشاعر يعيش على اقتراض الجمال ..

وقالت هناء فى حياء مفتعل :

ــ اتفقنا .. لقد سلفتك نفسى .. تعال لنتناول العشاء عندى الليلة لأسلمك السلفة ..

ووضع الأستاذ طاهر سماعة التليفون وبين شفتيه ابتسامة ساخرة يسخر بها من نفسه .. إنه يعلم أن هناء لم تتصل به إلا لأنها وجدت نفسها فى حاجة إليه .. وهو يعلم أن أى فنانة لا تحتاج إليه إلا ليضمن

لها البقاء على القمة إذا كانت قد وصلت إليها .. أو ليصل بها إلى القمة إذا كانت لم تصلها .. وهناء وصلت إلى القمة ولكنه يعلم أنها وصلت بنفسها إلى حافة تكاد تسقط منها إلى الهاوية .. هاوية النسيان .. نسيان الجمهور لها .. وقد سبق أن احتاجت إليه فنانات كثيرات .. ربما كل الفنانات .. وكان يقع في الحب أحيانا .. أحب أكثر من مرة .. وكان يختار للحب أكثر الفنانات حاجة إليه .. الفنانة التى يحس أنها تبدأ به خطواتها الأولى .. يحس أنه أستاذها وخالق كيانها الفنى .. ولكنه كان دائما يعيش الحب بخياله أكثر مما يعيشه بواقعه .. وكان سرعان ما يضيق بخياله ويحس بحاجته إلى تجديد هذا الخيال فيهرب من هذا الحب .. أو ربما كان يقنع نفسه بالحب حتى يتحرر من عقدة وسامته .. قامته القصيرة كأنه قزم ، وقوامه الرفيع كأنه بلا لحم ، ورأسه الكبير العريض كأنه يحمل ثقلا فوق كتفيه .. إنه رغم هذا يجذب إليه النساء .. وخصوصا الفنانات .. ويجدن فى مواهبه ما يغنيهن عن وسامته .. وفى أحاديثه وفى ضحكاته وفى ذكائه وفى خدماته ..

ورغم هذه الابتسامة التى كان يسخر بها من نفسه فقد كان قلبه يتأرجح فى فرحة كبيرة .. إن هناك شيئا آخر .. إنها دائما بالنسبة له الأمل المفقود .. رغم أنه حاول كثيرا أن يضعها تحت رعايته ويدخلها بين أفراد هذا البلاط ، الذى يقدس مواهبه وذكاءه .. إن عبد الوهاب وأم كلثوم من أفراد هذا البلاط ، ولكن هناء استعصت عليه ، فتجاهلته ، وانفردت بحياة بعيدة عنه ، وربما لهذا أقتربت من الهاوية وهى لا تزال فى شبابها .. وهو فرح بأنها جاءت إليه .. وهو فى حاجة

إلى الحب ..

وكان يعتقد أنه وصل إلى السن التى لا يحتاج فيها إلى الحب .. ولكن لا .. إنه يحب .. يحب هناء .. يحبها حتى وإن كان لم يجر بينهما سوى الحديث التليفونى وموعد لقاء ..

وحمله خياله فى لحظات كأنه يعيش الحب لأول مرة .. يعيش حبه الوحيد .. حب هناء ..

وقام يرتدى ثيابه استعدادا للقاء حبه .. وكان أشهر ما يعرف به طاهر هو أناقته .. الحلة من لندن والكرافت من إيطاليا والقميص من إيطاليا والحذاء باللى .. ولكنه فى هذه المرة تعمد أن يكون أكثر أناقة .

— ٢ —

قررت هناء أن تستقبل الأستاذ طاهر عبد الحميد كفنانة لا كامرأة .. فنانة محترمة كأم كلثوم منذ كانت فى شبابها .. ومن يدرى ربما كان لأم كلثوم فى شبابها قصص حب ولكنها كانت دائما محترمة ، تعرف كيف تفرض احترامها .. وتعمدت هناء أن تختار ثوبا لا يكشف عن شيء من أنوثتها .. وأن تعقص شعرها وتلون وجهها بحيث لا تجعل من جمالها جمالا صارخا .. تعمدت أن تقلد أم كلثوم كما تتصورها .. وحتى وهى تتفق مع الطباخ والسفرجى على تقديم مائدة العشاء .. يجب أن يكون عشاء محترما ولا يقدم أى نوع من أنواع الخمور .. لا يمكن أن تسمع أم كلثوم بتقديم الخمر فى بيتها وإن كانت لم تسمع أبدا أن أم كلثوم دعت أحدا إلى العشاء أو الغداء ، وكان يقال عنها إنها بخيلة .. ليست بخيلة على نفسها ولا على عائلتها ولكنها بخيلة بخلا اجتماعيا .. وربما كان البخل هو إحدى الصفات التى تميز الفنان الناجح فإن عبد الوهاب أيضا معروف ببخله وإن كانت زوجته استطاعت أن تتحدى هذا البخل الاجتماعى وتفتح بيتها لدعوات الغداء والعشاء .. إن البخل ميزة تترك للفنان التفرغ الكامل لفنه وتجعله مطمئنا دائما إلى حياته الخاصة بحيث لا يشغل نفسه بالحسابات وبالخوف من الإفلاس ، كما أنه صورة من صور الغرور الفنى ، فالفنان البخيل يحس بأنه ليس فى حاجة لأن يتقرب إلى أحد

بكرمه ، وإنما الناس كلهم هم الذين يتشرفون بإكرامه وبدعوته إلى الغداء والعشاء والجلسات والحفلات لمجرد الفرحة والتشرف بوجوده .. إنه ليس فى حاجة إلى دعوة الصحفيين أو متعهدى الحفلات أو منتجى السينما أو الشخصيات الرسمية .. إنه بفنه أكبر منهم جميعا ، وتكفى ابتسامة أو كلمة حلوة يعطيها أو يشرفهم بقبول دعوة هذا أو ذلك ، كل الفنانين الذين استمر وجودهم الفنى إلى آخر العمر ، كلهم بخلاء .. وربما كان أحد أسباب هبوط عمر الشريف إلى الدرجة الثانية من الفنانين العالميين هو أنه كريم وأنه متعلق بالمظاهر الاجتماعية للطبقة الثرية .. يلعب القمار ويربى الخيل ويشترى الكلاب مما جعل ثقل متاعبه المالية يشغله عن فنه ويضطره إلى قبول الظهور فى أفلام رخيصة تهبط بمستواه .. ولكن هى — هناء — إنها ليست كريمة وقد تعودت على أن تأخذ أكثر مما تعطى ، ولكنها الآن فى حالة تفرض عليها الكرم إلى أن تسترد مجدها الفنى فتعود تأخذ أكثر مما تعطى ..

وجاء الأستاذ طاهر عبد الحميد ..

جاء يحمل بين ذراعيه لفافة كبيرة .. إنها تعرف ما فى هذه اللفافة .. زجاجة من الويسكى وبعض المأكولات لزوم المزة .. إنها اللفافة التى يحملها كل زائر ليل إلى فنانة رخيصة .. إلى هذا الحد وصلت قيمتها الفنية .. إلى ما يساوى زجاجة ويسكى وبعض المأكولات .. وصحيح أنها لم تصادق طاهر عبد الحميد ولم تختلط به اجتماعيا بحيث يستطيع أن يقدر قيمتها الاجتماعية ، ولكنها كانت تنتظر أن يقدر على الأقل قيمتها ومركزها كفنانة .. لا يهم .. يجب أن

تحتمل ..

وقد دخل طاهر وهو يضحك ضحكة كبيرة وقال وهو يضع اللفافة على أقرب مائدة :

ــ جئت لألتقى بأهل القمر ..

وضحكت هناء ضحكة خافتة محترمة وقالت :

ــ أهلا وسهلا .. تفضل ..

وقال قبل أن يجلس وهو مستمر فى ضحكته الكبيرة :

ــ ليس قبل أن أستعرض شكل أهل القمر .. أرجوك .. من أجل خاطرى .. دورى بقوامك أمامى ..

وابتسمت فى هدوء ودارت أمامه بقوامها الفاره المنسق وهو ينظر إليها بعينين ملتمعتين كأنه يقرأ مستقبله .. مستقبل حبه .. إنه انتقل إلى حالة الحب منذ حادثته بالتليفون .. كعادته .. يترك خياله يقرر له حياته .. ولكن ما مصير حياته معها .. إنها أطول منه قامة وهو قزم وبدا أكثر قزامة وهو واقف بجانبها .. يبدو كأنه رجل واقف بجانب عمود النور .. لا يهم .. إن الحب يجمع دائما بين المتناقضات .. المرأة البيضاء تضعف أمام الرجل الزنجى .. إن أزمة المجتمع الأوروبى والأمريكى هى أن نساءه يقعن بسهولة فى حب الرجال الزنوج .. والرجل الرفيع يفضل أكثر المرأة السمينة التى تفضل هى الأخرى الرجل الرفيع .. وكذلك الطويل والقصير . كلما كانت المرأة أطول فضلت الرجل الأقصر ، والرجل القصير يفضل المرأة الطويلة .. إن كلا منهما لا يحس بنقص تجاه الآخر .. بالعكس .. كل منهما يحس بأنه يكمل الآخر .. وأكثر من ذلك .. أن المرأة الجميلة تحس

أكثر برجولة الرجل القبيح .. إن الرجل الجميل بالنسبة لها جنسيا كأنه أقرب إلى المرأة .. كأنه امرأة أخرى .. وأيضا بالعكس .. إن المرأة الأقل جمالا تحب جنسيا الرجل الأكثر جمالا .. إن هذا يبدو ظاهرا في كل مجتمعات العالم .. وعلى كل حال فكل هذا لا يهم .. إن الأستاذ طاهر يعتمد دائما على موهبته أكثر مما يعتمد على شكله .. الموهبة التي استطاع أن يحقق بها كل هذا النجاح ، وكل هذه الشهرة في كل المجتمعات .. موهبة الحديث .. كيف يضحك وكيف يبكي ، وكيف يكون مسليا وكيف يكون خطيرا ..

وهدأت عينا الأستاذ طاهر عبد الحميد في مقلتيه وتحولت نظراته إلى هناء كأنها نظرات حب .. حب ينطلق من خياله ويرتسم في عينيه كأنه آهات ..

وأجلسته هناء على مقعد ضيق أنيق كأنها تعمدت أن تختار هذا المقعد حتى لا يغوص بقصره وبجسده الرفيع في مقعد آخر عريض متسع .. وجلست هي على مقعد آخر كأنها تعمدت ألا يضمهما مقعد واحد أو أريكة زيادة في الحرص والاطمئنان ..

وانطلق طاهر يتحدث أحاديثه الحلوة الذكية .. يروي لها قصص الشعر والشعراء ويحكي لها حكايات عن الفن والفنانين .. ومضى بأحاديثه طويلا ثم توقف قائلا ..

ــ ألن نشرب كأسا ..؟

وكان طاهر في حاجة إلى كأس حتى يستعين بها على أن يعيش خياله .. أن يبوح لها بحب أن يمد يده ليلمس يدها .. وقالت هناء بابتسامة رجاء :

ــ أنت تعرف أنى لا أشرب ..

ونظر إليها كأنه لا يصدقها .. إنه فعلا لا يصدقها .. إنه يعرف عنها كل شىء دون أن تدرى .. وربما لم يسمع أنها سكيرة ولكن ما يعرفه عن حياتها الخاصة لا يمكن أن يعفيها من الكأس .. ولكنه قال :

ــ أعرف .. لهذا جئت معى بكأسى ..

وهم أن يقوم ويمد يده إلى اللفافة التى حملها معه والتى كانت هناء قد تركتها حيث وضعها كأنها ترفضها ولا تريدها ..

وقالت هناء :

ــ أرجوك يا أستاذ ليس الآن ..

ونظر حوله نظرات مفتعلة وهو يدور برأسه ، وقالت هناء بدهشة :

ــ عم تبحث ؟

وقال دون أن يتبسم :

ــ إنى أبحث عن الأستاذ الذى تخاطبينه ..

وضحكت هناء قائلة :

ــ ليس هنا إلا أنت ..

أنا هنا لست الأستاذ أنا هنا اسمى طاهر .. وحتى أقنعك فإنى سأتنازل عن الويسكى لأن الذى لا يستطيع أن يستغنى عن الويسكى هو الأستاذ وليس طاهر ..

وضحكا طويلا ثم قطعت هناء ضحكتها كأنها خافت ألا يتوقف الضحك أبدا ويضيع عليها ما تريده من طاهر ..

وقالت :

ــ الحقيقة يا أستاذ طاهر و ..

وعاد يتلفت حواليه .. وابتسمت هناء قائلة :

ـ آسفة .. الحقيقة يا طاهر أني أعيش أزمة فنية لا أدرى كيف أخرج منها ..

واهتزت رموش طاهر كأنه فوجىء بحبيبته وهى فى خطر .. فى مصيبة .. وهو يعرف أن هناء كفنانة قد فقدت الكثير وأن قيمتها الفنية تهتز بعنف بين بقية كبار الفنانين ، ولكنه لم يكن ينتظر منها أن تصرح له بذلك .. لقد تعود على أن يعيش النفاق .. إنه هو نفسه منافق لا يفصح أبدا عن حقيقته حتى عندما يضطر إلى الاقتراض ممن يعرفهم وهو غالبا يقترض ولا يرد المبلغ الذى يقترضه .. ولكنه عندما يقترض لا يعلن أبدا أنه فى حاجة إلى المال .. لا يستجدى ، ولكنه يغطى حالته بطرق مختلفة من طرق النفاق ويقبض قيمة القرض كأنه يمنح الطرف الآخر شرف إقراضه .. وهناء تفترض منه .. تفترض إنقاذه لها من أزمتها الفنية .. أن يلحق بها قبل أن تقع فى هاوية النسيان .. ولكنها لا تنافقه .. لا تكتفى باكتسابه ودفع ثمن إنقاذه لها بإغرائه بأنوثتها كما تعودت كثير من الفنانات .. إنها تصارحه بأنها فى أزمة فنية وكأنها ليست فى حاجة لأن تدفع ثمن هذا الإنقاذ ..

وقال طاهر كأنه يخفف عنها وهو يضحك ضحكة ضعيفة :

ـ السبب أنك متعالية .. قنزوحة .. لا تختلطين بالوسط الفنى .. لا أحد مثلا فى الوسط الفنى إلا ويتصل بى أو ألقاه فى منتدى من المنتديات ، وأنت قد مضى عليك أكثر من خمس سنوات دون أن تتصلى بى ودون أن ألقاك ولو صدفة .. وهذه العزلة أو التعالى جعلك لا تعرفين أين تقع الأسواق الجديدة للفن .. السوق الفنية ليست هى

الآن الحفلات العامة ولا المسارح ولا حتى السينما .. السوق الآن هى سوق الكاسـت والتليفزيون .. والذى يتحكم فى الأسواق الآن ليس أصحاب السوق المصرية ولكنهم أصحـــاب أسواق دول البترول .. إنى أعرف منتجين سينمائيين لا يهمهم الآن نجاح الأفلام فى مصر ولكن يهمهم أولا نجاحها فى الكويت ودول الخليج .. إنهم يكسبون هناك أكثر .. ولذلك بدأت الأفلام تعتمد على نوع معين من المواضيع ومن الممثلات .. وكذلك فى الغناء .. إن أحمد عدوية يبيع فى سوق الكاسـت أكثر مما يبيع عبد الحليم ، وعايدة الشاعر تبيع أكثر من نجاة .. والشعراء والكتـاب هاجـروا إلى دول البتـرول إمـا بأشخاصهم أو بإنتاجهم و .. و .. كل هذا أنت بعيدة عنه .. و ..

وقاطعته هناء كأنها قررت أنها لن تستطيـع أن تكسبـه إلا إذا صارحته .. لن تستطيع أن تتغلب على ذكائه إلا بأن تثير شفقته عليها :

ـــ مهما كانت الأسباب فإن السبب الرئيسى هو أنى أهملت فنى .. أصبحت لا أغنى إلا كهاوية .. لا أغنى إلا عندما يأتينى المزاج كأنى أغنى لنفسى لا للناس .. خيل إلى يوما أنه يكفى أن أغنى كلمتين ليعيش الناس عليهما سنتين ويكفى أن أمثل فيلما فيعيش الناس فيه خمس سنوات .. ويكفى أن أمثل مسرحية ليكتفى الناس بها طول العمر .. كنت ضحية غرورى بنفسى .. وكنت ضحية الحياة السهلة ..

ولمعت عينا طاهر كأنهما امتلأتا بالدموع وقال فى صوت متهدج كأنه يبكى مع هناء :

ـــ لا تظلمى نفسك .. إن اسمك لا يزال فى القمة .. من لا يريد أن يمتع نفسه بفن هناء ..

وقالت وهي تبتسم كأنها تسخر من نفسها :

ــ إنك تحاول إن ترفه عني بهذا الكلام .. أن الذين يعيشون في القمم هم الذين يصدرون أوامرهم ويفرضون أنفسهم .. وأنا لم يعد لى أمر أستطيع أن أفرضه .. تصور أن عبد الوهاب مضى عليه أكثر من سنتين وهو لا يسأل عنى بل يخيل إلى أنه يتهرب منى .. وبليغ حمدى متزوج .. وكمال الطويل صاحب شركة إنتاج وإن كنت لا أعرف ماذا تنتج .. والموجى رغم طيبته إلا أنه صاحب مزاج ولا نستطيع أن نكتشف مزاجه .. وكذلك أصحاب شركات السينما لم يتقدم أحدهم إلى بشيء .. وأنت .. الشاعر المعروف .. متى عرضت على قصيدة أغنيها ومتى فكرت في السؤال عني لولا أني سألت عنك ..

ومد طاهر يده وربت على يد هناء في حنان وقال وهو يكاد يبكى فعلا :

ــ قلت لك إنهم مشغولون بالتليفزيون والكاست وأسواق البترول .. لا يهمك .. اعتمدى على ..

وقالت كأنها تملى عليه مطالبها :

ــ حتى الصحف .. لا أحد يهمه أن ينشر صورتي أو يكتب عنى ..

قال وهو يبتسم لها كأنه يعترف بحبه :

ــ اعتمدى على أيضا وصدقيني إن ما ينقصك هو أن تجدى من يستغل فنك وسأستغله أنا .. إنك أكبر من أن تحتاجى إنما الناس كلهم في حاجة إليك ..

وطوال فترة العشاء لم يكف الأستاذ طاهر عبد الحميد عن ممارسة

فنه .. فن الكلام .. وكان قد ركز كلامه على أن يعيد لهناء ثقتها بنفسها .. أن يقنعها بأنها ست الكل ، وأن يروى لها حكايات عن فنانين آخرين لتسخر منهم وتحس أنها أعلى منهم .. ونظراته تلمع دائما بالحب .. إنه يحبها وارتفعت درجات حبه بعد أن تأكد من مدى حاجتها إليه ..

وعندما هم بالخروج من البيت رفع يدها إلى شفتيه وقبلها .. لم يحاول أن يشب على قدميه ليقبلها على خدها ولكنه اكتفى بأن يقبلها قبلة أخرى على لحم ذراعها ..

وخرج دون أن يتناول قطرة من الويسكى .. غريبة .. لقد كان يخيل إليه أنه لن يستغنى أبدا عن الويسكي وقد كان يشربه في شبابه ليزداد انطلاقا ومرحا ولكنه الآن يشربه ليضمن التغلب على الأرق .. لينام .. إن الويسكى كأس خدومة تمنحك اللهو إذا إردت أن تلهو وتمنحك النوم إذا أردت أن تنام ..

ولكنه لا يريد النوم ..

إنه في فراشه يعيش كله مع هناء .. وهو يريد أن يكتب لها شعرا تغنيه ، وهو لا يجد الشعر إلا من خلال العذاب .. أن ينقله خياله إلى تصور العذاب وأن يتعذب هو نفسه .. ووجد نفسه يرسم صورة لهناء كأنها قمة المأساة ويعيش هذه الصورة ويتعذب معها إلى حد أن يبكى .. يبكي فعلا .. ومن خلال دموعه يبحث عن أبيات الشعر .. كانت هذه هي طبيعته كشاعر .. وقد وجد البيت الأول من القصيدة ، ثم وجد البيت الثانى .. ودهمه نور الصباح وهو لا يزال جالسا فى فراشه مع عذابه ودموعه وعلبة سجائر يكتب على ظهرها بقلم رصاص

رخيص ما يصل إليه من أبيات الشعر .. وانتشله الصباح من عذابه فنام ..

واستيقظ مع غروب الشمس .. استيقظ مع الحب ، وبمجرد أن فتح عينيه وجد نفسه منطلقا بكل حيويته وبكل نشاطه كأنه استعاد كل شبابه ولم يعد فى حاجة إلى التثاؤب والتمطى والاسترخاء الذى تعوده العجائز .. ومد يده إلى علبة السجائر وقرأ الأبيات التى سجلها عليها وابتسم فى فرح ، ثم جذب إليه آلة التليفون واتصل بهناء ، وصاح بمجرد أن سمع صوتها :

— وجدتك ..

قالت فى دهشة :

— وجدتنى أين ؟

فقال ضاحكا :

— فى مطلع قصيدة .. كنت أعتقد أنى فى حاجة إلى أسابيع حتى أجدك ولكنى وجدتك بعد أول لقاء .. متى ألقاك ..

وقالت هناء فى فرح وهى تحس أنها بدأت تصل إلى ما تريد :

— الليلة إن لم يكن لديك ما يشغلك ..

وقال كأنه يتنهد :

— لم يعد هناك ما يشغلنى عنك ..

وقام من الفراش واستغرق مدة أطول فى تجميل نفسه ثم ذهب إليها ودخل البيت كما لم يدخله أمس .. لم يحس بتردد الضيف ولا بأصول زيارة الغريب ولكنه دخل كأنه صاحب بيت .. واندفع إلى حجرة الاستقبال دون أن يتبع السفرجى الذى فتح الباب .. ووقف برهة أمام

هناء يتطلع إليها وبين شفتيه ابتسامة كأنها قبلة صامتة .. ثم ألقى بنفسه على الأريكة الواسعة دون أن ينتظر أن تختار له مكان جلوسه ، وقال في بساطة :

— تعالى بجانبى ..

ثم مد يده وأخرج من جيبه ورقة صغيرة كان قد نقل إليها أبيات الشعر التى سجلها ليلة أمس على علبة السجائر وقال وهو يعتدل فى جلسته كأنه يعد نفسه للحلم الكبير :

— اقرئى ..

وقرأت هناء بعينيها ثم صاحت :

— رائعة .. هائلة .. هذه أعجوبة يا طاهر ..

وكانت هناء لا تجامله ، إنها من كثرة ما غنت الشعر ومن كثرة ما عرض عليها من قصائد أصبحت تتذوق كلمات الشعر فعلا حتى ولو لم تفهمها ..

وقال طاهر فى بساطة :

— أسمعينى ما قرأته ..

وتلت هناء الأبيات بصوتها .. وقال طاهر بهدوء :

— مرة أخرى أرجوك ..

وتلت هناء الأبيات مرة أخرى وهى دهشة .. وقال طاهر فى حدة :

— إنك تتلينها بلا إحساس ، كأنك تقرأين نشرة الأخبار أو كأنك ترددين درسا فى الأدب لطلبة المدارس الثانوية .. الإحساس يا هناء .. الإحساس بكل كلمة وكل معنى .. الإحساس هو اللحن الأساسى فى كل أغنية .. لحن يسبق اللحن الموسيقى .. والأغنية التى تغنيها

المطربة بلا إحساس تفشل حتى لو لحنها سيد درويش أو عبد الوهاب .. إن سر نجاح أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم هو إحساسهم بالكلمة والمعنى قبل إحساسهم باللحن الموسيقى .. الموسيقى ليست إلا ترجمة للإحساس ، إنك تعطين إحساسك للملحن حتى يلحنه لك كما يعطيك الشاعر إحساسه حتى تغنيه أرجوك .. أسمعيني إحساسك ..

وقالت هناء مبتسمة :

ــ كأنى أتلقى الدرس الأول ..

وقال طاهر وبين شفتيه إبتسامة مفتعلة :

ــ آسف لا أقصد ولكنى أعيش كلى فى رسم هذه القصيدة و ..

وقاطعته هناء بأن بدأت تتلو البيتين وهى تحاول أن تبرز إحساسها بالكلمة .. بدأت كأنها تستعين بمواهبها كممثلة .. تمثل الكلمة وتمثل المعنى .. وظلت تعيد ترديد البيتين دون أن تتوقف إلى أن أحست بأنها اندمجت فيها فعلا ، لم تعد تمثل ، إنها تعيش الكلمات .. وطاهر بجانبها صامت سرحان كأنه يستمع إلى أسطوانة موسيقية بعيدة ثم فجأة صاح وهو يشد قلمه من جيبه :

ــ ورقة .. أى ورقة ..

وتوقفت هناء وهمت بأن تبحث عن ورقة ، ولكن طاهر شد كراسة صغيرة لمحها بجانب التليفون وفتحها فى عجلة كأنه يخشى أن يضيع منه شيء وكتب بيتا من الشعر .. ثم قال وهو لا يزال يعيش مع قلمه فوق الورقة :

وعادت هناء تردد البيتين بينما طاهر يردد كلمات لا تسمعها ، ويهز رأسه الكبير كأنه خروف يحاول أن يشق الأرض بقرنيه بحثا عما يأكله ثم يرفع رأسه ويشد بأصبعه فى شعر رأسه .. ومضت فترة .. ثم فجأة رفع القلم وكتب سطرا آخر عاد وتلاه بينه وبين نفسه ، ثم ألقى بالكراسة بعيدا فوق المائدة وانهار بظهره فوق حافة الأريكة وهو ينهج بأنفاسه كأنه عاد من مشوار طويل ..

وكانت هناء قد توقفت عن ترديد البيتين وقامت ومدت يدها إلى الكراسة لتقرأ ما كتبه طاهر ولكنه جذب يدها بعيدا قائلا :

ــ ليس الآن .. ليس قبل أن تأتى لى بكأس .. لن أعفيك هذه المرة ..

وابتسمت هناء ابتسامة حلوة واسعة وقالت :

ــ حاضر .. كل ما تريد ..

ودخلت وتعمدت أن تعود بزجاجة أخرى غير التى حملها معه طاهر فى لقاء أمس ، ربما لتقنعه بأنها لم تكن فى حاجة إلى ان يحمل لها شيئا ، وقال طاهر مبتسما :

ــ هذه زجاجة أخرى ..

وقالت هناء مبتسمة :

ــ هذه زجاجة من البيت وأريد أن أعودك أن تشرب ما فى البيت .. إنه بيتك يا طاهر ..

ونظر إليها مبهورا وقال وهو يرفع الكأس إلى شفتيه :

ــ لم يعد لى بيت إلا حيث أجدك ..

وشرب طاهر الكأس ثم أخذ الكراسة وأخذ يتلو البيتين اللذين

كتبهما .. وهناء مبهورة .. مبهورة حقا .. ثم بدأت تتلوهما هي الأخرى ، ثم تضيفهما إلى البيتين الأولين وتعود وتتلو وإحساسها يعيش بلا افتعال وبلا تعمد في كل كلمة .. وأفكارها تتحرر أحيانا فتبحث بها عن الملحن الذى يمكن أن يلحن كل هذه المعاني .. إنها تريد أن تغنيها .. اليوم .. غدا .. لا تصبر ولن تحتمل قبل أن تغنيها ..

والسهرة طالت بين ترديد الشعر وحكايات طاهر الذى لا يتخلى عن الكأس .. ثم مد يده لها وأمسك بيدها وجذب نفسه إليها ، وشب بعنقه وقبلها من خدها ثم حاول أن يتسلل بشفتيه إلى شفتيها ، ولكنها ابتعدت عنه بسرعة ورشاقة وهي تقول ضاحكة :

ـــ أرجوك يا طاهر .. ليس بعد ..

وقال وهو يتوسل إليها بعينيه :

ـــ إنك لا تدرين كم تعذبت يا هناء .. إن كل كلمة من هذه الأبيات هي رنين عذابي .. عذاب الحب .. أحبك يا هناء ..

قالت :

ـــ إنه ليس عذاب الحب إنه عذاب التمني .. فدعنا نعيش في هذا التمني حتى تستمد منه الوحي إلى أن تنتهي من القصيدة ..

قال :

ـــ إني أعيش الحب يا هناء ..

قالت :

ـــ إن الحب إحساس والتمني رغبة .. والرغبة تتحقق وتنتهي في لحظات والإحساس ينمو كبذرة الورد ويحتاج إلى وقت حتى يطرح الحب .. دعنا نجرد الحب من الرغبة حتى نطمئن إلى نمو البذرة ..

قال :

— أنا لست مجرد رجل يا هناء ..

قالت :

— أنا ضيعت نفسى عندما كنت مجرد امرأة .. أنا فنانة وأنت فنان .

واقتربت منه ومسحت على رأسه بيدها فى حنان وقالت :

— إنى لا أرفضك ولكنى أبقى عليك ..

وقال :

— إنك ترفعين عذابى إلى مستوى أرقى .. تضعيننى فى نعيم العذاب ..

— وأكمل كأسه وقام منصرفا ، وجرت وراءه هناء تعطيه الورق الذى كتب عليه أبيات الشعر ، وقال وهو يسرع الخطى كأنه يهرب منها :

— سأتركها معك إلى أن نلتقى غدا ..

ولم تنته القصيدة فى أيام .. ومضت شهور قبل أن ينتهى طاهر منها ، وكان يقضى لياليه معها فى بيتها .. وحدهما .. يشرب الكأس ويطارحها الشعر ويروى لها النكات والحكايات ، وقد يصل ليلتها إلى أبيات أخرى من القصيدة وقد لا يصل إلى شىء .. ولم تكن هناء تبادله الكأس أبدا مصممة على أنها لم تتعود الخمر وكانت فى الواقع تحس معه أنها فى حاجة إلى كل وعيها وكل ذكائها حتى تتقى ذكاءه وتشرب من مواهبه .. وكان يذكرها بصديقها القديم الثرى العجوز مرتضى عبد الرحمن ، فقد كان يقضى معها مثل هذه الليالى ، ويروى لها

ذكرياته ويحدثها عن الفن أيام زمان ويسمعها تغنى أو تلقى أمامه مقطعا من مسرحية سبق أن مثلتها ثم يتركها دون شيء سوى بضع قبلات أكثرها فوق خديها وأقلها بين شفتيها .. ولكن هناك فارقا بين مرتضى وطاهر .. كان مرتضى لا يتردد عليها سوى مرة أو مرتين فى الشهر وطاهر يتردد عليها كل ليلة حتى تضطر أن تفتعل الحجج لتريح نفسها منه فى بعض الليالى .. ومرتضى كان سخيا يتحمل ماليا أكثر مما تحتاج وأكثر مما تريد .. كانت تبهر بسخائه .. وطاهر لا يتحمل أى نفقات بل إنها عودته ألا يحمل لها حتى الهدايا البسيطة وأن يجد زجاجة الويسكى فى البيت ولكنها أخذت منه صدق مساعيه لانتشالها من أزمتها الفنية وأخذت منه طعما جديدا لقصائد الشعر .. لقد حفظها من الشعر القديم والحديث أضعاف ما كانت تحفظ وأصبحت تروى الشعر برنة جديدة كأنها تقلده .. وأخذت منه فن الحديث .. أصبحت تتكلم كما لم تكن تتكلم .. ثم أخذت منه صورا للناس المعروفين وللمجتمع بكل أطرافه ..

وقال لها يوما وفى عينيه نظرة جادة كأنه يتطلع إلى مشروع جديد :

ــ متى يوم ميلادك ؟.

وقالت فى دهشة :

ــ لماذا .. إنى أتعمد أن أنسى يوم ميلادى .. لا أم كلثوم لها يوم ميلاد ولا عبد الوهاب وطبعا ولا عبد الحليم ..

وقال فى جدية :

ــ إنه ليلة الأحد القادم .. وسنقيم حفلة هنا فى البيت ..

وقالت وهى تنظر إليه فى حيرة :

ـــ لم أتعود أن أقيم حفلات فى بيتى ..

قال فى تسرع :

ـــ سيكون حفلا ضيقا لن ندعو إليه أكثر من عشرة أو أقل .. إنك فى حاجة إلى التقرب للمجتمع .. المجتمع الذى نحتاج إليه ..

قالت :

ـــ ولكن الذين أعرفهم لست فى حاجة إلى خدماتهم والذين أحتاج إلى خدماتهم بينى وبينهم جفاء لأنهم تخلوا عنى منذ فترة طويلة ..

وقال كأنه قائد المسيرة :

ـــ دعى الأمر لى ..

ثم رفع سماعة التليفون وبدأ يوجه الدعوات إلى حفل عيد ميلاد الفنانة هناء وصفى .. دعا اثنين من رؤساء تحرير الصحف ، وثلاثة من كتاب صفحات الفن المعروفين ووزير الثقافة ثم ثمانية لم تكن هناء سمعت عنهم من قبل ثم عرفت أنهم من شباب الجيل الصحفى الجديد الذين يتبنى طاهر مواهبهم ويحيط نفسه بهم ليتمتع بإحساس الأستاذية .. وقال لها إن هؤلاء هم أهم المدعوين لأن الصحافة تعمل بأصابعها لا برؤوسها وهؤلاء هم أصابع الصحافة .. وكان يوجه الدعوة بأسلوب ضاحك كأنه يدعوهم إلى سماع نكتة ، ويقدم لكل دعوة بحكاية مرحة عن هناء ثم اكتفى بالدعوات وأراح نفسه من التليفون وهو يبتسم ابتسامة مغرورة ..

وقالت هناء وهى فى حيرة :

ـــ هل تعتقد أن الوزير سيأتى ؟

وقال ضاحكا :

ـــ لو كنت دعوته كوزير لا عتذر ولكنى دعوته كصديق ولذلك سيأتى بلا حرس وفى سيارته الخاصة وهو يمنى نفسه بليلة يتحرر فيها ويمرح ..

قالت :

ـــ هل سأغنى ليلتها ؟..

وقال كأنه يتهمها بالسذاجة :

ـــ لا .. لا .. إنك أكبر من ذلك . إنك لا تدعين الناس لسماعك بل الناس هم الذين يدعون أنفسهم .. وما دمت أنت الداعية فلا تغنى ..

وفى اليوم التالى كان الأستاذ طاهر عبد الحميد فى زيارة صديقه رفعت عبد الله عضو مجلس الشعب وصاحب مصانع المنطقة الحرة ، وقال له في بساطة :

ـــ هل معك ثلثمائة وخمسون جنيها ..

وقال السيد رفعت وهو يضحك .. إنه يضحك دائما ما دام طاهر معه :

ـــ خير يا أستاذ ..

وقال طاهر فى جدية :

ـــ مشروع جديد ..

وقال السيد رفعت وهو يطلق ضحكة كبيرة :

ـــ مشروع نسائى أو رجالى ..

وقال طاهر بجديته :

ـــ مشروع فنى ..

وقال رفعت مستمرا في ضحكته :

ـــ خلاص .. كله يرخص فى سبيل الفن ..

وفتح السيد رفعت درج مكتبه وأخرج دفتر الشيكات وقال من خلال ضحكته :

ـــ ألا يكفى ثلثمائة جنيه فقط ..

وقال طاهر فى حدة :

ـــ ولا مليم ناقص ..

وأخذ الشيك كاملا وقال وهو يهم بالانصراف :

ـــ حتى أكون صريحا فلا أعدك بأن أرد المبلغ قبل عام ..

واكتفى السيد رفعت بإطلاق ضحكة كبيرة ..

وكان طاهر قد قرر أن يتحمل نفقات الحفل الذى قرر إقامته فى بيت هناء رغم أنها تحرم عليه أن يتحمل شيئا يدفعه من جيبه إلى حد أنها ترفض هداياه وترفض دعواته ولم يكن هذا يرضيه .. إنه يريد أن يشعرها بأنه رجل كامل يتحمل مسئوليتها كاملة حتى يضمن ربطها بحاجتها إليه فلا تحتاج لأى رجل آخر .. وقد كان يتحمل رفضها حتى يقنعها بأن كل ما يربطها هو الفن .. ولكن الآن وفى هذه المناسبة لن يستسلم للرفض .. وهو يحصل على دخل كبير .. إنه موظف رمزى كرئيس لدار الكتب العربية ومرتبه يوازى مرتب وكيل وزارة رغم إنه لا يتردد على دار الكتب إلا ليبحث عن كتاب .. وهو عضو فى سبع لجان فى سبع مؤسسات ويتقاضى عن كل لجنة مكافأة ثابتة ولكنه يعتمد أكثر على قصائده .. ينشرها فى الصحف ويبيعها

للمطربين والمطربات ثم يجمعها في كتاب ويحصل على حق الأداء العلني من الإذاعة والتليفزيون وشركات الأسطوانات والكاسيت سواء في مصر أو خارج مصر .. إنه يكسب كثيرا .. إنه في قمة الثراء الفني في حدود الفن الأدبي ، ورغم ذلك فهو مفلس دائما .. إن كل قيمة المال عنده أن ينفقه .. أحيانا يبدو كأنه يتخلص من هذه النقود كأنه يكرهها ..أو كأن كل ورقة بجنيه ليست سوى عصفور محبوس في جيبه ويتمتع بإطلاق حريته بعيدا عن القفص .. ولذلك فهو يقترض دائما ولا يهمه أن يرد القرض لأنه يؤمن بأنه يقترض من ناس ليسوا في حاجة إلى رد القرض ، ثم إنه يحضر سهرات وليالي هؤلاء الناس ، ويتحمل إحياء هذه الليالي بكلامه ونكاته وحكاياته .. إنه كأي فنان يبيع فنه ، ورغم ذلك فهو لا يطالب بأجر هذه الليالي .. ونظير ذلك فمن حقه قطعا أن يقترض عندما يحتاج وألا يرد القرض ، وإن كان يتعمد أن يرده في صورة هدايا من كتاب يصدر له أو من أسطوانه تسجل لأشعاره .. هكذا كان طاهر ..

وكانت هناء ملخومة قبلها بليال بالإعداد للحفل ، وفوجئت في صباح يوم الأحد بمندوبين من محل جروبي يدخلون البيت وهم محملون بأطنان من متطلبات الحفل .. إنه طاهر الذي أرسل كل ذلك .. وعدد المدعوين لا يزيد عن خمسة عشر ولكن طاهر أرسل ما يكفي للاحتفال بمائة مدعو .. وزجاجات الويسكي والنبيذ والشمبانيا تكفي خمارة ، ثم اتفق مع طاه وعدد من السفرجية كلهم من جروبي لإدارة الحفل ..

وابتسمت هناء في فرح هادىء وأحست كأنها تلقت هدية من

أبيها ، وعندما جاء طاهر قالت :

ــ أنت مجنون ولكن حلاوتك فى حنانك ..

ثم انحنت فوق قامته القصيرة تقبله على خده ثم على خده الآخر ، وظلت ملتصقة به كأنها تعطيه الحق فى قبلة على شفتيها .. ولكنه أزاح وجهه بسرعة عن وجهها .. إنه ليس على استعداد الآن لأى نوع من القبل ، إنه يعد نفسه للحفل كأى ممثل يتفرغ لتقمص الشخصية قبل أن يظهر على المسرح .

وجاء المدعوون وكانت هناء تردد بينهم :

ــ لولا الأستاذ طاهر لما شرفتمونى ..

كأنها كانت تريد أن تضع لومها باعترافها بالفضل لصاحب الفضل .

وقال الوزير ضاحكا :

ــ إنك لم تجربى دعواتنا .. الدعوى لن أقبلها إلا منك ..

وقالت فى دلال :

ــ إنى أنتظرك بلا دعوة ..

وقال الوزير وهو يتذوقها بعينيه :

ــ أنا والتليفزيون والإذاعة تحت أمرك ..

وهى تنتقل بين المدعوين تسمع من كل واحد حكاية أو تروى له حكاية إلى أن استولى طاهر على الحفل كله يروى نكاته ويثير جدلا ويرسم صورا مضحكة للشخصيات العامة ، ثم بدأ يروى الشعر والكل صامت كأنه يسمع أغنية جديدة لأم كلثوم ، وفجأة توقف وقال فى مرح :

ــ الليلة سأقدم لكم اكتشافى الجديد .. لقد سمعتم هناء تغنى وسمعتموها على المسرح وفى السينما . ولكن أنا وحدى سمعتها تروى الشعر ، وبما أننا نعيش الاشتراكية فإن من حقكم جميعا .. من حق الشعب .. أن يطالب بأن تروى له هناء الشعر ..

وبدأت هناء تروى الشعر كما حفظت كلماته ومعانيه بإحساسها .. وبهت المدعوون .. لم يسمعوا الشعر أبدا من امرأة بمثل هذا النغم وحلاوة الإلقاء .. وروت هناء شعرا للمتنبى ، ثم شعرا لشوقى واختتمت بشعر طاهر والمدعوون لا يريدونها أن تنتهى أو تختم ..

وعلى مائدة العشاء كانت هناك « تورتة » عالية من خمسة أدوار .. لقد أخطأ طاهر إن هذا النوع لا يقدم فى أعياد الميلاد .. إنه لا يعرف .. أو ربما أراد أن يشترى أغلى شىء من كل شىء .. وكان فوق التورتة شمعة واحدة ، وقال طاهر معلقا ضاحكا :

ــ إن هناء تعتبر أنها ولدت الليلة من جديد ..

وبدأ المدعوون فى الانصراف وبقى طاهر وتركت هناء شفتيها له .. إنها أول مرة تبيح له شفتيها .. فقط شفتيها ..

وفى اليوم التالى بدأت الصحف والمجلات كلها تكتب عن هناء .. صورها تنشر كبيرة وأخبارها مطولة .. ولم تتوقف الصحف من يومها عن الكتابة عنها .. أحست أنها استعادت كل مجدها ..

ثم ..

انقضت أيام وإذا بها تفاجأ بحرم الدكتور رمزى مصطفى تطلبها فى التليفون .. إن رمزى مصطفى نائب رئيس الوزراء ومن أكبر

الشخصيات الهامة فى المجتمع المصرى .. وقالت حرم نائب رئيس الوزراء فى صوت رقيق متواضع :

ــ إننا لم نتعارف .. أو على الأصح أنت لا تعرفيننى ولكن كلنا نعرفك ونسمعك ونراك .. وقد دعوت بعض الأصدقاء فى سهرة خاصة مساء غد فهل أحظى بك .. إنهم كلهم يريدون لقاءك ..

وفوجئت هناء .. بهتت .. وقالت فى صوت مرتج :

ــ يشرفنى يا أفندم .. يشرفنى ويسعدنى ..

وبعد أن وضعت سماعة التليفون بدقائق ، رن الجرس من جديد وعادت ترفع السماعة .. إنه طاهر يقول فى صوت جاد كأنه رجل أعمال :

ــ هل اتصلت بك زوجة نائب رئيس الوزراء ؟

وقالت هناء وهى تتلقى مفاجأة أخرى :

ــ هل أنت .. لقد كنت أعتقد أنه مقلب دبر لى ..

وقال ضاحكا :

ــ إنه صديقى وقد طلبت من زوجته أن تدعوك ، ففرحت أكثر من فرحتى بك ..

وقالت هناء فى تردد :

ــ هل سأذهب معك ؟

وقال طاهر :

ــ لا يا عبيطة .. تذهبين لتقدمى نفسك شخصية مستقلة حتى عنى ..

قالت :

ــ وهل أصحب معى فرقة موسيقية أو على الأقل عازف العود والكمان ..

وقال طاهر :

ــ لم أكن أعتقد أنك فى مثل هذه السذاجة .. هل سمعت أن أم كلثوم تلبى دعوة خاصة ومعها فرقة موسيقية .. إنك مدعوة دعوة تشرف بك لإحياء الحفل .. وبعد أن يلحوا عليك كثيرا وكثيرا جدا ، تغنين بناء على طلب الجماهير وسأتفق مع الأستاذ الحفناوى أن يكون قريبا منا هو والكمان حتى أدعوه بالتليفون قبل أن تغنى .. هل يكفيك الكمان ؟

وقالت هناء مبهورة :

ــ يكفينى ..

وقضت هناء ليلتها وهى ترتجف تخاف أن يضيع صوتها منها هناك .. إنها أول مرة تدعى فيها إلى هذا المجتمع وبصفتها الخاصة .. وقد نجحت .. نجحت فى الحفل كسيدة مجتمع ونجحت عندما غنت .. وبدأت الدعوات تتوالى عليها من يومها من الذين التقت بهم وعرفتهم ومن الذين لم تعرفهم بعد .. أصبحت شيئا كبيرا .. أحست وهى فى الخامسة والأربعين من عمرها بأنها استردت كل مجدها الذى عاشته فى الثلاثين ..

وتمت القصيدة التى يكتبها طاهر ..

رائعة ..

كل كلمة فيها لم تغن من قبل ، وكل معنى خاطر جديد ..

وقالت هناء :

ــ تعتقد من يضع اللحن ؟

وقال طاهر وهو يتبسم فى زهو بنفسه :

ــ إن أضعف ما فيك هو سذاجتك .. إذا جريت وراء ملحن فأنت ضعيفة .. شحاذة .. ولكن انتظرى أن يجرى وراءك كل الملحنين واختارى أحدهم كأنك تتعطفين عليه بمجدك .. هكذا تعودت أنا .. وسأبدأ أولا بنشر القصيدة ثم أنتظر ..

ونشرت القصيدة .. وأثارت ضجة .. واتصل عبد الوهاب بالأستاذ طاهر وقال بلهجته التى يستعملها عندما يريد أن يأخذ منك شيئا :

ــ إيه ده كله يا أستاذ .. إيه ده كله .. أنا كنت عيان وخففتنى يا طاهر بالقصيدة بتاعتك ..

واتصلت به فايزة أحمد وصاحت :

ــ محمد ابتدا يلحن القصيدة يا أستاذ .. ما حدش حيغنيها الا أنا .. انت سمعت آخر غنوة غنتها ..

وبدأت فايزة تغنى فى التليفون وطاهر يقرأ فى الصحف ..

ودخل عليه بليغ حمدى وهو منكوش الشعر وارم العينين وقال فى أسلوبه المهذب :

ــ أنا ما نمتش يا أستاذ طاهر .. اسمع لى الحن القصيدة دى .. إذا ما كنتش توافق على وردة اختار انت اللى تغنيها ..

واتصلت به شادية .. وقالت بحلاوة أنوثتها :

ــ طاهر .. القصيدة دى بتاعتى .. علشان خاطرى .. اوعى تزعلنى ..

وبدأت الصحف والمجلات تتساءل عمن سيغنى قصيدة الأستاذ طاهر عبد الحميد ، ومن يتولى تلحينها واسم هناء يتردد كثيرا لا لأنها المطربة الأولى ولكن لأن صداقتها بطاهر قد أصبحت حديث الأوساط الفنية والأدبية .. إلى أن نشر فى الصحف وبالخط العريض .. « عبد الوهاب يلحن وهناء تغنى » ..

وكان عبد الوهاب ذكيا يعرف مدى ارتباط طاهر بهناء ، ومنذ قرأ القصيدة وأعجب بها وهو يلحن فيها وقد وضع مقاييسه الموسيقية على أساس أن تؤديها هناء .. وعندما ذهب إليه طاهر ليتفق معه على اللحن ، قال له عبد الوهاب :

ــ ما رأيك لو غنتها هناء ؟

وابتسم طاهر فهو لا يقل ذكاء عن عبد الوهاب ..

وابتسم عبد الوهاب فهو لا يقل ذكاء عن طاهر ..

واتصل عبد الوهاب بهناء وطاهر جالس معه ..

وفرحت هناء فرحة العمر .. إن عبد الوهاب يريدها بعد أن مضى أكثر من عامين وهو يتهرب منها .. وعندما ذهبت إليه تركها تحس كأنه لم ينسها أبدا .. كأنها تعيش معه كل يوم من أيام العمر بل إنه ذكرها بيوم أن رآها لأول مرة وهى صغيرة وقد جاء أبوها ليقدمها إليه لعله يصنع منها شيئا وكيف تعمدت يومها أن تغنى من أنفها حتى يرفضها عبد الوهاب .. وقد رفضها عبد الوهاب فعلا .. وبعد سنوات وبعد أن نجحت كمغنية على ألحان غيره لحن عبد الوهاب لها لحنا واحدا ثم أبعدها عنه بعد أن بدأ غرورها يأخذها بعيدا عن الفن .. وهو الآن يقبلها من جديد من أجل قصيدة أعجبته لا لمجرد أنها تغنى ..

وقال عبد الوهاب لهناء وطاهر جالس بينهما :

ـــ غنى .. غنى أى شيء ..

وغنت هناء .. غنت وهي تحاول أن تقدم له كل ما يملكه صوتها .. وعبد الوهاب يطلب منها أن تغني سيكا .. ثم يغير رأيه ويطلب منها أن تغني نهاوند .. كأنه يبحث في داخل صوتها عن الطريق الذى يختاره ليصل به إلى لحنه ..

واستغرق إعداد اللحن أربعة شهور .. أكثر .. ستة شهور .. وطاهر دائما مع هناء فى معظم التدريبات الموسيقية ودائما مع عبد الوهاب ، وعبد الوهاب فرح به ، إن الاستيلاء على طاهر يعتبر كسبا كبيرا لكل شخصية .. وعبد الوهاب يتلذذ بأنه كسبه .. اشتراه بلحن ووضعه بجانبه ..

وكانت هناء قد اقترحت على طاهر أن يحتفظا بالأغنية بعد أن تسجلها لتخرج بها فى فيلم سينمائى .. إنها بذلك تبدأ حياتها الفنية فى صورة قوية .. فالفيلم يعرض كل يوم ويستمر طويلا ولحن لعبد الوهاب كفيل بإنجاحه ..

ورفض طاهر بحدة وصرخ :

ـــ إن المطرب لا يمكن أن يثبت قيمته إلا بمواجهة الجماهير .. أم كلثوم كسبت الملايين من أفلامها الأربعة ولكن لم تعش ولم تستمر إلا بمقدرتها على مواجهة الجماهير حتى آخر أيامها .. أى قدرتها على الوقوف على المسرح ..

وقالت هناء وهي تتحدث كتلميذة بليدة :

ـــ ولكني لن أكون وحدى على المسرح .. سأضطر أن أستعين

براقصة ومنولوجست وغيرهما .. حتى أملأ الليلة .. لا أستطيع أن أغطى ليلة كاملة وحدى .. أنا لست أقوى من عبد الحليم أو من وردة أو من فايزة ..

وقال طاهر وهو يخبط بيده على ساقه :

ــ تستطيعين .. ستأخذين الليلة كلها وحدك .. أنت لست أضعف من أم كلثوم ولكنها أطول منك نفسا .. ولذلك لن تغنى ثلاث وصلات فقط كما كانت تغنى أم كلثوم فى شبابها ، ولكنك ستغنين أربعا .. لأن وصلاتك لا يمكن أن تمتد بطول وصلات الست أم كلثوم ..

وقالت هناء وكأنها تهم بالبكاء من قسوة الأستاذ :

ــ ولكن ماذا أغنى ؟.

قال فى لهجة الأستاذ :

ــ أغانيك القديمة .. يجب أن تثبتى للناس أن نجاحك نجاح ممتد وليس نجاحا أنقذك به عبد الوهاب أو طاهر عبد الحميد .. ستغنين أولا أغنية قديمة .. ثم لحن عبد الوهاب .. ثم أغنيتين أخريين من أغانيك .. إنك لا تدرين كم يتمتع الناس بسماع الأغانى القديمة .. ليست الأغانى القديمة جدا كأغانى سيد درويش فحسب ، ولكن الأغانى التى لم يمر عليها سوى سنوات .. فكلها أغان تذكرهم بأيامهم القديمة ، كأنهم يرون أنفسهم فى ألبوم صور الذكريات .. ولو غنت فايزة أحمد اليوم أغنية « يا امة القمر على الباب » لنجحت بها أكثر من نجاحها ببعض أغانيها الجديدة ..

وهناء تعطى كل ما فيها استعدادا للحفل .. كل يوم فى بروفات مع

عبد الوهاب ثم تذهب إلى بيتها لتوالى بروفات أغانيها القديمة التى اختارها لها طاهر .. وطاهر دائما معها .. ويعد لكل شىء .. وكان يرهقها .. لا يريد أن يرحمها .. وكان يستبد بها التعب أحيانا فتقع على وجهها وتبكى .. تبكى من قسوة شهوة النجاح .. وطاهر الأستاذ .. الخالق .. لا يهدأ هو الآخر ولن يهدأ أبدا حتى يتم خلقه ، ولا يخفف عنه إلا متعته بأنه الأستاذ .. بأنه الخالق .. بأنه السيد .. إنه هنا هو السيد وليس مجرد متحدث موهوب يسلى بحديثه الأسياد .. أنه هنا لا يأخذ شيئا من الأسياد ولكنه يعطى .. يعطى الناس لأنه السيد .. لأنه الخالق .

وجاءت الليلة الكبرى ..

وكان الأستاذ طاهر عبد الحميد جالسا فى الصفوف الأولى من صالة المسرح فى انتظار رفع الستار حتى يرى ما خلق ..

— ٣ —

ونجحت هناء ..

عادت إلى عرش القمة فى ليلة واحدة وفى حفل واحد ..

وطاهر عبد الحميد جالس فى الصف الأول يتطلع إلى هناء وهى فوق المسرح وإحساس غريب بدأ يزحف فى داخله .. إن أذنيه مركزتان على تعليقات الجمهور وتجاوبه مع هناء ، وشىء ينتفض بداخله كلما سمع التصفيق الحاد .. وقد كان المفروض أن يكون سعيدا .. ولكنه ليس سعيدا .. إنه يحس كأن هذا الجمهور ليس سوى قبيلة متوحشة تهجم عليه لتخطف منه هناء .. يحس أنه نجار أو حداد كلف بصناعة تمثال وأن مهمته انتهت .. صنع التمثال وجاء صاحبه ليأخذه .. مهمته انتهت .. بالنسبة لهناء .. انتهى من صنعها ولم يعد أمامه إلا أن يتركها للناس ..

وفى مقطع من مقاطع أغنيته التى لحنها عبد الوهاب ارتفع التصفيق أكثر ، وكررت هناء المقطع مرة ومرتين وثلاثا .. وهو يكاد يجن .. يحس أنه يريد أن يقف بين الناس ويصرخ .. أنا الذى صنعتها .. صنعتها لى وحدى .. صفقوا لى لأنى صنعتها .. لا تصفقوا لها من غيرى .. لا تأخذوها بعيدا عنى ..

وعقدته القديمة تتحرك .. عقدة كراهية الأسياد حتى لو كان هو الذى صنع منهم أسيادا .. وهناء أصبحت منذ الليلة سيدة .. سيدة

الغناء أو سيدة الفن .. سيدة لا تحتمل أن يحيط بها إلا موظفو بلاطها الخاص أو الذين يستعبدهم فنها . وسيجد نفسه يوما ما وهو يحاول أن يكسبها كما كان يحاول أن يكسب أم كلثوم .. وأن ينافقها كما كان ينافق أم كلثوم ، وأن يخافها ويحسب حسابها كما كان يخاف أم كلثوم .. سيصبح بالنسبة لها مجرد مضحك الملك يسليها ويحيي حفلاتها ولن تحتاج إليه بعد اليوم كأستاذ لها .. أو كقائد تستسلم له حتى يبني بها المجد .. كسيد لها .. يصنعها ويخلق منها ما يريد ..

وثورة السخط بدأت تستبد به ..

السخط على نصيبه ..

والسخط على هناء ..

هكذا في ليلة واحدة انقلب كل هذا الحب إلى كل هذا السخط ..

وكانت وصلة الغناء قد انتهت وأسدل الستار في انتظار الوصلة التالية .. كان المفروض أن يقوم ويذهب إلى هناء في غرفتها خلف المسرح ليهنئها بنجاحها أو على الأقل ليقول لها رأيه .. ولكنه لم يذهب .. إنه يعرف أنه سيجد في غرفتها زحاما من المعجبين ومن الذين بدأوا يدعون صداقتها ، ومن مستمعيها القدماء الذين استردتهم بنجاحها هذه الليلة .. ومن صغار الصحفيين الذين يجرون وراء كل حدث جديد .. وسيكون هو هناك واحدا منهم .. وهو لا يقبل أن يكون بالنسبة لهناء مجرد واحد .. لا يمكن .. وبقي جالسا على مقعده بالصف الأول ، وفكره الساخط يستبد به ..

— إنه يعرف أنه لا يمكن أن يجمع بينه وبين هناء الحب ..

إنه وحده الذي يحب ..

أما هي فلا يربطها به إلا حاجتها إليه ..

والحب له عمر ..

والحاجة لا عمر لها ..

إنها منذ الليلة ليست في حاجة إليه إلا كشخصية عامة .. ليست أكثر من حاجة أي شخصية ناجحة أخرى له .. لن يربطها به هذا الرباط الذي ينفرد به دون باقي الرجال إلا استمرار حاجتها إليه ..

إنه يعلم هذا ويحس به ..

ورفع الستار مرة أخرى وبدأت هناء تغني ، وكل أذنيه مركزتان على سماع تعليقات الجمهور ويلتقط بهما التصفيق كأنه طلقات مدافع مترليوز ..

إنهم يأخذونها منه ..

وانتهى الحفل .. وانتهى التصفيق .. وقام من على مقعده يحاول أن يهدىء ثورته ويتحايل على نفسه حتى يتحرر من سخطه .. إنه يجب أن يذهب إليها الآن ويصحبها إلى البيت .. هذا هو واجب الأستاذ .. وحمل حسرته على نفسه وسار إلى الباب الخلفي للمسرح ليدخل إليها .. ولكنه وجد زحاما يدخل قبله .. كلهم يريدون لقاء هناء ، وكلهم سيقذفونها بكلمات الإعجاب .. والإعجاب بهناء لا يمكن أن يقتصر على الفن إنه دائما يحمل الإعجاب بها كامرأة .. كأنثى .. وسيكون واحدا من بين هؤلاء .. لا .. لا يمكن .. من الأشرف له أن يذهب إلى بيته حتى لا يبدو بين الناس كأنه مجرد واحد من المعجبين .. وقد يبدو هذا تعاليا .. ولكن التعالي ليس كثيرا عليه .. إن من حق الأستاذ الخالق أن يتعالى ..

وأشار إلى تاكسي وطلب من السائق أن يتجه به إلى بيته .. ولكنه بعد أن تحرك التاكسي بضعة أمتار عاد وطلب من السائق في لهجة عصبية أن يتجه به إلى بيت هناء .. كأنه قرر الانتحار ..

وفتح له الخادم الباب ، ودخل كعادته بلا استئذان ، وجلس حيث تعود أن يجلس في انتظار هناء ..

إنها تأخرت .. الساعة الآن الثالثة صباحا .. لا يمكن أن تكون قد قبلت دعوة إلى العشاء .. وسمع أصواتا مرحة تصعد إلى أذنيه من الشارع .. لقد عادت .. لم تعد وحدها ولا في سيارتها .. طبعا .. إن المعجبين لا يمكن أن يتخلوا عنها .. هذه المرة تركوها أمام البيت وبعدها لن يتركوها إلا داخل البيت .. وتعمد أن يرسم على وجهه ملامح سعيدة فرحة .. إنه لم يكن من قبل يتعمد رسم أى شيء من ملامحه عندما يلتقي بهناء ..

ودخلت هناء ، وما كادت تراه حتى انطلقت مهللة فرحة ، وقفزت إليه واحتضنته وقبلته فوق وجنتيه ، وقالت كأنها تزغرد بفرحتها :

— أين كنت .. لقد انتظرتك في المسرح .. قل رأيك .. رأيك يا طاهر ..

وقال طاهر وهو يتبسم ابتسامة واسعة كأنه يرسمها بين شفتيه :

— المهم رأى الناس .. وقد قال الناس رأيهم ..

وقالت هناء ضاحكة :

— لقد قال الناس رأيهم فيك وفي عبد الوهاب وفيّ أنا .. ولكني أريد أنا أسمع رأيا في وحدى .. رأيك ..

وقال وهو يفتعل الجدية :

ــ هائلة يا هناء .. هائلة .. ولكن ربما كنت قد رفعت الطبقة فى المقطع الثانى أكثر من اللازم .. لا يهم .. إنها أول حفلة ..

ونظرت إليه هناء كأنها تلومه :

ــ ما حدش قال لى كده يا طاهر .. حتى عبد الوهاب عندما حدثنى بالتليفون فى المسرح .. أنت غاوى نقد ..

ونظر إليها طاهر كأنه يتعجب من أنها تعترض على شىء يقوله ، وأخذ يصر ويزيد من نقده وهناء تناقشه وهو يحس أنها تناقشه بشخصية ولهجة الفنان الذى تأكد من نجاحه وتأكد من أنه أصبح يملك الجمهور .. هى الآن المالكة .. هى التى تمنح وتعطى .. هى الأستاذة .. هى وليس هو ..

ومد يده إلى حيث تعود أن يجد زجاجة الويسكى ..

وقالت هناء كأنها تلومه :

ــ ياه .. الساعة الرابعة ..

ولم يرد عليها طاهر وأفرغ كأسه .. ثم التصق بها وقبلها على ذراعها قائلا :

ــ هذه ليلة النجاح ..

ثم رفع شفتيه إلى خدها ، وهناء مستسلمة دون أن تبادله قبلته وهى تحس بتعب وصل إلى حد الزهق .. ورفع طاهر شفتيه إلى شفتيها يقبلها فى شراهة لم يكن قد عودها عليها .. إنه يريد أن يأخذ منها الليلة أكثر مما أخذ أى واحد من الجمهور .. يريد أن يكون له شىء لا يستطيع الجمهور أن يصل إليه .. شىء له وحده .. ولكن قبلته لم تستمر طويلا .. أزاحته هناء عن صدرها فى عنف كأنها تنفضه عن

نفسها ، وقامت واقفة وهي تقول في حدة وقرف :

ـ ليس هذا وقته يا طاهر .. أنا متعبة .. دعني الآن .. ونلتقي غدا ..

إنها ترفضه .. وكانت ترفضه من قبل ولكنه كان رفضا بدلال .. رفضا تحرص فيه ألا تحرجه .. ولكنها الآن ترفضه وتطرده .. كأنه تجرأ عليها .. على ملكة الفن .. ونظر إليها نظرة طويلة ثم قال كأنه لا يزال مصرا على التمسك بشخصية السيد الأستاذ :

ـ ادخلي أنت ونامي .. وسأكمل الكأس وأنصرف ..

ووقفت قبالته وهي منفعلة بالقرف كأنها حائرة كيف تتخلص من هذا الكابوس .. ثم دخلت غرفتها دون أن تقول له ولا حتى كلمة تصبح على خير .. وسمعها تدير المفتاح في باب غرفتها ..

وأخذيشرب ..

شرب كل ما في الزجاجة ..

ولمينصرف ..

سقط على الأرض ونام ..

وقامت هناء من النوم على صوت خبطات عالية فوق الباب وفتحت لتجد الخادمة أمامها تقول في صوت مرتعش :

ـ سي طاهر راقد على الأرض في غرفة الصالون ..

وجرت هناء فزعة ورأت طاهر ملقى على الأرض .. وصرخت .. خيل إليها أنه مات .. مات في بيتها .. يادى الفضيحة .. يادى المصيبة .. وركعت بجانب الجثة وأخذت تهزها في عنف وهي تردد :

ــ طاهر .. طاهر ..

وسكتت عندما رأته يفتح عينيه ثم عاد وأغمضهما وعادت تهزه فى عنف وقسوة ، إلى أن فتح عينيه هذه المرة ، وقال فى صوت نائم :

ــ كم الساعة ؟

وقالت هناء فى سخط :

ــ قم وقف أولا ..

وقال طاهر فى هدوء وهو يعتدل جالسا :

ــ كان يخيل إلى أنى أحلم .. لم أصدق أنك بجانبى حقا ..

قالت فى سخط محتد :

ــ ما هذا يا طاهر .. كيف تبيح لنفسك أن تنام هنا بأى حق .. وماذا يقول الناس إذا علموا .. ألا تخاف على من كلام الناس .. أرجوك قم واذهب إلى بيتك ..

ونظر إليها طاهر وهو يسخر منها ومن نفسه .. لقد مضى أكثر من عام والناس تتحدث عنه وعنها .. لقد أصبحت قصة حبه لها قصة رئيسية فى كل السهرات وكل المقاهى .. ولم تكن هى تهتم بما يقال .. وربما كانت تتعمد تأكيد هذه القصة لتتفاخر بحبه .. كانت تسمح له بأن يدعو أصدقاءه إلى بيتها ، وكانت تدعى باسمه فى بيوت الناس المهمين الذين قدمها إليهم .. فماذا حدث .. كل ما حدث أنها انتقلت فى ليلة واحدة .. ليلة نجاح .. إلى شخصية أخرى .. شخصية فى غنى عنه ولا تحتاج إليه ولا إلى قصة حبه ، وأصبحت تعتقد أن شهرة ارتباطها به تسىء إليها .. إنها الآن فى حاجة إلى شىء آخر ..

وقال طاهر فى برود :

ـ آسف .. غلبنى الخمر فسقطت نائما .. كم الساعة الآن ؟

وأجابت هناء وهى تزفر أنفاسها فى قرف :

ـ الساعة الثامنة .. لم تدعنى أنام سوى ساعتين ..

وقال فى برود وهو لا يزال جالسا على الأرض :

ـ لو خرجت الآن ورآنى البواب لتصور أنى كنت يقظا حتى الآن .. أى كنت معك فى الفراش .. وخرجت بعد أن انتهيت منك .. من الأصح حتى لا تنطلق الإشاعات أن أبقى هنا إلى ما بعد الظهر ، حتى إذا رآنى البواب خارجا اعتقد أنى كنت مدعوا على الغداء وأنه لم يرنى وأنا أدخل البيت ..

وصرخت هناء :

ـ والسفرجى لما يجى ويشوفك نائم هنا .. والطباخ .. والسائق .. وكل منهم سينقل الخبر إلى كل من يراهم .. وتنتشر الحكاية .. تضيعنى فى صباحية فرحى بالحفلة ..

وقال طاهر فى برود وكأنه يسخر منها :

ـ هناك حل آخر .. أن أقول إنى جئت بعد الحفل لأ هنئك فانتابتنى أزمة أسقطتنى راقدا .. واستدعى صديقى الدكتور عزت .. ونستطيع أن نتفق معه على أن يعلن خبر الأزمة وأنه منع عنى الحركة ، وفى هذه الحالة يجب أن أبقى هنا ثلاثة أيام على الأقل .. حتى ننفى أى شبهة ..

وصرخت هناء :

ـ لن يصدق أحد هذه القصة الرخيصة .. قم وانصرف .. وارحمنى .. خف على قبل أن أخاف منك ..

وقال طاهر وهو يضحك كأنه يحاول أن يخفف عنها :

ــ لو طلبت الآن فنجان قهوة فلن يزيد هذا من الإشاعات .

وصاحت هناء :

ــ فنجان قهوة يا بنت يا سنية .. بسرعة .. وقام طاهر ومسح وجهه بالماء وساوى شعر رأسه وملابسه وشرب فنجان القهوة ، وقال وهو خارج وهناء تودعه وهي تبتسم له ابتسامة مفتعلة كأنها تعطيه رشوة حتي لا يغضب منها :

ــ سأراك الليلة ..

قالت وهي تضغط على ذراعه في حنان :

ــ لا .. إنى متعبة .. وأم كلثوم تعودت أن تعزل يومين بعد كل حفلة رغم أنها لم تكن تغنى إلا وصلتين وأنا غنيت أربع وصلات .. دعنى أستريح الليلة يا طاهر ..

وهم طاهر أن يفتح الباب فأوقفته هناء وقبلته على خديه .. وفتحت له الباب .. وخرج ..

والتفتت بعدها إلى الخادمة سنية قائلة في صوت آخر يحمل رنين الرجاء :

ــ اسمعي يا بنت .. ولا كلمة .. فاهمة .. أي كلام سأسمعه ستكونين أنت السبب . وأخرب بيتك ..

وجذبتها وراءها إلى حجرتها وأعطتها ورقة بعشرة جنيهات وقالت:

ــ شدى الستائر .. لا توقظيني مهما حدث ومهما نمت .. حتى لو مت ..

ونسيت هناء حكاية طاهر وهي راقدة ترسم ما تريده غدا .. يجب

أن تتصل بالمعلم مدبولى متعهد الحفلات حتى تحدد معه موعد الحفلة التالية .. وتدعو واحدا من المخرجين لتحادثه فى إنتاج فيلم .. و ..

ونامت قبل أن تتم رسم الخطة ..

لم تكن هناء قد فكرت فى الاستغناء عن صداقة طاهر أو عن حبه لها .. وكانت تعترف بينها وبين نفسها أنه قدم لها الكثير وأنه أعاد لها كل مجدها القديم بهذه الليلة الواحدة التى غنت فيها للجمهور .. وكانت تعترف أنه شخصية يحتاج إليها كل الفنانين وكل الشخصيات العامة ، وأن مواهبه تمنحه القوة لأن يحقق ما يريد لمن يريد ، كل ما هناك أنها بدأت تستعيد ثقتها بنفسها وأصبحت تعتمد أكثر على نفسها فى إدارة أعمالها الفنية .. لاشك أنه يكفى الآن أن تتصل بأى متعهد حفلات يقيم لها حفلا ، ولا شك أن عبد الوهاب وبليغ والموجى سيسعون وراءها لتغنى لهم ألحانهم ، ولا شك أن كل منتج سينمائى وكل فرقة مسرحية ستعرض عليها البطولة ..

ولكن الذى تغير هو طاهر .. لا يستطيع أن يعود حيث كان منها .. تغير الهدف الذى كان حبه يدفعه إليه .. كان الهدف أن يعيد إليها مجدها ، أما الآن فالهدف هو أن يحمى نفسه من هذا المجد قبل أن تتعالى عليه .. وقد استمر يتردد عليها كما كان ، ويصحو من النوم على رنين جرس التليفون ليسمع صوتها تسأل عنه ، أو يصحو ليتصل بها بالتليفون ويسأل عنها .. ولكن شيئا تغير .. إنه يتصور أنه يجرى وراءها أكثر مما كانت هى التى تجرى

وراءه .. ولم تعد له كل ليلة .. ليال كثيرة تسهرها حتى مع بعض العائلات الصديقة دون أن يدعى معها ، وكثيرا ما ذهب إليها دون موعد فلا يجدها فيجلس وحده فى بيتها فى انتظارها ، ثم إنها أصبحت تتصرف فى مجال فنها دون أن تستشيره .. وهو لا يغار عليها ولكنه يغار منها .. إنها لم تستغن عنه برجل آخر ولم تبدل صداقته زحبه بحب آخر .. إنها تأخذ نفسها منه ..

وقالت له هناء وهو جالس معها بعيدا عنها فمنذ أن حاول أن يأخذها لم يحاول مرة أخرى أن يقترب منها :

ــ جاءنى اليوم المعلم مدبولى .. وهو لا يريد أن يكتفى بحفل واحد كل شهر .. قال لى أم كلثوم عندما كانت فى سنى كانت تغنى كل ليلة .. وهو يصر على أن يقيم حفلا كل أسبوعين .. ما رأيك ..

ونظر إليها طاهر وبين شفتيه ابتسامة كأنها ستار يخفى وراءه حقيقة مشاعره .. إنها بعدت عنه كل هذا البعد بعد حفلة واحدة ، فإلى أى مدى تبعد عنه بعد حفلها الثانى .. وقد استردت بعد الحفل الأول مجدها وبدأت تتعالى ، فماذا يحدث بعد أن تسترد مجدا أعظم .. ربما عادت تتجاهله وتستغنى عن حاجتها إليه كما كانت وهى فى شبابها .. وقال وهو يحاول أن يحتفظ بشخصية الأستاذ دون أن تهتز :

ــ أعتقد أنه يجب أن تبخلى على الناس .. دعى الناس تنتظرك أكثر .. لا تكونى كمطربات شارع الهرم ، تفرضين نفسك على الجمهور كل ليلة ولا حتى كل أسبوعين ..

قالت في حماس :

— ولكن مدبولي بصر .. وهو يريد أن يحتكرني خمس سنوات .. مستعد لكل شيء .. ثم إني في حاجة لأن أغني وأظهر كثيرا .. إني أحس بنفسي كأني ما زلت مبتدئة ..

وقال بلا حماس :

— اعتمدى على الأسطوانات والكاست .. ويكفي أن تظهري للجمهور مرة كل شهر ..

قالت في بساطة دون أن تحس أنها تتحداه أو تخرج عن طاعة أستاذها :

— دعني أفكر ..

والله عال .. منذ متى وهي تعتمد على فكرها .. وعلى كل حال فالحاج مدبولي صديقه ويستطيع أن يتصرف معه ..

وبعد يومين كان طاهر قد اتصل بالحاج مدبولي ودعاه إلى لقائه في المقهى التي تعود أن يجمع فيها تلاميذه ومريديه والتي يمارس فيها شخصيته كسيد .. كأستاذ .. كعبقري زمانه ..

وجاء الحاج مدبولي وهو يسير في خطوات متلكئة ، فهو لا يربطه بطاهر إلا الخوف .. الخوف منه ومن ذكائه ومن أهدافه ..

وصاح طاهر ضاحكا وهو يقدمه إلى الجالسين :

— أقدم لكم عقلية اقتصادية في مصر .. الرجل الذي يجب أن يخلف طلعت حرب .

وقال الحاج مدبولي في استسلام ذليل :

— اقتصاد إيه بس يا طاهر بيه .. لا تبدأ في إطلاق النكت

اعمل معروف ..

وقال طاهر وهو لا يزال يضحك :

— يا راجل .. اعترف أنك أعظم اقتصادى .. أنك الرجل الذى وهب كل أمواله للفن فأقام أكبر حفلات نجوم الغناء دون أن يحقق مليما واحدا كربح واسألوا مصلحة الضرائب ..

وأحنى مدبولى رأسه بينما انطلقت الضحكات حوله .. إنه يعرف ما يقصده طاهر .. إنه يهدده بفضح مشاكله مع الضرائب .. لابد أنه يمهد لشيء يطلبه .. إنه يبدأ طلباته دائما بالتهديد ..

بعد أن استمر طاهر فترة يثير الضحكات حول مدبولى ، بدأ يعامله ويتحدث إليه برقة واحترام كبير ثم انزوى به جانبا وسأله برقة فى صوت هامس :

— ما هى أخبار نشاطك ..

وقال الحاج مدبولى كأنه يفرح قلب طاهر :

— بدأت أعد للحفلة القادمة للأستاذة هناء ..

وأخفى طاهر امتعاضه من منح هناء لقب أستاذة وسأل :

— ومتى ؟

وقال مدبولى وهو لا يزال يعتقد أنه يهدى طاهر هدية :

— الشهر القادم ..

وقال طاهر فى جزع :

— حرام عليك يا حاج .. إنها لم تعد أى أغنية جديدة .. ولو ظهرت لتعيد نفس الأغانى التى غنتها فكأنك تحكم عليها بالفشل ..

وقال الحاج مدبولى فى دهشة :

ـــ كلام غريب يا أستاذ طاهر .. أم كلثوم أحيانا تقضى الموسم كله بأغنية واحدة ..

وقال طاهر ساخرا :

ـــ هناء مش أم كلثوم .. هناء هى هناء فقط ولا تزال فى حاجة إلى رعاية فنية ، وإذا أردت أن تخدمها فأقنعها أنك لن تقيم لها حفلا آخر إلا إذا انتهت من أغنية جديدة ، بهذا تدفعها إلى العمل قبل أن يركبها الغرور ..

ونظر مدبولي إلى طاهر في دهشة .. إنه يعرف علاقته بهناء ويعرف أنه السبب فى إعادتها إلى قمة النجاح بعد أن كانت قد ذبلت فنيا .. ولكنه الآن لا يريدها أن تغنى .. ربما وقع بينهما خصام الحب وقرر أن يؤدبها ، وربما كان صادقا فى رأيه ويريد فعلا أن يدفع هناء إلى مزيد من العمل قبل أن يلحق بها الغرور .. أن تهب وقتها لأغنية جديدة بل أن تهبه لحفل جديد .. إن مدبولى لا يدرى ، ولكنه هز رأسه موافقا وقال :

ـــ على كل حال أنا سأقدم لك خدمة كبيرة يا مدبولى .. ما رأيك لو جمعت عبد الحليم ووردة فى ليلة واحدة .. بدل أن يغنى عبد الحليم وتكمل السهرة راقصة أو منولوجست وتغنى وردة وتسندها نجوى فؤاد .. تجعلهما هما الاثنين يكمل أحدهما الآخر .. يغنى كل طرف وصلتين ..

وقاطعه مدبولى قائلا :

ـــ يا ريت يا أستاذ ولكن أحدهما لا يطيق الآخر ولن يقبلا الظهور فى حفل واحد ..

وقال طاهر فى حماس :

ـ المهم الفكرة .. أن يقتصر الحفل على الغناء فقط .. ودعنى أحقق لك الفكرة ..

وقال مدبولى فى فرح وكأن طاقة جديدة فتحت له فى سماء الفن :

ـ ربنا يخليك ويعطيك يا أستاذ .. دى فكرة تجيب فى الحفلة الواحدة قنطار ذهب .

وقام مدبولى وقد قرر بينه وبين نفسه أن يلغى السهرة التى كان يعدها لتحييها هناء ، لأنه يطمع أن يحقق له طاهر هذا المشروع الجديد ، وفى الوقت نفسه لأنه يخاف غضب طاهر لو أقام حفلا لهناء دون موافقته ..

وقال له طاهر :

ـ هذا الكلام بينى وبينك يا حاج .. لا داعى لأن تعرف هناء ما اتفقنا عليه ..

وقال الحاج وهو يبتسم فى خبث :

ـ مفهوم يا أستاذ .. عيب .. اطمئن ..

وبعد يومين ذهب طاهر ليقضى السهرة فى بيت هناء وتلقته ثائرة تكاد تحطم كل ما حولها وقالت بصراخها :

ـ تصور الرجل المجنون مدبولى .. إنه لا يريد أن يتولى إقامة حفل .. إنه يهرب منى بعد كل هذا الربح الذى حققته له وفى حفلة واحدة .. وتصور .. إنه يشترط أن أغنى أغنية جديدة ..

واقترب طاهر منها وقال وهو يربت على خصرها لأنه أقصر من أن يصل إلى كتفها :

ــ اهدئى أولا يا هناء .. دعينا نناقش الموضوع بهدوء ..

وعادت تصرخ :

ــ لقد سلطوه علي .. إنى أعرفهم .. إن ما يحدث بين وردة وفايزة ونجاة وشادية ، أصبح كله يقع على رأسى أنا وحدى .. سلطوه على حتى لا أقضى عليهم كلهم ..

وشدها طاهر من يدها وأجلسها على الأريكة وجلس بجانبها فأحنت رأسها فوق كتفه وأخذت فى البكاء .. وامتلأ صدر طاهر بالفرحة .. لقد عادت إليه .. عادت محتاجة إلى الأستاذ .. إلى السيد .. وقال وهو يمسح بكفه على ذراعها العارية :

ــ إنه يشترط أن تقدمى أغنية جديدة .. ربما كان له حق ..

ورفعت رأسها وعادت تصرخ :

ــ لا يمكن .. سأبحث عن متعهد حفلات آخر ..

وقال فى هدوء :

ــ لن تجدى من فى قوة الحاج مدبولى ..

قالت من خلال دموعها :

ــ هل تعرف ماذا يعنى البحث عن أغنية جديدة .. يعنى أن أبقى ثلاثة أو أربعة شهور بعيدة عن الناس فأعود كما كنت يكاد الناس أن ينسونى ..

وقال وكفه لا يزال يمسح على ذراعها العارية دون أن تحس به هناء :

ــ إن الأسطوانات والكاست أصبحت فى كل بيت .. إن عبد الوهاب كما تعلمين رفض أن يأخذ أجرا على اللحن نظير أن تحصل

شركته .. صوت الفن .. على حق تسجيل كل أغانى الحفل فى أسطوانات وكاست .. وعبد الوهاب يعلم أن الأسطوانة أقوى من الحفل وأوسع انتشارا وأطول عمرا وتحقق ربحا أكبر من عشر حفلات .. لا تنسى هذا .. لا تنسى أنك أقوى فى الكاست منك فى الحفل .. الحفل يضم مئات والكاست يضم ملايين .. ثم الإذاعة .. كل ذلك لن يترك الناس تنساك ..

وقفزت واقفة فى حدة وصرخت :

ــ لن أترك هذا الشهر يمر دون أن أقيم الحفل ..

وقال طاهر والفرحة لا تزال تزغرد فى صدره .. فرحة الشماتة :

ــ دعينى أتصل بالحاج مدبولى سأقنعه .. سأقنعه ..

وعادت تصرخ :

ــ إنه ليس فى حاجة إلى إقناع .. إنه فى حاجة إلى أمر .. إنه تضامن ضدى مع عدواتى ..

وقال فى هدوء وقد استعاد كل ثقته بنفسه :

ــ دعينى أحاول .. اطمئنى ..

ونظرت إليه بكل عينيها نظرة تمتلىء بالحيرة والشك .. لأول مرة يرى فى عينيها هذه النظرة .. نظرة شك ..

وقالت وكأنها تهرب منه :

ــ حاول إن استطعت .

وجرت إلى غرفتها وسمع المفتاح يدور فى الباب .

ومضت أيام وهنا، لا تعتمد على طاهر وحده بإقناع الحاج مدبولى ولكنها تتخبط بين جميع طوائف مجتمع الفن ، تحاول إقناع الحاج مدبولى .. وطاهر من الناحية الأخرى يشغل الحاج مدبولى بإمكان

..مبق مشروع الجمع بين وردة وعبد الحليم فى حفل واحد ،
، يجمعه بكل منهما بين الحين والآخر دون أن تدرى هناء شيئا ..
، الإرهاق يمتصها وتذوب تحت تهديد الخيبة ، وتلتقى كل ليلة بطاهر
لعله يصل بها إلى طريق الأمان ..

وفوجئت هناء بحرم نائب رئيس الوزراء تدعوها إلى حفل تقيمه لها فى رجاء :

ـــ كلنا فى انتظارك وكلنا نريد أن تمتعينا ..

وقدرت هناء أن طاهر هو الذى سعى لهذه الدعوة .. وكان طاهر قد أراد أن يخفف عنها خوفها من أن ينساها الناس ، وأن يبقى اعترافها بأنها لا تستطيع أن تستغنى عن فضله عليها وأنه هو الذى يقدمها للناس ، وعندما دعاه نائب رئيس الوزراء إلى حفل خاص يقيمه قال ضاحكا وهو يتلقى الدعوة :

ـــ وطبعا حنسمع هناء ..

وقال نائب رئيس الوزراء :

ـــ يبقى من بختنا ..

وعاد طاهر يقول ضاحكا :

ـــ ولكن دع السيدة حرمكم وهى تدعوها تطلب منها أن تحيى الدعوة بغنائها .. فأنت تعلم أن هناء بخيلة ولعلك لا تعلم ولكنى أعلم ..

وعندما التقى طاهر بعد ذلك بهناء قال لها :

ـــ هذه المرة يجب أن تذهبى بأوركسترا كامل .. إنهم كلهم يتمنون سماعك ..

وقالت هناء وهى تقذفه بنظرة الشك :

ـــ مستحيل .. لقد علمتنى أن أم كلثوم لم تكن تذهب إلى حفل خاص بأوركسترا كامل ولا حتى بعازف واحد .. ولا تغنى إلا إذا طال الإلحاح عليها .. قلت لى إن المطربة لا تستجدى المستمعين ولكنها تترك المستمعين يستجدونها .. ماذا حدث حتى تقبل الآن أن أغنى فى حفل خاص .. هل تغيرت أنا أم أنت الذى تغيرت .

ونظر إليها طاهر كأنه خائف منها .. ورأسه يغلى إنها لا تريد أن تعود كما كانت .. التلميذة المستسلمة للأستاذ .. قطعة العجين المستسلمة لأصابع تخلقها وترسمها من جديد .. كل هذا حدث بأغنية واحدة وحفل واحد .. ماذا كان يمكن أن يحدث لو كان قد أعطاها أغنيتين وحفلين ..

وقال فى استسلام :

ـــ لك حق .. اذهبى وحدك .. ولا تغنى إلا بعد أن يذوب المدعوون تحت قدميك .. وسأتفق مع الحفناوى ليلحقنا بكمانه عندما تقبلين الغناء كما كان يحدث من قبل ..

ولم ترد عليه ..

ربما لم تكن تستمع إليه ..

وذهبت إلى الحفل ، وكان قد سبقها إليه .. ودخلت وهى أكثر مغالاة فى مظهر تعاليها واعتزازها بنفسها تريد أن تقول للجميع إنها أميرة الطرب .. وإمبراطورة السينما .. وملكة المسرح .. ورئيسة مجلس قيادة الفن .. وجلست بين المدعوين وهى تستعمل كل ذكائها فى أن تكون محدثة ناجحة .. إنها تقلد طاهر فى أسلوب حديثه دون

أن تدرى .. وقد نظرت إلى طاهر وقالت متعالية :

ــ أسمعنا آخر نكتة يا أستاذ طاهر ..

كأنها تصفعه .. كأنها تنزل به إلى مستوى مضحك الملك .. وهم لسانه أن يرد عليها بصفعة تثير ضحك المدعوين منها وعليها ، ولكنه توقف وقال فى برود :

ــ لم يحن بعد موعد النكت ..

ودعى المدعوون إلى العشاء قبل أن يبدأوا الحفل الساهر .. ورأى طاهر هناء وهى تميل على حرم نائب رئيس الوزراء وتتبادلان الهمس .. ثم قامت هناء متجهة إلى باب الخروج وحرم النائب فى وداعها .. وجرى وراءها طاهر ، وعند الباب قالت له حرم النائب :

ــ دعها يا أستاذ طاهر .. إنها متعبة .. إننا نضحى بها فى سبيل راحتهاوصحتها ..

وخرجت هناء دون أن تلتفت إلى طاهر ..

وعاد يجلس بين المدعوين وهو يغلى .. لا يمكن أن تصل به إلى هذا الحد ، وكأنها تشطبه من حياتها .. تتصرف دون اتفاق معه ..

لايمكن ..

لايمكن ..

كانت هناء تتقلب فى فراشها ودموعها تغرق وسادتها كأنها تصنع لنفسها بحرا تغرق فيه .. لماذا انسحبت من حفل رئيس الوزراء . لماذا لم تنتظر حتى يلحوا عليها للغناء فتغنى .. لماذا لم تصحب معها فرقة موسيقية كاملة كما نصحها طاهر .. لعلها عادت إلى الغرور الذى ضيعها فى شبابها وكاد يصل بها إلى هاوية النسيان .. أو لعلها حاولت أن تتغلب على الصدمة التى قذفها بها الحاج مدبولى متعهد الحفلات وهو يرفض أن يقيم لها حفلا ثانيا بعد أن نجحت كل هذا النجاح فى حفلها الأول ، فتعمدت أن تهرب إلى مظهر الغرور .. أن تقول لهؤلاء المدعوين فى بيت رئيس الوزراء إنها ليست فى حاجة إليهم كمستمعين .. وأن تقول لصاحبة البيت إنها لم تكن فى حاجة إلى دعوتها .. وأن تقول للأستاذ طاهر عبد الحميد إنها ليست فى حاجة إلى أن يتوسط لها لدعوتها إلى سهرات كبار الشخصيات .. ربما كان هو فى حاجة إلى هذه السهرات التى يستكمل بها قوته بادعاء صداقة الحكام .. أما هى .. إنها أكبر من كل ذلك .. أكبر بفنها من الحكام .. إنها تملك أكبر شقة فى عمارة الفن .. تتسع لأضخم جمهور يمكن أن يملكه فنان ولو أنها شقة لا تزال خالية من الأثاث .. خالية من المقاعد التى يجلس عليها الجمهور .. بسيطة .. فى يوم واحد تستطيع أن تفرش شقة الفن .. الغرور . الغرور .. الغرور ..

الغرور يعود ويسحبها إلى هاوية النسيان ..

وهناء تتقلب فوق فراشها ورأسها غارق فى بحر دموعها ، وتضرب على وسادتها بيدها وتعض عليها بأسنانها .. يجب أن تقاوم هذا الغرور .. يجب أن تعود وتضعف وتقف بنفسها على حافة الهاوية وتمد يديها تبحث عمن ينقذها .. يجب أن تعود إلى طاهر وتعيش بين أصابعه يحركها كيف يشاء .. إنها تعترف بأنها تعالت عليه بعد نجاح حفلتها وحاولت أن تتحرر من الحياة بين أصابعه ، ونسيت أن هذه الأصابع هى التى صنعت هذا النجاح ، وهى التى جددت كل شبابها الفنى ، وهى التى جاءت إليها بعبد الوهاب يلحن لها ، وهى التى أطلقت حولها الصواريخ الصحفية .. و .. و .. يجب أن تسترد طاهر عبد الحميد .. تسترده كله ..

وأخذت حبات « الليبرم » حتى تنام .. وقضت ساعة طويلة فى صباح اليوم التالى حتى تسترد كل أعصابها .. ثم رفعت سماعة التليفون واتصلت بطاهر وقالت ورنة من الأنوثة الضعيفة تتراقص فى صوتها :

ـ إنى غاضبة منك .. لم تعد تحبنى ..

وقال وصوته مجهد أجش :

ـ يا ربت .. لقد عودنى حبك على نعيم العذاب ولكنه بدأ يأخذنى إلى عذاب الجحيم ..

قالت وهى تركز ذكاءها فى اختيار كلماتها :

ـ انك تهرب من النعيم بحثا عن الجحيم .. لماذا لم تلحق بى ليلة أمس بعد أن تركتك وخرجت من الحفل ..

قال كأن صوته دخان سيجارة يتكسر بين شفتيه :

ــ ومن أدرانى أين ذهبت ..

قالت كأنها تخفف عنه :

ــ لقد عودتنى أن تبحث عنى ..

قال :

ــ خفت أن أصدم ..

قالت :

ــ أنت الذى تركتنى لأصدم بجفائك .. طاهر إنى أنتظرك الليلة ..

وسكت برهة ثم قال وقد بدأ صوته يسترد بعض انطلاقه :

ــ هل أنت بحاجة إلى ..

وقالت كأنها تدلله :

ــ ليست مجرد الحاجة إليك .. لقد تعودتك .. لم أعد أستطيع الاستغناء عنك ..

ووضع سماعة التليفون وتنهد من خلال ابتسامته كأنه ارتاح ، ثم لمعت عيناه لمعة الذكاء الخبيث كأنه يعرف سر كل كلمة قالتها له هناء ..

وتعمدت هناء هذه المرة أن تستقبل طاهر بعد أن أبرزت أنوثتها أكثر فى اختيار ثوبها وفى عقصة شعرها وفى استغنائها عن حذائها .. استقبلته حافية القدمين كأن أى مكان فيه فراش .. كأنها لن تكتفى بأن تقدم له نفسها كفنانة فقط بل أيضا كامرأة ..

ودخل إليها طاهر وعيناه تلمعان بذكائه الخبيث ، وفى لمحة

واحدة لاحظ ثوبها الذى اختارته ، وعقصة شعرها والألوان التى صبغت بها وجهها .. إنها تثيره .. ولم تعوده أبدا على أن تثيره .. وقدميها الحافيتين .. إنه يعلم أنها تستريح بلا حذاء ، وأنها تبقى دائما فى بيتها حافية ، ولكنها كانت تستقبله دائما وقدماها فى حذائها ، كأنها تتعمد أن تستقبله بصفة رسمية كضيف لا كصاحب بيت ولا حبيب .. واتسعت ابتسامته .. كل ذلك دليل على أنها عادت محتاجة إليه .. فى أشد الحاجة إليه ..

وهمَّ أن يجلس على المقعد العريض الذى عودته فى أول أيامها أن تجلسه عليه ، ولكنها شدته من ذراعه وأجلسته على الأريكة لتجلس ملتصقة به كما يتمنى دائما ..

وقالت هناء كأنها تهم بالبكاء :

ــ طاهر .. خبرنى ماذا حدث لى لقد عدت منهارة كما كنت قبل أن ألتقى بك .. أحس كأنى أضيع من جديد .. كأنه لم يعد لى أحد .. إنى أصحو من النوم لابكى ولا أعود إلى النوم إلا بعد أن تفرغ دموعى .. حرام .. حرام .. يا طاهر ..

وألقت رأسها على صدره وأخذت تبكى ..

ومد طاهر ذراعه فوق كتفها وهو يقول :

ــ لم يحدث شىء .. وأنت فنانة وتعرفين أن لا شىء سهل ..

وهبطت هناء فى جلستها قليلا حتى تستطيع أن توازى كتف قامتها الطويلة بكتف قامته القصيرة ، وقالت :

ــ كيف لم يحدث شىء .. مضى ثلاثة أشهر ولم أستطع أن أحيى حفلة ولا وصلت إلى أى اتفاق خاص بفيلم سينما ، والجرايد بدأت

تتجاهلني ، وحتى الدعوات الخاصة بدأت تقل من حولي وأنت تعلم أني لا أقبل إحياء الأفراح .. أتعرف لماذا تركت حفلة نائب رئيس الوزراء لأنني أحسست أنهم لم يدعوني إلا تحت إلحاح وساطتك .. لقد أصبحت معقدة ..

وارتفع صوت إجهاشها بالبكاء ..

وربت طاهر على كتفها ثم مال عليها وقبلها من وجنتيها ، وإذا بها — لدهشته — تدير إليه شفتيها .. هذه أول مرة تعطي له شفتيها برضاها ..

وتركته هناء يقبلها وهي تحس كأن فوق شفتيها كمامة تسقط فيها أنفاسها .. لا شيء سوى أنفاس .. وهي تضيق وتقرف من هذه الأنفاس .. وشدت شفتيها من فوق شفتيه وقالت :

— كفاك يا طاهر .. إنك لا تريد مني إلا قبلاتي .

وقال وهو يضمها بعينيه مبهورا بقبلاتها :

— إني أقبل فيك الفن ..

وقفزت واقفة لتستريح منه وهي تتظاهر بأنها قامت لتعد له الكأس ، ثم قالت :

— اسمع يا طاهر .. اقتنعت بأني يجب أن أعد أغنية جديدة قبل أن أظهر في حفل جديد .. ما رأيك في قصيدة « صدى الآهات » .. هل تذكرها .. إنها القصيدة التي اعتقدت يومها أنها قصيدتك ثم تبين لي أنها قصيدة الأستاذ عبد العظيم فتحي .. وأخجلتني يومها .. هل تذكرها .. ما رأيك فيها ؟

— واعتدل طاهر في جلسته كأنه أفاق من طعم قبلاتها وقال وهو

يبتسم ابتسامة ساخرة :

ــ لا أذكرها ..

قالت فى حماس :

ــ إنى لا زلت محتفظة بها ..

وقفزت بسرعة وفتحت درجا أخرجت منه القصيدة .. وهو يتبعها وسخريته تملأ عينيه .. إنه يعلم الآن سر هذا السخاء الذى تعامله به هناء .. إنها تريد أن تستعمله مدير أعمال فقط .. لم تعد حريصة أن يكون هو شاعرها الوحيد .. ربما كانت تقلد أم كلثوم التى لم تكن تسمح بأن يحتكرها أحد .. لا مؤلف أغانى ولا ملحنا .. وقد يتسنى هناء أن تستفيد منه بعد أغنيته الأولى فأرادت أن تلجأ إلى غيره ، وحتى تطمئن إليه تريد أن تدعه هو الذى يصل بها إلى غيره ..

وقرأ طاهر القصيدة ثم قال :

ــ رائعة .. لقد أثارت ضجة شعرية عندما نشرت .. ولكنها فى حاجة إلى ترجمة ..

قالت فى دهشة :

ــ ماذا تعنى ؟

قال فى بساطة :

ــ ترجمتها إلى شعر غنائى .. ليس كل شعر مكتوب يصلح للغناء الغناء فى حاجة إلى نبض خاص فى الشعر يجعله يصلح للغناء .. وهناك أشعار كثيرة نجحت كأشعار مكتوبة وسقطت عند غنائها .. أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم ونجاة وشادية كل هؤلاء غنوا أشعارا رائعة فسقطوا بها رغم أنها لا تزال رائعة كأشعار مكتوبة .. كأشعار

المناسبات مهما بلغت روعتها فإنها تسقط كشعر غنائى وتنتهى بانتهاء المناسبة .. هناك أغان كثيرة غنيت لجمال عبد الناصر وانتهت بانتهاء عبد الناصر .. كالشعر المسرحى .. ليس أى شعر مكتوب يمكن أن يكون مسرحية .. وشوقى وعزيز أباظة وصلاح عبد الصبور يتعمدون أن يعبروا عن المسرح بالشعر ، لا أن يعبروا عن الشعر بالمسرح .. وهذه القصيدة فى حاجة إلى ترجمتها إلى شعر غنائى .. غناء يعبر عنه الشعر لا شعرا يعبر عنه الغناء .. الأساس فى كل فن هو المجال الفنى .. مجال القراءة أو مجال الترديد أو مجال الغناء أو مجال المسرح أو مجال السينما والتليفزيون .

وقالت هناء فى ذهول :

ــ لا أفهمك .. ولكن قد يكون هناك كلمات يمكن أن تطلب من الشاعر تغييرها .. أم كلثوم كانت تعدل فى كثير من القصائد التى تغنيها .. وربما غيرت لك أنت أيضا عندما غنت لك ..

وقال فى حدة :

ــ لم تغير لى شيئا .. لم تكن فى حاجة أبدا لأن تغير كلمة واحدة ، بل لم تكن هى التى تختار فإنى أنا الذى كنت أختارها لتغنى لى ..

وابتلعت هناء ريقها كأنها ترتجف من الخوف وقالت فى تردد :

ــ طاهر .. إنى أعرف أنى لن أضمن النجاح أبدا إلا إذا غنيت من شعرك وكلماتك .. بل إنى لا أستطيع أن أغنى كما أغنى لك .. ولكنى أعلم أن كل قصيدة تستغرق منك شهرا .. ستة شهور وربما أكثر .. لذلك فكرت أن أنسعين بهذه القصيدة إلى أن تنتهى أنت من قصيدة

تكتبها لى حتى لا يضيع الوقت وأنا بعيدة عن الناس ..

وقال طاهر وهو يبدو غاضبا :

ـــ إنك لا تصدقيننى فى حكمى على هذه القصيدة .. لنعرضها إذن على عبد الوهاب ..

ونظرت إليه فى شك .. إنها تعلم مدى صداقته لعبد الوهاب وتخشى أن يحرضه ضد القصيدة .. وقالت فى تردد :

ـــ لنجرب بليغ حمدى ..

وقال ساخرا :

ـــ إن بليغ لا يقبل أن ينافس بك زوجته وردة ..

قالت فى رجاء :

ـــ إذن نعرضها على محمد الموجى ونحتفظ بعبد الوهاب لقصائدك .

قال :

ـــ الموجى معناه أنت وحظك .. ولا يمكن أن تضمنى حظك معه. غدا نذهب معا إلى عبد الوهاب ..

ورفع كأسه إلى شفتيه وهى تنظر إليه حائرة ، ثم خطت فى عصبية وأفرغت لنفسها كأسا .

وامتلأت عيناه بالدهشة ..

إنها المرة الأولى منذ عرفها التى تشرب معه كأسا ..

وصحبها فى اليوم التالى إلى لقاء عبد الوهاب .. وبدأ طاهر يقول رأيه فى القصيدة قبل أن يقرأها عبد الوهاب وكأنه يعلن الحرب عليها وهناء لا تملك أكثر من أن تردد كلمة أو كلمتين ، وعبد الوهاب حائر

ينقل بينهما عينيه الذكيتين والتقط بسرعة ما يريده طاهر .. إنه لا يريد أن تغنى هناء هذه القصيدة .. وقبل أن يقرأ القصيدة قرر ألا يلحنها لا لأنه يخاف طاهر ولكن لأنه لا يستطيع أن يتفرغ للتلحين بينما جوّ مضطرب يحيط به .. كي يلحن يجب أن يعيش هادئا وهو يخلق اللحن ، ولن يتركه طاهر ولا هناء هادئا أبدا ..

وقدم له طاهر القصيدة .. وأخذها عبد الوهاب وقرأها .. وقالت هناء كأنها تقامر بعمرها :

— ما رأيك يا أستاذ ؟

وقال عبد الوهاب فى هدوء :

— مستحيل أن أقول رأيى الآن .. إنى فى حاجة أن أستوعبها وأحس بكل كلمة فيها وأبحث بخيالى لكل كلمة عن نغم .. وبعدها أقول رأيى ..

واطمأن طاهر إلى أن عبد الوهاب قد رفض القصيدة ، فإن عبد الوهاب تعود أن يعبر عن رفضه بعدم إبداء الرأى ..

وقامت هناء وهى لا تفهم شيئا ..

وقال طاهر عندما وصل بهناء إلى بيتها :

— اطمئنى وصدقينى .. إلى أن ينتهى عبد الوهاب من تلحين هذه القصيدة سأكون قد انتهيت من قصيدة لك .. وقد سبق أن قلت عندما وضعت لك الأغنية الأولى إنى أريدك أن تقرضينى نفسك حتى أستوحى شخصيتك وخطوط ملامحك وخيال حبى .. وأنت التى تملكين فرض الكلمات على خاطرى .. وقد تنتهى القصيدة فى يوم أو يومين .. أنت المسئولة .. قولى لى .. لقد أقرضتك نفسى ..

وقالت هناء وهى تضحك :

— أقرضتك نفسى على ذمة عبد الوهاب ..

ثم رفعت كأسها قبل أن يرفع كأسه ..

وعاد طاهر كما كان .. كل ليلة فى بيت هناء .. وكان يحاول فعلا أن يبدأ فى قصيدة جديدة ، ويجلس قبالتها كأنه يستوحيها ، وقد يكتب كلمة أو كلمتين على غلاف علبة السجائر ثم يلقى بها بعيدا كأنه يتبرأ منها .. وهو يعلم أنه ليس فى حالة إطلاق الشعر .. لكى يكتب شعرا يجب أن يعيش فى نعيم العذاب .. عذاب الحب .. عذاب الولادة .. عذاب عملية الخلق .. ولكنه لا يعيش نعيم العذاب إنه يعيش عذاب الجحيم .. إنه فى داخله يعيش معركة يركز عليها كل ذكائه وكل إحساسه ، وهو يعلم أنها معركة قاسية قذرة .. معركة الاحتفاظ بهناء بين أصابعه .. معركة يستخدم فيها أسلحة الكذب والخداع والتغرير فكيف يمكن أن ينطلق شعر غنائى من خلال مثل هذه المعركة ..

وهناء بجانبه والكأس أمامها .. لقد تعودت حتى الآن أن تكتفى بكأس أو كأسين .. وتتركه يتحدث كثيرا ، ويشرب كثيرا ، ثم تتركه يقبلها فوق وجنتيها وقليلا ما تمنحه شفتيها قبل أن يتركها فى نهاية الليل ..

وقالت هناء :

— طاهر .. إلى أن يقول عبد الوهاب رأيه وإلى أن تنتهى من القصيدة أعتقد أننا يجب الإعداد لفيلم .. سأتصل بمخرج أدعوه لنناقش الموضوع ..

وقال طاهر فى براءة الأستاذ :

ــ الفيلم لا يبدأ بالاتصال بالمخرج .. ولكنه يبدأ أولا بالبحث عن قصة .. إن القصة هى أساس أى بناء سينمائى .. وبعد أن نجد القصة يجب أن نبحث عن المنتج إنه رأسمال الإنتاج السينمائى وبعد ذلك دور المخرج والسيارست والمصور إلى آخر التشكيلة ..

وقالت هناء وعيناها تطلان إلى بعيد كأنها تتذكر شبابها :

ــ المنتج أمره سهل ..

وقال طاهر كأنه يحرمها من أحلامها :

ــ لا .. ليس سهلا .. وتذكرى الحاج مدبولى فقد كانت له شروط متعبة ، ومتعهد الحفلات هو نفسه المنتج السينمائى .. أفضل أن نبدأ بالبحث عن قصة .. ما رأيك فى الأستاذ محمود حماد .. إنه الصرخة الجديدة فى عالم القصة .. ندعوه ونهيىء له جو الإيحاء بقصة جديدة ..

وقالت هناء فى سذاجة :

ــ لماذا لا ندعو كاتبا مشهورا .. إن الكتاب أصبحوا الآن من نجوم الشباك ..

وقال طاهر ساخرا من سذاجتها :

ــ إن شباك التذاكر غدار .. إنه يفتح كل أدراجه للكاتب أو للممثل ثم فجأة يطرده ويشترى كاتبا أو ممثلا آخر .. لقد كان الكاتب المحامى محمد كامل حسن نجم شباك التذاكر فى يوم ما حتى إن صورته كانت تعلق على دور السينما بجانب صور بطل وبطلة الفيلم ثم فجأة اختفى .. أغلق شباك التذاكر أدراجه فى وجهه .. وأتصحك

أن تبدئى بقصة لكاتب شاب .. لا يعتمد على قوة اسمه حتى ينسب النجاح كله لك .. وقد قلت لك إن أم كلثوم تتعمد ألا تعتمد على ملحن واحد ، حتى تكون هى التى ترفع الملحن وليس الملحن هو الذى يرفعها ، وكذلك كانت تتعمد فاتن حمامة .. لا تكاد تمثل فيلما لكاتب مشهور حتى تعقبه بخمسة أفلام لكتاب لم يعرفوا بعد ، وكذلك كان يوسف وهبى أيام مسرح رمسيس إلى أن انتهى بأن أصبح هو الذى ينسب إلى نفسه تأليف المسرحية حتى يتخلص من تأثير اسم آخر على اسمه ..

قالت فى حدة :

ـ إنك تنسى أنه قد مضى الآن ستة أشهر ولم أقدم شيئا .. لا غناء ولا مسرح .. والاتفاق مع كاتب على أن يكتب قصة جديدة قد يضيعنى ست سنوات بعد الأشهر الستة .. لقد مضى شهران وأنت تعد قصيدة جديدة ولم تنته منها بعد ..

قال وهو يتلقى ثورتها بخبث :

ـ صدقينى إن الوصول إلى قصيدة أصعب من الوصول إلى حكاية .. أقصد قصة .. وعلى كل حال سأجمع لك كتبا من مجموعات قصص لكل الكتاب واختارى بينها ..

قالت وهى غاضبة :

ـ اختر لى أنت .. أنت الأستاذ ..

وقال الأستاذ :

ـ إنى أستطيع أن أختار لنفسى ولكنى لا أستطيع أن أختار لك .. إن ممثلى القمة أى الممثل الشبعان الشبعان بالمجد والنجاح يصر على

أن يختار بنفسه القصة التى يمثلها حتى يضمن الوصول بها إلى قمة النجاح .. إن التمثيل هو الانتقال بالنفس إلى شخصية أخرى ، وحتى يضمن الممثل قدرته على الانتقال إلى هذه الشخصية الأخرى يجب أن يحس بها ويعيشها قبل أن يجسدها .. وهذا هو الفرق فى القدرة الفنية بين الممثلين .. ممثل لا يستطيع أن ينتقل إلا إلى شخصية واحدة .. شخصية عسكرى بوليس .. أو شخصية ابن بلد .. أو شخصية باشا .. وهو لا يحتاج إلى أن يختار ما يمثله إنما يترك ذلك للمنتج أو للمخرج .. فأى قصة تحتاج إلى هذه الشخصية الواحدة يستطيع أن يمثلها .. أما الممثل الذى يرفض أن يكرر نفس الشخصية فى الأفلام أو المسرحيات لأن قدرته الفنية تتسع لمختلف الشخصيات فهو يصر على أن يختار القصة أو يوافق على اختيارها كيوسف وهبى أخيرا وكعماد حمدى أخيرا بعد أن تحرر من دور الفتى الأول .. ثم إن سبب تدهور الفن السينمائى فى مصر هو أن المنتج هو الذى يختار القصة .. لا يمكن للعقلية التجارية أن تصل إلى مستوى الفن ، إنما هو يختار بدوافع شخصية أو لأن هناك كاتبا أرخص من كاتب ..

وقاطعته هناء صارخة :

— إنى شبعت محاضرات ..أريد أن أخطو خطوة عملية .. سأتصل بنفسى بالمخرج عز الدين ذو الفقار وأترك له كل شىء ..

ونظر إليها فى ذعر كأنها تهدده بالقتل ثم استجمع أعصابه وهدوءه وعاد إلى لهجة الأستاذ قائلا :

— لا يمكن أن يخدمك الآن عز الدين ذو الفقار.. إنه فنان عظيم رائع ولكن نقطة الضعف فيه هى نفس نقطة الضعف التى أعانيها أنا .. إنى

لا أستطيع أن أكتب الشعر الغرامى إلا إذا أحببت فعلا ولهذا أكتب لك ، وكذلك عز الدين ذو الفقار لا يستطيع أن يختار بطلة الفيلم الذى يخرجه إلا إذا أحبها .. وأحبها بكل كيانه حتى يستمد من حبه القدرة على التعبير بفنه .. وهو الآن يحب نجاة ويخرج لها فيلما وأعتقد أنه يحبها لدرجة أن يخرج لها فيلما آخر ..

وقالت فى يأس :

ـ لنتصل بيوسف شاهين لقد عاد إلى نشاطه وأصبح مشهورا ..

وقال طاهر ساخرا :

ـ يوسف شاهين لن يفهمك .. وقد كان يوسف مخرجا أما الآن فهو سائح يحمل كاميرا .. تهمه الصورة ولا يهمه الموضوع .. ثم إنه صاحب مبدأ « أنا وحدى » ولذلك فهو يضع اسمه فى الإعلانات أكبر من أسماء أبطال الفيلم وأحيانا يصر على ألا يحمل الإعلان إلا اسمه هو وحده .. إنه مؤسس مدرسة « أنا وحدى » التى انضم إليها أخيرا حسام الدين مصطفى ..

وصرخت هناء كأنها تولول :

ـ لا تجننى بكلامك .. سأتصل بعز الدين ذو الفقار وسآخذه من نجاة وأشده إلى حبى حتى يخرج لى الفيلم ..

ثم هدأت من صراخها واقتربت منه وهى تبتسم ابتسامة كبيرة وقالت وهى تلتصق به :

ـ طبعا مع الاحتفاظ بحبك .. لن يكون عز الدين إلا فيلما وينتهى .. أما أنت .. أنت كل شىء .. وكل العمر ..

وعلت شفتى الأستاذ طاهر عبد الحميد ابتسامة ساخرة ، وتركها

ترفع سماعة التليفون لتتصل بالأستاذ عز الدين ذو الفقار وخرج بعد أن أقنعها بأنه مرتبط بموعد هام ..

واستطاع طاهر أن يلتقي بعز الدين ذو الفقار بعد يومين ، وهو يعرف طبيعة عز الدين فهو على قدر إحساسه الفني ورقته الفنية وشذوذه الفني إلا أنه لا يزال متأثرا بشخصيته كضابط سابق في الجيش ، فإذا ثار كان حادا في ثورته ، وإذا أصيب في غروره الفني دخل في معركة كأنها معركة حربية .. وكان عز الدين يحب طاهر ولا يرى فيه إلا شخصيته الفنية بل إنه يقدر حديثه الشيق وذكاءه في السيطرة على جلسائه .. إنه موهبة فنية ، وعز الدين يحب ويصادق الفن كلما وجده .. واستطاع طاهر أن يجذب الحديث بينه وبين عز الدين إلى أن جاءت سيرة هناء .. وقال عز الدين في بساطة :

ــ لقد اتصلت بي أمس .. تريد أن أخرج لها فيلما .. وقد بدأت أفكر فعلا في الموضوع ..

وقال طاهر ضاحكا كأنه يداعب عز الدين :

ــ ونجاة ..

وقال عز الدين دون أن يضحك :

ــ أنا لست مخرج أفلام نجاة وحدها ولكن إيماني الفني بنجاة لا يعادله أي إيمان آخر .. ولكني لا أريد لهذا الإيمان أن يحتكرني .. لن أقع فيما وقع فيه فؤاد المهندس وترك نفسه تحتكره شويكار ، بعكس حسن يوسف الذي لم يترك نفسه لتحتكره زوجته شمس البارودي .. الإيمان كالزواج كالحب لا يجب أن يؤدي إلى الاحتكار الفني .. لذلك أفكر بعد أن أنتهي من فيلم نجاة أن أخرج فيلما بلا نجاة ..

وربما تكون هناء ..

وقال طاهر في ابتسامة بريئة :

ــ ولكن عجيبة .. أن هناء اتصلت أيضا بالمخرج حسن عبد العليم .. وأعتقد أنها فاتحته في نفس الموضوع ..

واحتقن وجه عز الدين كأنه أهين وقال في حدة :

ــ متى حدث هذا ؟

قال طاهر في خبث :

ــ لا أدرى .. ربما من يوم أو يومين .. سمعت الخبر من بعيد ..

وصرخ عز الدين :

ــ والله عال .. يعني يا أنا يا حسن عبد العليم .. قل للست أو للآنسة إني معتذر عنها .. إن الفنانة التي تضعني في مستوى أي مخرج آخر تبقى ليست فنانة .. تبقى مختلة المقاييس الفنية .. قل لها إني لن أعمل معها حتى ولو في خيال الظل ..

وكانت هذه هي طبيعة عز الدين .. الثورة العسكرية العنيفة التي لا تثيرها سوى كلمة واحدة ..

وقال طاهر في براءة :

ــ لن أبلغ هناء شيئا .. كأنك تطلب مني أن أنشر إعلانا في صفحة الوفيات .. وكلامك إعلان لوفاة مشروع يتعلق بمستقبلها ..

وقال عز الدين في سخط :

ــ إن مستقبل هذا النوع من الفنانات لا يمكن أن يتحمله إلا مخرج كحسن عبد العليم ..

وافترقا ..

وبعد يومين كان طاهر في بيت هناء وقد حمل معه مجموعة من قصص أشهر كتاب مصر وصحب معه أيضا الكاتب الشاب محمود حماد ، على أن تبدأ هناء في قراءة القصص إلى أن تختار من بينها بينما حماد يكتب لها قصة جديدة لعلها تقتنع بها ..

وقال الكاتب الشاب في تلعثم وعيناه تترددان أمام وجه هناء :

— إني أفكر في أن أكتب قصة من حياتك ولكي أكتبها أرجو أن تروى لي حياتك كلها ..

ونظر إليه طاهر نظرة رفض .. والله عال .. إنه يحاول أن يتسلل إلى هناء بحجة الاستماع إلى قصة حياتها .. كثير من الكتاب والصحفيين وصلوا إلى أجساد الفنانات عن هذا الطريق .. الغبي .. إنه لا يستطيع أن يبتكر وسيلة جديدة للوصول .. وقال طاهر بسرعة :

— لا .. إن الفنان لا يستطيع أن يمثل قصة حياته ، مع أنه يستطيع أن يمثل قصة حياة شخص آخر .. أولا لأن موهبة التمثيل هي موهبة التجرد من النفس والتقلص في نفس أخرى .. أي في شخصية أخرى .. إن سعاد حسني لو مثلت قصة حياتها لفشلت ولكنها تستطيع أن تمثل قصة حياة فاتن حمامة مثلا .. والعكس بالعكس .. وثانيا لأنك لن تقول في القصة كل ما في حياة هناء .. ستضطر أن تخفي أهم ما في هذه الحياة وقد تضطر أن تكذب .. إن الفنان لا يبدو أبدا بقصته كاملة أمام الناس إنما يبدو بقصة أخرى يرسمها ويلونها .. وقد سمعت أن عبد الحليم حافظ أعد قصة حياته ليمثلها كفيلم ، ولكني لا أعتقد أنه سيمثلها ، ربما لأن القصة التي أعدت له فيها كثير من الصدق .. ابحث عن قصة أخرى لهناء يا أستاذ حماد ..

وقبل أن يستمر الثلاثة فى الحديث عن القصة قالت هناء :

— طاهر .. أنا اتصلت بعز الدين ذو الفقار ووعدنى أن يرد وأن يمر على ولكنه لم يرد ولم يمر ولا اعتذر .. مارأيك ..

وقال طاهر وهو يخفى شماتته تحت لسانه :

— اتصلى به ثانية ..

وقالت وكأنها تهم بالبكاء :

— حاولت ولم أستطع .. لعله يتهرب منى ..

قال طاهر فى غرور المنتصر :

— اتصلى به الآن ..

وقامت هناء ورفعت سماعة التليفون واتصلت بعز الدين .. وسمعت صوته يرد عليها .. وبسرعة انقلبت إلى شخصية ناعمة وقالت فى دلال :

— كده برضه يا أستاذ .. أربعة أيام مضت منذ وعدتنى .. على الأقل كنت فى انتظار أن أراك .. ألا تحب أن ترانى ..

وطاهر بجانبها وسمع صوت عز الدين يصرخ كعادته عندما يكون فى معركة عسكرية :

— آسف يا آنسة .. آسف .. مشغول .. ليس عندى وقت ولا عقل ولا عمل معك .. ابحثى عن غيرى .. مع السلامة ..

وألقت سماعة التليفون ..

وسقطت هناء على المقعد مبهورة الأنفاس ..

وقال طاهر وهو يربت على كتفها :

— لقد حذرتك من عز الدين .. لابد أن نجاة سمعت أنه اتصل

بك .. إنك لست أى فنانة يا هناء إنك فنانة خطرة على كل الفنانات .. واتركى لى الموضوع ..

وفى الليلة التالية ذهب إلى بيت هناء وبصحبته المخرج حسن عبد العليم ، وقدمه صائحا :

ـ الأستاذ حسن وافق على إخراج الفيلم .. قال لى إن حلمة منذ بدأ فى الإخراج هو أن يخرج فيلما تمثله هناء .. لم يبق الآن إلا القصة .. وكان حسن عبد العليم من المخرجين المعروفين وإن لم يكن فى مستوى عز الدين .. واستسلمت هناء .. وبدأت تناقش الموضوع معه ومع طاهر .. وقال حسن :

ـ يا ترى من المنتج ؟

وصرخ طاهر :

ـ لسنا فى حاجة إلى المنتج الآن .. بعد أن ننتهى من القصة والسيناريو سيتقدم ألف منتج ..

وقال حسن :

ـ المهم قبل أن نبدأ أن نحدد الميزانية .. إننا نستطيع أن ننتج فيلما يتكلف نصف مليون جنيه ، وفيلما يتكلف مائة ألف ، وفيلما يتكلف خمسة الآف .. المهم أن نحدد الميزانية حتى نفكر فى حدودها .. أى المهم أن يبدأ معنا المنتج ..

ونظر طاهر إلى حسن كأنه يتهمه بأنه تعدى حدود اختصاصه وقال :

ـ اترك لنا هذا الموضوع .. تعال أولا نتصور الشخصية التى تفضل أن تظهر بها هناء فى الفيلم .. شخصية بنت الباشا .. أم شخصية

فلاحة .. أم شخصية بائعة جرائد .. كل هذه الشخصيات ظهرت فى الأفلام القديمة .

وقالت هناء ساخرة :

ــ أفضل أن أمثل شخصية مجنونة ، فإنى أحس الآن أنها أقرب الشخصيات إلى ..

ونظر إليها طاهر كأنه يتسلل إلى أعماقها ليفهم ما تعنيه بكلمتها.

وقال المخرج حسن عبد العليم :

ــ فكرة .. إنها فعلا فكرة جديدة ..

وصرخت هناء :

ــ إنى سأجن فعلا إن لم أبدأ فى العمل .. وهذا الفيلم أريد أن أعرضه فى الموسم القادم أى بعد ستة شهور .. يجب أن أعمل .. أن أظهر أمام الناس .. و ..

وقاطعها طاهر قائلا فى لهجته التى ينغمها حتى يصبح مقنعا كاللحن الذى يصاحب الجمهور :

ــ يا هناء لا تظلمي نفسك .. إنك تذكريني بالتافهين الذين يعتقدون أنه بمجرد غيابهم شهرا ينساهم الجمهور .. تذكريني بصديقى عضو مجلس الشعب الذى جاءنى أمس يسألنى .. ما عندكش سؤال أقدمه لوزير فى المجلس .. وقلت له إنه لم يمض سوى شهر واحد على سؤاله الأخير .. فقال ببساطة .. أريد أن أتكلم فى المجلس حتى لا ينساني الجمهور .. أى كلام .. والجمهور كله يعلم أنه نائب تافه .. النائب أو السياسى القوى قد تمضى عليه دورة كاملة دون أن يتكلم لأنه واثق من نفسه ويصر ألا يتكلم إلا إذا كان كلامه

يقيم الدنيا ويقعدها .. وتذكريني أيضا بكاتب معروف يكتب قصته في ثلاث حلقات ولكنه عندما ينشرها في الصحف يقسمها إلى عشرين أو ثلاثين حلقة لمجرد أن يكرر نشر اسمه حتى لا ينساه الناس ، في حين أنه ظلم نفسه بهذه الوسيلة وأصبح الناس يرفضون قراءته في الصحف منتظرين أن يقرأوه في كتاب .. وكذلك كتاب اليوميات .. إن كثيرين منهم لا يهمهم ما يكتبون ولكن يهمهم نشر أسمائهم كل يوم .. وإحدى الصحف كانت تنشر لأكثر من عشرة كتاب عامودا يوميا لا يقرأ الناس منها إلا عامودا واحدا لكاتب واحد ، لأنه الكاتب الذى لا يفتعل كتابة العمود .

وأنت لست من هذا النوع .. أنت لا تعتمدين على ترديد نفسك ولكنك تعتمدين على قوة موهبتك .. إن فاتن حمامة غابت عن السينما وعن البلد أكثر من خمس سنوات ثم استطاعت بفيلم واحد أن تنجح وكأنها لم تغب عن جمهورها يوما واحدا .. وسعاد حسنى أصبحت تنتج فيلما كل عامين ورغم أنها لا تتعمد هذه الغيبة إنما هى ضحية كسلها وضحية الآراء التى تحيط بها إلا أنها عندما تعود فى فيلم فكأنها لم تغب .. وأنت .. وأنت نفسك لقد أهملت جمهورك سنوات طويلة .. ثم نجحت كل هذا النجاح فى حفلتك الأخيرة .. وليس الفضل لك فى هذا النجاح كله لعبد الوهاب ولا للقصيدة التى كتبتها لك .. إن الفضل لك .. أنت وفنك .. ولولاك لسقط اللحن وسقطت القصيدة .. لا تستجدى الجمهور .. لا تظلمى نفسك ..

وهناء تستمع إليه وهى حائرة هل تستلم لمنطقه أو تقاومه .. هل تصدقه أم تشك فى نياته .. وهو يحلق فى وجهها بعينه الكبيرتين اللتين

تطلان من رأسه الضخم الذى يحمله فوق كتفيه الضيقتين وقوامه القصير النحيل .. يريد أن يكتشف أين وصل بها بمنطقه الذى يصطادها به لتعود وتعيش بين أصابعه .. إنه يحس أنها لا تزال تتمرد وتقاوم وتحاول أن تحطم من حولها قبضات هذه الأصابع ..

وأصبحوا يجتمعون كل ليلة ..

هناء تقرأ فى كتب القصص لتقنع نفسها بواحدة منها ..

وطاهر ينفخ الدخان بحثا عن أبيات لقصيدته ..

والكاتب محمود حماد يفرد أمامه أوراقا ويكتب ..

والمخرج حسن عبد العليم يناقش ثم يسجل بعض النقاط ..

والكأس تدور عليهم جميعا ..

وهناء التى كانت قد بدأت بكأس واحدة تهدىء بها أعصابها ، ثم أصبحت الكأس كأسين ، أصبحت الآن لا ترفض الكأس الثالثة .. وهى حائرة فيما يجرى فى بيتها .. لم تتعود أن تجتمع بالشاعر والكاتب والمخرج ليعملوا معا ولكن طاهر قال إن هذه هى الوسيلة الوحيدة حتى يعمل الجميع معا وينتجوا عملا مشتركا بسرعة .. قال لها إن عزيزة أمير كانت تنتج كل أفلامها هكذا .. كانت تجمع حولها من يعدون لها أفلامها ، وكلمة من هذا وكلمة من ذاك وتتم كتابة القصة .. وصورة فى خيال هذا وصورة أخرى فى خيالها أو فى خيال آخر ويحدد المخرج مشاهد الفيلم .. إنهم فى أفلام هوليوود لا ينفرد أحد بالعمل بل يعملون جميعا فى اجتماع يضمهم ..

وهناء تحاول أن تقتنع وحتى تعين نفسها على الاقتناع تلجأ إلى كأس أخرى .

وقال طاهر :

ـ تعبنا .. نستريح يا جماعة .. ما رأيكم في برتيتة ..

والتفوا بسرعة حول المائدة وبدأوا يلعبون ورق الكوتشينة .. وهناء تضحك ضحكة سكرى وهي تجلس وتلعب معهم ..

وأصبحت مائدة القمار مائدة كل ليلة ..

ودخل طاهر إليها وبصحبته رجل ضخم .. إنه محجوب عبد ربه .. مقاول معروف سمعت عنه هناء وسمعت أنه جمع الملايين من صفقات مقاولات حققها في دول الخليج .. وقال طاهر يقدمه لها وهو يهلل بصوته :

ـ محجوب بيه .. طبعا معروف ..

وقال محجوب وهو يبتلع هناء بعينيه :

ـ ده مني العمر يا ست .. أنا لا أدري كيف أرد جميل الأستاذ طاهر ..

وشد طاهر هناء من ذراعها وابتعد بها وهمس في أذنها :

ـ اتفقت معه على أن يتولى إنتاج الفيلم .. إنه لقطة .. لن يتدخل في العمل .. فقط سيدفع .. الحد الأدنى مائة ألف جنيه ..

وهزت هناء رأسها والتفتت إلى محجوب وقالت في لهجة باردة :

ـ أهلا وسهلا محجوب بيه .. شرفتنا ..

وجلس محجوب على مائدة القمار ..

وهناء تائهة في كأسها ..

وفي آخر الليل بعد أن انصرفوا كلهم رفع طاهر في يده عددا من الجنيهات وقال ضاحكا :

ـــ الجانبوتا ..

ولم ترد عليه هناء وعاد يقول :

ـــ فقط كمكافأة للخدم .. إنهم يسهرون معنا ..

ولم ترد عليه ..

ووضع طاهر الجنيهات فوق المائدة ، واقترب منها وقبلها فوق جبينها وقال :

ـــ تصبحي على خير ..

ولم ترد عليه ..

اتسعت مائدة القمار .. دعا طاهر أصدقاء آخرين .. ومحجوب عبد ربه يصحب معه أصدقاءه .. وأصبح المخرج حسن عبد العليم يصحب معه كل ليلة واحدة من الفنانات لتساعد في إحياء السهرة .. ولم تعد اللعبة التي يلعبونها أوراق الكوتشينة هي لعبة الكومي أو لعبة الواحد والثلاثين كما بدأت .. إنهم يلعبون البوكر .. البوكر المكشوف .. وارتفعت قيمة الجانيوتا التي يتركونها على المائدة كل ليلة .. خمسمائة بل وصلت إلى ألف جنيه .. ومع ذلك فكل ليلة تبدأ باجتماع الأربعة .. هناء والشاعر والكاتب والمخرج .. ليبحثوا عن قصة الفيلم .. وهناء أصبحت تعلم أن لا شيء سينتهي وأن كل ما وصلت إليه هو أن أصبح بيتها منتدى للعب القمار .. وهي تعلم أن بيوتا كثيرة من بيوت الفنانين وبعضها بيوت لكبار الفنانين تنقلب كل ليلة إلى نادى قمار ، واتسع بعض هذه النوادى إلى أن أصبح يشد إليه كبار الضيوف العرب .. الحمد لله أن طاهر لم يدخل إليها بعد بأحد من الضيوف العرب .. وهي لا تريد كل ذلك .. لا يمكن .. إن أم كلثوم

لم يكن بيتها أبدا ناديا للقمار .. ولكن هل هذا هو بيتها .. أبدا .. لقد أصبح بيت الأستاذ طاهر عبد الحميد ..

وتقضى ليلها بين اللاعبين غارقة فى كأس الخمر .. وتترنح .. وتضحك ضحكات السكارى .. وتنطلق وتغنى دون أن يطلب أحد منها الغناء .. وصوتها يتمزق بين أبخرة الخمر التى تملأ صدرها .. وأعصاب عنقها تبرز وهى تشد النغم كأن كل ما فى عروقها خمر ..

وانطلقت ليلة وقد استبد بها الخمر وألقت نفسها فوق صدر الكاتب محمود حماد وهى تصيح ضاحكة :

ـ كم قبلة تحتاج حتى تتم القصة ..

ثم تركته وألقت بنفسها فوق المخرج حسن عبد العليم :

ـ حدد بسرعة كم يكلفنى الإخراج .. قبلة .. أم عضة .. أم ليلة .. ثم قفزت ووقفت أمام محجوب عبد ربه وشدت القميص الذى يلبسه فوق صدرها وصرخت ونهداها عاريتان :

ـ ادفع .. ادفع بسرعة .. الإنتاج لن ينتظر ..

ثم أخذت تقفز حول المائدة وهى تصيح :

ـ إنى أبيع .. من يشترى .. إنى أبيع .. من الشارى .. أبيع الفن .. هذا هو الفن .

والكل صامتون .. مبهورون .. وطاهر يجرى وراءها يحاول أن يمسك بها ..

وفجأة توقفت كأنها أفاقت ، ورفعت يديها تغطى بهما نهديها العاريتين .. وهى تدير عينيها بينهم فى نظرات تائهة ضائعة .. ثم انطلقت تبكى وأخذت دموعها وجرت بها إلى غرفة نومها وطاهر

يلحق بها .. ومدت يدها إلى درج بجانب فراشها وأخرجت زجاجة صغيرة بها حبوب حمراء ..

إنها تنتحر ..

وضربها طاهر على يدها وأطاح بالزجاجة الحمراء وسقطت فوق فراشها صامتة ، كأنها أغمى عليها .. وطاهر جالس بجانبها يحيطها بيده .. إنها الآن بين أصابعه .. كلها بين أصابعه .. لم يعد فيها شيء يمكن أن يفلت منه .. وقد عاد إحساسه كله بأنه الأستاذ .. أنه السيد .. أنه الخالق .. وهو يتعذب من حاجتها إليه .. يتعذب بحبه الذى يفرض عليه أن يعطى .. يعيش نعيم العذاب .. والكلمات ترتجف فى صدره وتحت لسانه .. كلمات الشاعر المعذب ..

وشد ورقة من علبة بجانب الفراش وأخذ يكتب ..

ولم يشعر بكل الناس وهم يغادرون البيت ..

ولم يفكر أن يستدعي طبيبا لينقذ هذا الجسد الملقى بجانبه على الفراش .. إنه يكتب ..

إنه يعيدها إلى الحياة ..

وتمت القصيدة ..

وبدأ عبد الوهاب يلحن ..

والصحف تكتب ..

وهناء وطاهر فى انتظار أن تبدأ القصة من جديد ..

أرجوك خذني من هذا البرميل

— ١ —

أنا امرأة من الكويت ..

وأجمل ما فى أنى كويتية .. وأنا أعرف أن الناس كلهم سواء فى البلاد العربية أو فى البلاد الأجنبية لا يستطيعون أن يفهموا معنى المرأة الكويتية أو يقدروا شخصية المرأة الكويتية إنما يضعونها ضمن نساء دول الخليج .. واحدة من نساء العراق أو السعودية أو قطر أو أبو ظبى أو .. أو .. أبدا إن المرأة الكويتية نوع قائم بذاته .. شخصية لها مقوماتها وتقاليدها ومعنوياتها التى تختلف تماما عن شخصية المرأة فى أى دولة من الدول العربية .. الاختلاف ليس فى الشكل .. أى ربما لم تكن للمرأة الكويتية ملامح تميزها عن المرأة السعودية أو المرأة العراقية إلا طبعا فى لهجة الحديث ، واختلاف اللهجات يصل إلى حد يبدو كأن كلا منهن تتكلم لغة أخرى ليس بينها لغة القرآن .. ولكن الاختلاف فى الشخصية نفسها ، وفى الوضع الاجتماعى ، وفى قيمتها كجنس أى كامرأة ..

وقد لا يصدقنى أحد عندما أؤكد أن المرأة الكويتية هى أكثر النساء حرية فى البلاد العربية .. أكثر حرية من نساء مصر ومن نساء لبنان وسوريا ومن نساء العراق ومن كل النساء ، رغم أن المرأة عندنا ليس لها حق الانتخاب ولا الترشيح لمجلس النواب ولا من حقها أن تكون

وزيرة ولا شيئا من كل هذا الكلام الفاضى الذى يضحك به الرجال على عقول النساء باسم الحرية وباسم إعطاء المرأة حقوقها .. إن حرية المرأة هى حريتها فى ممارسة شخصيتها وفى كل ما يمس وجودها وفى مساواة تامة مع شخصية الرجل .. وهذا هو ما تتميز به المرأة الكويتية ..

وإلى عهد قريب كانت المرأة الكويتية تعيش محجبة وراء العباءة ، ولكن الحجاب لم يكن له أثر أبدا على شخصية المرأة الكويتية .. إن التقاليد لا تحدد المظهر الخارجي ويمكن دائما أن تتغير وتتطور ببساطة ولكن الشخصية شيء آخر غير التقاليد ، إنها كيان وطبيعة الإنسان نفسه التى يتوارثها جيلا بعد جيل ولا تتغير حتى مع تغير مظاهر التقاليد .. المرأة الكويتية السافرة اليوم لا تختلف فى شخصيتها أبدا عن المرأة الكويتية التى كانت محجبة بالأمس ، ولا فى حرية هذه الشخصية وكيانها القائم بذاته ، فى مواجهة شخصية الرجل ..

وحتى تفهمونى يجب أن ترجعوا إلى تاريخ مجتمع الكويت منذ وجد هذا المجتمع .. لقد وجدنا كمجتمع كل رجاله من البحارة والغطاسين من صيادى اللؤلؤ والتجار والقراصنة .. وكان رجالنا يعيشون فى البحر أكثر مما يعيشون على الأرض .. يغيبون شهورا ، ويتركون الأرض للأطفال والعجائز والنساء ، فأصبحت المرأة بحكم هذا الواقع الاجتماعى هى التى تحكم فى الأرض والرجل لا يحكم إلا فى البحر .. المرأة التى تركها زوجها وأبوها وابنها إلى البحر وقد يغيبون سنوات فى مياه المحيطات أصبحت هى المسئولة عن الأطفال إلى أن يكبروا ويهاجروا إلى البحر ، ومسئولة عن العجائز إلى أن

يهاجروا إلى قبورهم ، ومسئولة عن الاحتفاظ بكيان القبيلة لتستقبل فيها الرجال عندما يعودون من البحر لقضاء أجازاتهم .. مسئولة .. مسئولة .. وهى مسئولية تتطلب الحرية الكاملة .. الحرية الشخصية .. حرية الفكر الذى يسبق التصرف ..

كانت المرأة الكويتية فى القديم امرأة حرة ، وكانت الحرية هى المسئولية ..

ثم تطور المجتمع الكويتى والمرأة الكويتية لا تزال تعيش طبيعتها كامرأة حرة ، ولكن هذا التطور قضى على المسئولية الشاقة التى كانت المرأة تحملها ، فأصبحت حرة بلا مسئولية ..

وهذا هو سر متاعب المجتمع الكويتى والمرأة الكويتية ..

وطبعا كان تطور المجتمع الكويتى هو الأثر المباشر السريع لاكتشاف البترول فقد استقر الرجل الكويتى على الأرض .. لم يعد يعيش فى البحر بحثا عن الرزق بل أصبح يحفر الأرض فينطلق منها الرزق .. إنه حتى لا يحفر الأرض بيديه بل يجلس فى بيته ويستدعى من يحفرها له .. ولم يعد يغوص فى قاع البحر باحثا عن حبات اللؤلؤ ليبيعها وتتحلى بها نساء الأغنياء ، بل أصبح هو من الأغنياء يشترى اللؤلؤ ويحلى به نساءه .. وعندما استقر الرجل على الأرض ضاعت مسئولية المرأة .. لم تعد هى المسئولة عن كيان القبيلة .. لم يعد كل من حولها أطفالا وعجائز .. لم يعد كل شىء فى يدها هى ..

وشىء آخر سببه البترول للمجتمع الكويتى ، وهو تعدد القبائل فوق أرض الكويت .. إن قطعة الأرض الصغيرة أصبحت تحمل عشرات القبائل الغربية الزاحفة .. قبيلة أمريكية ، وقبيلة هندية ، وقبيلة

فلسطينية ، وقبيلة إيرانية وقبيلة لبنانية ، وقبيلة يمنية ، وقبيلة مصرية .. و .. و .. قبائل تزحف من كل أنحاء العالم وتتجمع حول آبار البترول ..

واحتارت القبيلة الكويتية صاحبة الأرض كيف تواجه هذا الزحف القبائلى .. إنها ليست قبائل عابرة تأتى وتذهب .. ولكنها قبائل تأتى وتستقر .. تعيش معنا إلى الأبد ..

ولم تجد القبيلة الكويتية ما تواجه به الزحف إلا الهرب ..

لم تهرب إلى البحر كما تعود أهل الكويت ..

ولكنها هربت إلى السماء ..

ارتفعت أو ترفعت ، واتخذت لنفسها عرشا فوق قطعة من السحاب تطل منه على القبائل الزاحفة .. تطل إطلالة المالك على رعيته .. فى كبرياء المالك ، وصلف المالك ، وثراء المالك ..

ووسط هذا الزحف القبائلى العالمى ضاع مظهر الشخصية الكويتية .. لم يعد فى الكويت شىء كويتى .. سيارة أمريكية .. وثوب من كريستيان ديور الفرنسى .. وسارى من الهند .. وطبق كبه من لبنان .. وكرافت من هارودز الانجليزى .. وحلة ملوخية من مصر .. وصينية بقلاوة من سوريا .. وبيت على الطراز الأسبانى .. وجامع على الطراز التركى .. و .. و .. وهذا الضياع لا تجده فى الشوارع فحسب ولكنك تجده داخل البيت الكويتى .. لم يعد هناك بيت كويتى يعبر عن شخصية كويتية قائمة بذاتها وطراز كويتى متوارث ، ولكنها مجرد بيوت غربية يسكنها كويتيون ..

والمصيبة الأكبر التى وقعت بعد البترول هى مصيبة الفراغ .. فراغ

الوقت وليس هناك أقسى على الرجل والمرأة من الفراغ .. وأصبح كل أهل الكويت يعيشون كأنهم يعتمدون على أوراق اليانصيب .. دخل البترول نفسه ليس أكثر من قيمة ورقة يانصيب كسبتها الكويت .. مجرد حظ .. مجرد منة من الله لا دخل فيها لمواهب الفرد ولا لعبقرية الفرد ولا لمجهود الفرد .. وانعكس كل ذلك على حياة الفرد وشخصية الفرد .. أصبح مجرد إنسان في يده أوراق يانصيب ويعيش بلا عمل في انتظار الربح .. حتى طبيعة الإنسان الكويتي التي تسري في دمه حولها البعض منهم إلى أداة ترفيهية لتمضية أوقات الفراغ .. فالكويتي من طبيعته أنه تاجر ، ولكنه لم يعد يتحمل أن يعبر الصحراء على قوافل الجمال أو يعبر المحيطات إلى الهند وإيران في سبيل التجارة ، لقد أصبح بعضهم يقبع في بيته ويعطي أمواله لغريب أو لشركة أجنبية لتاجر له بها ، بل إنه أصبح من حقه أن يتاجر حتى دون أن يغامر بأمواله فقد أصدر قانونا بأن لا أحد من الأجانب له الحق أن يتاجر في الكويت إلا وله كفيل كويتي .. والكفالة هي مجرد أن يمنح الكويتي اسمه لأجنبي ليتاجر به ويصبح من حقه نصيب في الربح دون أن يعمل أو يغامر أو يبذل جهدا .. ومن طبيعة الكويتي أيضا المغامرة الذكية .. إن صيد اللؤلؤ ليس إلا مغامرة ذكية للبحث عن الجواهر الغالية .. مغامرة يندفع إليها غائصا في البحر حتى لو كتمت أنفاسه .. ولكنه أصبح يغامر باصطياد النساء .. لم يعد يغوص في البحر ، ولكنه يغوص في فنادق لندن وباريس أو يغوص بين عائلات لبنان أو سوريا ليصطاد امرأة .. لم يكن في حياة الرجل الكويتي كل هذا العدد من النساء الأجنبيات قبل اكتشاف البترول .. أي قبل البترودولار .. إننا

نحن النساء الكويتيات ننظر إلى هذا النوع من النساء اللاتى يفدن على أسرة رجالنا ، لا على أنهن نساء بل مجرد بضائع .. بضائع يشتريها الرجل ليقضى بها أوقات الفراغ كما يشترى نرجيلة يدخنها أو حصانا يركبه ..

والمرأة الكويتية .. أنا .. إن ثقل الفراغ عليها أقسى وأخطر من ثقله على الرجل .. وقد كان من طبيعتها قبل اكتشاف البترول أن تتحمل مسئولية هدف أساسى فى حياة قبيلتها ووطنها .. كان الرجال يحررون ويتركون لها كل مسئولية الأرض .. ولكن الآن ليس للمرأة الكويتية هدف إلا تمضية أوقات الفراغ .. وحتى عندما تصر البنت على أن تتم تعليمها وتسافر إلى مدارس بيروت أو مصر أو لندن ، لا تقصد العلم نفسه إنما تقصد فقط تمضية أوقات الفراغ .. إنقاذ نفسها من ثقل وقسوة الفراغ .. ولكن العلم ما دام ليس له هدف لا يمكن أن ينقذ البنت من أوقات الفراغ ، ولهذا تعرضت كل بناتنا لكل مساوىء الفراغ ، بل أصبح المجتمع الكويتى مضطرا أن يتستر على أوضاع لم يكن أبدا يبيحها لمجرد اعترافه بأن الفراغ أصبح له احتياجات .. حتى هذا النوع من الاحتياجات ..

ورغم كل هذا التطور فى حال الكويت فقد بقى الكويتى والكويتية كل منهما صاحب شخصية قائمة بذاتها بين بقية دول وإمارات الخليج .. شخصية تتميز بالحد الأقصى من الذكاء .. إننا أذكى أهل الخليج .. بل أذكى أهل العرب .. وهم يسموننا يهود الخليج نسبة إلى الذكاء المنسوب لليهود ولكننى أؤكد أننا أذكى من اليهود ألف مرة ، ولو كنا ولدنا فى فلسطين لكان اليهود الآن هم الذين يعانون مشكلة

البحث عن وطن .. ولا شك أن الذكاء الكويتى قد تطور فى مسئوليته بعد اكتشاف البترول .. فقد كان الذكاء الكويتى مركزا على الكسب .. البحث عن الثراء .. أما بعد البترول فلم يعد الكسب ولا البحث عن الثراء يحتاج إلى كل هذا الذكاء ، بل أصبح ما يحتاج إلى ذكاء هو الإنفاق .. كيف تنفق ما تكسبه .. وأقوى ما يحرك هذا الذكاء هو طبيعة طمع الفقير فى أموال الأغنياء .. كل الفقراء طامعون فى أموالنا .. ويجب أن نكون من الذكاء بحيث لا ندفع إلا الحد الأدنى مع الاحتفاظ برضاء الفقراء حتى نتجنب لعناتهم .. وهم يقولون إننا بخلاء .. أبخل من أهل السعودية .. لا .. إننا لسنا أبخل ولكننا أذكى .. أذكياء ونحن نأخذ وأذكياء ونحن نعطى ..

هذه هى أنا ..

كويتية ..

ومشكلتى أننى منذ البداية لا أطيق أوقات الفراغ .. ولا أطيق أن أستريح على شىء لا يتحرك .. كل شىء يجب أن يتحرك ، ويتحرك بإرادتى وتحت قيادتى .. إن شخصيتى التى أحرص عليها هى نفس شخصية جدتى وجدة جدتى .. أريد أن أحمل المسئولية وحدى كامرأة وليخرج الرجل إلى البحر ويعود ليضع بين يدى ما حصل عليه .. ما كسبه .. لأدبره له وأحتفظ به ثم يعود إلى البحر ويتركنى وحدى وهو مطمئن إلى مستقبله ومستقبل البيت والأولاد ومستقبل الأرض ..

وقد بدأت كما تبدأ أى فتاة من بنات العائلات الكبيرة العريقة فى الكويت .. كل حياتى فى البيت .. أدرس فى البيت ، وألعب فى

البيت ، وأشاهد أفلام السينما فى البيت ، ونتحدث عن العالم خارج البيت كأنه عالم الكبار فقط وربما كان السبب فى هذا هو أننا نبدأ كبارا ونحن فى الثامنة من عمرنا .. وقد كنت ابنة ثمانى سنوات عندما بدأت أتحدث مع بنات العائلات ومع الجوارى والخادمات عن الرجل .. عن الزواج .. عن الجنس .. كنت فى العاشرة من عمرى وأنا أعرف كل شيء عن الجنس وأحس به أيضا وإن كان إحساسا ينطلق من الخيال لا من الواقع الجسدى .. وليس هذا غريبا ولكنه نتيجة طبيعية للفراغ الذى تتعرض له البنات والصبايا بين جدران القصور .. وربما كنت منذ أيام طفولتي وأنا ثائرة على هذه الجدران التي تحيط بي .. جدران القصور .. أريد أن أعود إلى خيمة جدتي وأنطلق أجرى وأمرح فوق رمال الصحراء وأقف على شاطىء البحر فى انتظار الرجال وهم عائدون من رحلة تجارة أو رحلة قرصنة ، وسيوفهم الباترة تتأرجح فوق خصورهم وأكتافهم تحمل صناديق الغنائم وبريق الذهب الذى عادوا به .. خيال .. وقد كنت أعبر عن خيالي بالشقاوة والعفرتة .. كنت أكثر بنت بين بنات العائلة كلها شقاوة .. وكان لي فى كل يوم ضجة وخناقة وأحيانا جريمة صغيرة تثير الضحك أكثر مما تثير الألم أو الندم .. ولكنى لم أكن دائما هذه البنت اللعوب العفريتة فقد كنت أحيانا أجد نفسى أبكي .. أبكي بعنف كأن كل خلجة من خلجاتي تذوب في دموع .. كلمة واحدة أو لفتة واحدة وأبكي .. وإذا بكيت لا أكف عن البكاء إلا بعد أن أضعف وأنام .. وأحيانا كانت شخصيتي كلها تتحول إلى شخصية رقيقة حالمة كأنى ارتفعت إلى أرقى مستويات عواطف الإنسان ورقة الإنسان وأتفرغ كلي إلى سماع

الأغاني العربية وكثيرا من الأغاني الأجنبية وأنا نفسى أغنى .. وغنائى يطربنى أنا ولا يهمنى إذا كان يطرب الآخرين .. وربما لو كنت قد درست الغناء أو تعلمت العزف على آلة موسيقية لتمتعت نفسى أكثر وأنا أغنى .. ولكنه الكسل .. فإنى أستطيع أن أشترى المستمعين وأشترى إعجابهم حتى لو كانوا منافقين ، دون حاجة إلى أن أتعلم الموسيقى والغناء ..

هذا التناقض فى شخصيتى جعلنى أبدو بين بنات العائلة كأنى شخصية غير طبيعية ، وربما كنت فعلا غير طبيعية بالنسبة للمقاييس العامة ، وقد كنت فى الوقت نفسه ومنذ طفولتى محبوبة من الجميع .. إنى أثير الحياة فى كل مجتمع أكون فيه منذ كنت طفلة وصبية ، وهو ما يجعل الكل يريدوننى بينهم يحبوننى ويتحملوننى ..

وعندما أصبحت فى العاشرة من عمرى تركت الكويت وانتقلت إلى القاهرة لألتحق بالمدرسة الإنجليزية للبنات .. ولم أسافر إلا بعد معركة عنيفة مع أبى وأمى والعائلة كلها .. فالعائلة لم يكن يخطر على بالها أنى فى حاجة إلى العلم .. إن بنات العائلات الكبيرة فى الكويت كلهن لسن فى حاجة إلى العلم .. العلم كما يتصورونه هو طريق للرزق وبناتهم ولله الحمد فى غنى عن الرزق .. الله أغناهم .. وأنا نفسى لم أكن فى الواقع أحس بحاجتى إلى العلم ، ولم تبد على أى مقدمات لأى موهبة علمية ، ولم أكن أفكر فعلا فى أن أكون خريجة جامعة ولا حتى خريجة مطبخ .. أقصد دراسة أعمال البيت .. وكل ما حدث هو أنه تقرر أن يسافر أخى الأكبر ليلتحق بكلية فيكتوريا فى الإسكندرية .. كنا قد وصلنا إلى العهد الذى أصبحت فيه العائلات تتباهى بأن أولادها

يتعلمون في الخارج .. ويتعلمون اللغة الإنجليزية .. لماذا لا يكون من حق البنت أيضا أن تتعلم في الخارج .. لقد أصبحت هذه هي أيضا موضة بنات الكويت .. أصبحن يسافرن ليتعلمن فى مصر وبعد أن تغيرت أحوال الحكم في مصر أيام جمال عبد الناصر أصبحن يسافرن إلى بيروت أو انجلترا أو أمريكا ، ولكن على أيامى لم تكن هذه الموضة قد انتشرت بعد فاحتجت إلى ضجة أثيرها في وجه أهلي حتى أسافر إلى مصر .. إذا سافر أخى فيجب أن أسافر أو أنتحر .. وكنت واثقة أنى لن أنتحر فإن أبى يحبنى ويدللنى ولا يرد لى طلبا ، ثم إنه رجل يتميز بالجرأة على مجاراة التطور ، ولن يتردد فى أن يكون من أوائل رجال القبيلة الذين أرسلوا بناتهم لتلقى العلم فى الخارج ، وكذلك أمى لا شك أنها من أنصار كل موضة جديدة وإرسالى إلى مصر هى الموضة التي يمكن أن تتباهى بها أمام صديقاتها ..

وأصبحت فى مصر .. فى القسم الداخلى بالكلية الإنجليزية للبنات ..

إن الحرية خارج بلدك لها طعم آخر غير الحرية التى تحصل عليها داخل بلدك .. طعم حلو يفتح شهيتك إلى حد يهددك بالتخمة وقد تقع صرعى لها .. وقد ذقت حلاوة الحرية الواسعة وإن كنت أحيانا أصاب ببعض المرارة لأنى أثبت أنى مسئولة عن نفسى هناك كما أنا مسئولة عن نفسى هنا .. والمرأة كالرجل فى تقديرها لحريتها .. إن بعض الرجال يسافرون إلى الخارج سواء فى طلب العلم أو للسياحة فيتهتكون فى استعمال حريتهم .. الحرية هى أن تكون له فى كل ليلة امرأة .. وأن يلعب القمار بحرية .. وأن يشرب الخمر علنا .. وأن ينطلق فى

الرقص .. و .. و .. حتى إذا عاد إلى بلده أفقد نفسه حريتها لأنها حرية سرية لا يستطيع أن يجاهر بها .. حرية سوداء .. هؤلاء الرجال لا يقدرون أن النساء أيضا معرضات لما تعرضوا له .. معرضات وهن في خارج الكويت لأن يضعفن أمام إغراء الحرية .. فتكون الحرية هي حرية تذوق الرجال في الفراش .. وحرية الخمر والقمار .. و .. و .. فإذا عادت هي أيضا إلى بلدها أفقدت نفسها حريتها وعاشت تتعذب بإغراءات الإثم أو الحرية الآثمة .. وكذلك فإن هناك رجالا يضعفون أمام حريتهم الاجتماعية وأمام اطمئنانهم إلى أنهم بعيدون عن الرقباء .. إنهم دائما يحترمون أنفسهم مع كل مستويات الحرية ، وكذلك النساء .. نساء كويتيات كثيرات سافرن إلى الخارج وعشن وحيدات بلا زوج أو أب ورغم ذلك احترمن هذه الحرية واحتملن عبء مسئولياتها ..

ورغم ذلك — وبعيدا عن مبادىء العفة والطهارة — فإن المرأة الكويتية خارج الكويت لا تزال إلى اليوم تختلف عن نفسها وهي داخل الكويت .. تختلف في علاقتها الاجتماعية ، وفي اختيار ثوبها ، وفي مكياج وجهها .. إني أعرف زوجا وزوجة يرقصان الأفرنجي خارج الكويت ويرقصانه علنا في المحال العامة ، ولا يرقصانه وهما في بلدهما الكويت حتى ولا في حفل خاص داخل البيت .. لماذا .. ربما لأنهما يشعران في الخارج بأنهما يتحدثان لغة أجنبية ويمارسان كل المظاهر الاجتماعية ويرقصان كأنهما يتحدثان هذه اللغة الأجنبية ورغم ذلك فإني أتمنى أن يكون أهل الكويت وهم خارج الكويت هم أنفسهم داخل الكويت ..

وقد بقيت طالبة فى كلية البنات الإنجليزية بمصر الجديدة ثلاث سنوات .. وربما لم أكن أيامها أستطيع أن أقدر قيمة زميلاتى وصديقاتي المصريات اللاتى تعرفت بهن لأنى لم أكن قد سافرت بلادا أخرى لأكتشف الفرق بين بنات بلد وبلد آخر .. صدقونى .. إن المرأة المصرية هى أطيب وأرق امرأة فى العالم ، وما يقال عنها من أنها امرأة مستسلمة صحيح .. ولكن .. مستسلمة لماذا .. إنها مستسلمة للسعادة الحقيقية .. وهى عنيفة فى البحث عن حقيقة السعادة ولكنها بعد أن تجدها تستسلم لها .. والسعادة الحقيقية فى نظرها هى سعادة النفس .. أن تحس بالراحة والهدوء والأمان .. ليست السعادة هى سعادة المظهر .. ليست فى أن تلبس من عند كريستيان ديور أو تركب سيارة مرسيدس ، أو تتزوج مليونيرا إنما هى أن تعيش اللحظة السعيدة مطمئنة إليها متمسكة بها .. وقد أشركتنى صديقاتى هناك فى هذه اللحظة السعيدة .. ربما كانت مصر هى المجتمع الوحيد الذى أحس فيه بحقيقة الصداقة .. إنى هناك لا أحس بأنى غريبة وأنى كويتية لأن صديقاتى لا يشعرن بى ككويتية ولكن كواحدة منهن .. بعكس ما أشعر به فى أى بلد آخر حيث لا أستطيع أن أنسى أبدا أنى كويتية لأن كل من ألتقى به يعاملنى ككويتية وينظر إلى كأنى برميل بترول .. لا شىء غير برميل بترول .. وكل ما يقدم من اهتمام ومجاملات وعطاءات إنما يقدم للبرميل لا لى .. أما فى مصر .. فأنا فضيلة ولست برميل بترول يحاول أن يستنزفه كل من يقترب منى .. بل إنى أصبحت أتعمد كلما زرت مصر أن أحمل هدايا أكثر من الهدايا التى أحملها لأى بلد آخر .. لا لشىء إلا أن صديقاتى هناك لا يحاولن معى شيئا

لاستنزاف أموالي ، ويفرحن بالهدايا التي أقدمها لهن فرحة حقيقية وليست فرحة مجاملة تخفي وراءها خطة للاستيلاء على هدية أكبر .. وعلى كل حال .. من يدرى .. ربما كان هذا لأني كنت موفقة في اختيار صديقاتي المصريات .. فإن من الخطأ أن نطلق حكما عاما على شعب حتى ولو كان حكما في صالحه .. لا أستطيع أن أقول إن كل نساء مصر طيبات كما لا أستطيع أن أقول أن كل نساء الكويت ذكيات ..

وفي العام الثالث من دراستي في القاهرة مر والدى على بعد انتهاء الامتحان وصحبني معه إلى لندن لقضاء أجازة الصيف هناك .. بلد جديد أراه وأعيش فيه ، وقررت أن أراه كله وأعيش فيه كله ، واستطعت أن أقنع والدى بأن أنقل دراستي من القاهرة إلى لندن .

وعشت عامين في انجلترا ..

إن الحرية هنا لها طعم آخر .. إني أحس كأني أعيش داخل كتاب باللغة الإنجليزية أحاول أن أترجمه إلى اللغة العربية .. حياة لا أعيشها ولكني أتفرج عليها كأني أشاهد مسرحية أو فيلما سينمائيا وأنا بين مقاعد المتفرجين .. وقد أحاول أن أتفرج على كل شيء حتى على الشبان الإنجليز .. وكانت زميلاتي في مدرسة « ميل فيلد » وهي في ضاحية بعيدة عن لندن ، يدعونني لقضاء أجازة يومي السبت والأحد في بيت العائلة وأحيانا في لندن .. وكان لكل منهن أخ أو صديق تقدمه إلى ويحاول معي ، وأحيانا أحاول أنا معه ، وهي دائما محاولات باردة ، علمية واقعية ، كان لا فرق بين أن يدخل معي إلى السينما أو يدخل معي إلى الفراش .. ولم أسمح أبدا لنفسي أو لاحد باجتماع

فراش ، لم يمسسنى أحد .. كل ما هناك أنى كنت قد تعلمت الرقص وأصبح كل ما أسمح به هو هذه اللمسات التى لا أستطيع أن أفر منها أثناء الرقص .. ذراعه حول خصرى ، وخده فوق خدى ، وشفتاه تتجرآن أحيانا على شفتى .. لا شيء أكثر .. وبجانب الرقص تعلمت أن أشرب البيرة وأنواعا خفيفة من الكوكتيل وتعلمت أن أعيش الليل كله فى مرح .. وقد تعودت طوال مدة إقامتى فى لندن ألا أرفع الكلفة وألا أمرح إلا مع الشبان الأجانب ، ومعظمهم من الإنجليز وتعرفت مرة إلى شاب ألمانى ، ومرة إلى شاب أسبانى ، ومرة إلى شاب جريكى .. مجرد تعارف ساعات لهو .. أما إذا التقيت بشاب عربى سواء كان كويتيا أو لم يكن ، فإنى أعود فورا إلى شخصيتى الرافضة التى لا تسمح لأى شاب ولا بلمسة يد ، لا لأنى كنت أخاف الفضيحة .. إنى لا أخاف أبدا .. ولكن لأن هذا كان التأثير الطبيعى لانعكاس شخصية أى شاب عربى على شخصيتى ..

وفى لندن بدأت أحس بنفسى لأول مرة كبرميل بترول وأحس بمعاملة الناس لى كبرميل بترول .. وكان والدى قد حدثنى طويلا عن مطامع الناس الغرباء فينا .. فى ثرائنا وأموالنا .. ولكنى لم أحس بهذه المطامع إلا بعد أن أصبحت فى لندن .. إن كل شاب يصحبنى أحس كأنه ينتظر أن أدفع أنا الحساب ، أو ينتظر هدية ثمينة منى فى كل لقاء .. وزميلاتى أيضا كل منهن فى انتظار صفقة مالية يخرجن بها من صداقتى .. وحتى المدرسات يطلبن منى المساهمة فى مشروعات مدرسية وفى أعمال خيرية لا يطلبن من غيرى المساهمة فيها وكل منهن فى انتظار هدية فى كل مناسبة .. وقد كنت أطوف كثيرا

بالحوانيت .. أنا من هواة شراء الملابس والحلي وخصوصا شراء العطور فإذا اكتشف صاحب المحل أني من بلد بترول رفع السعر ، وإذا كانت معي إحدى زميلاتي تحايلت حتى أشترى لها أو أدفع لها ثمن ما تشتريه .. إن بنات البترول لهن في نظر العالم كله شخصية قائمة بذاتها عن باقي شخصيات بنات العالم كله حتى البنات العربيات .. فشخصية بنات البترول تختلف عن شخصية بنات مصر أو سوريا أو لبنان رغم أن كلهن بنات عربيات .. ولكن .. إن أمريكا أيضا دولة بترولية فهل يتعامل العالم مع بنات أمريكا كما يتعامل معي .. لا أظن .. إن بنات أمريكا يتهمن بالغنى وربما يطمع فيهن الشبان أكثر مما يطمعون في بنات إيطاليا مثلا ، ولكن ليس كل ما في أمريكا هو البترول .. ثراؤها هو ثراء حضارى .. لذلك لا يقدر العالم بنات أمريكا كما يقدر بنات البترول العربى ، إن العالم يفترض فيهن الجهل والتأخر الحضارى ..

هذا الإحساس بأن كل قيمتي هو أني برميل بترول جعلني أنقلب إلى شخصية عكسية .. شخصية حذرة في التعامل مع الناس إلى حد أنه أصبح من السهل اتهامي بأني بخيلة .. وكان هذا الحذر يدفعني أحيانا إلى نوع من الحرص الغبى ، وأذكر أني في مرة ركبت إحدى سيارات الأجرة وعندما حاسبت السائق طالبني بمبلغ أكثر مما سجله العداد .. كان يطلب شلنا واحدا .. ولكن يجب أن أثبت له أن بنات البترول .. لسن مغفلات فأعطيته ستة بنسات .. نصف شلن .. وإذا به يلقى النقود كلها في وجهي وينطلق يسب ويشتم بألفاظ أحمد الله أن لغتى الإنجليزية كانت لا تزال ضعيفة فلم أفهمها كلها .. واضطررت أن

أعطيه بدلا من الشلن جنيها استرلينيا كاملا .. وقد عرفت بعد ذلك أن الرجل لم يطالب بأكثر من حقه فكل من يركب تاكسى هناك يدفع للسائق شلنا فرق ما سجله العداد .. ومع ذلك فإنى لا أعترف باتهامى بالبخل .. إنى فى حالات كثيرة كنت كريمة .. كريمة جدا .. ولكنى كنت أقدر كرمى حسب ما يقابله من احتياجاتى ومع الأسلوب الذى يعاملنى به من يستحق هذا الكرم ..

ولم تكن حياتى فى لندن كلها لهوا ومتعة .. كانت تنتابنى حالات انعزالية طويلة أحبس خلالها نفسى فى حجرتى وأعطى كل نفسى لسماع الأسطوانات .. أغان عربية وأغان أفرنجية .. لقد بدأت أتذوق الأغانى الأفرنجية وأجيد ترديد بعضها .. وكنت أبحث عما يأخذنى من نفسى لا عما يفيدنى .. وطبعا كان أكثر ما يأخذنى من نفسى هو قراءة القصص .. والأغانى والقصص أفادتنى كثيرا فى تقوية لغتى الإنجليزية مع مرور السنين .. إنى اليوم أتكلمها بطلاقة .. ولكنى لا أتكلمها بهدف ، أى لا أجرى بها وراء شىء مفيد من العلم أو من الاطلاع ولكن فقط أسلى بها نفسى وأتظاهر بها فى المجتمعات التى تحيط بى .. وكنت فى لندن أتعرض أيضا لكثير من نوبات البكاء .. أبكى طويلا دون أن أكون قد تعرضت لشىء يبكينى ، إنما أبكى شيئا فى داخلى .. الفراغ .. الضياع .. الحيرة .. لا أدرى لماذا أبكى كل هذا البكاء .. ربما لأنه لا ينقصنى شىء .. إنى أستطيع أن أشترى كل شىء .. أشترى الدنيا كلها .. ولكن هناك شيئا ينقصنى .. ينقصنى الجنس .. أن أقلب هذه الفتاة التى هى أنا إلى امرأة كاملة ..

ولم تكن عقليتى تسمح لى بأن أجعل من نفسى امرأة إلا إذا

تزوجت ..

ولم يكن الزواج بالنسبة لى مغامرة ، أو قصة ، إنما هو مجرد إجراء نتيجة مجموعة من الحسابات ..

ولم أكن قد أتممت السادسة عشرة من عمرى عندما تزوجت ..

تركت العلم وتركت كل أحلام الشباب وتركت لندن وعدت إلى الكويت وتزوجت .. وكان المجتمع الكويتى قد بدأ أيامها يعانى أزمة الزواج ، فالرجال الذين أفسدهم البترول يفضلون الزواج من الأجنبيات وخصوصا من بنات سوريا ولبنان ، ويتجاهلون بنات البلد يتركونهن للحرمان والضياع والتهتك ، حتى من تتزوج منهن تنتظر أن يسافر زوجها فى العام التالى ويعود ومعه عشرون حقيبة من البضائع بينها زوجة مشتراه من الخارج .. ولكن هذه الأزمة لم تكن تمسنى .. لست من أكثر بنات الكويت جمالا ولا أكثرهن إغراء بالعكس كان المعروف عنى أنى أتعبهن وأكثرهن جرأة على تحدى كل شىء ، ولكنى ابنة هذه العائلة .. ومن أجل عائلتى كان الخطاب يتهافتون على أبى .. ربما لم يكونوا يتهافتون على أنا شخصيا ولكن تهافتهم على أبى كان يكفى ..

واخترت سالم من بين كل من تقدموا إلى ..

أنا التى اخترته ..

وقد اخترته لأنى كنت أتطلع إليه من صغرى .. إنه ليس من أكثر الرجال وسامة فى شكله ولكن وسامته كانت فى شخصيته .. وهو هادىء دائما لا يتكلم كثيرا وإذا تكلم أقنعنى بسرعة وأحسست أن فى كلامه حكمة ، ثم إنه منذ صغرى عودنى على أن يحتملنى .. كان

يضحك لشقاوتى وجرأتى ووقاحتى ولا ينفر منها .. وكان يخيل إلى أنه ينتظرنى كزوجة ، لقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره دون أن يتزوج وهو نادرا ما يحدث بين رجال الكويت .

.. لابد أنه كان ينتظرنى إلى أن أنضج وأرضى به زوجا ..

ومنذ الليلة الأولى صدمت بخيبة أمل فيه ..

لقد أقبل على فوق سرير العروس بلا أى مقدمات كأنه يؤدى عملية عادية لا تتطلب جهدا خاصا .. كأنه يضغط على جهاز كمبيوتر ليصل إلى النتيجة التى قدرها مقدما .. كأنه مقبل على مائدة العشاء ليملأ بطنه وينتهى .. ورفضت .. رفضت أن يكون هذا هو الجنس .. هذا هو كل ما بين الرجل والمرأة عندما يضمهما فراش .. إن متعة لحظة يمكن أن تكون متعة ساعة ، ومتعة ساعة يمكن أن تكون متعة يوم ، ومتعة يوم يمكن أن تكون متعة شهر .. وأنا لا أريد أن أنتهى من متعتى فى لحظة .. وأنا لست جاهلة بحقيقة المتعة بعد كل ما تعلمته فى لندن وأريد أن أستغلها .. ورفضته فى أول ليلة .. لم أرفضه ولكنى آثرت معه صراعا مثيرا مسليا استمر حتى الصباح دون أن أتركه يصل إلى .. وهو دهش .. لا يستطيع أن يفهم وكل ما هناك أنه يتحمل ويحاول .. وفى الليلة الثانية .. والثالثة .. الرابعة .. كأنى شهر زاد تتسلى بإثارة شهريار .. إلى أن استسلمت له فى الليلة الخامسة وأصبحت من تحته امرأة .. يا زوجى العزيز هكذا يجب أن يكون كل شىء ، على الأقل لنملأ أوقات الفراغ ولكن مع مرور الأيام والشهور اكتشفت أن الجنس وحده لا يكفى ليقضى على أوقات الفراغ حتى لو بقيت أرقص لزوجى طول الليل والنهار .. إن الاكتفاء بأى شىء ينتهى بالملل .. وقد كان

المفروض أن أملأ فراغى بعد ذلك بإنجاب الأولاد .. بأن أكون أما .. إن تسعين في المائة ينجبن لمجرد ملء أوقات الفراغ وأنا لا أريد أن أكون واحدة من تسعين لا أريد أن أكون امرأة عادية ومجرد فرخة تبيض .. كان هذا في خاطرى منذ أن قررت الزواج فتعمدت أن أمنع نفسى عن الحمل ، وعندما اعترض سالم وثار قلت له إن من حقى أن أتمتع بنفسى كزوجة قبل أن أنتقل إلى متعتي بنفسى كأم .. وأنا لا زلت صغيرة .. وأنا أحب الأطفال كما أني أحب أن أكون امرأة عادية ومجرد فرخة تبيض ولكنى لا أستطيع أن أملأ حياتي حتى بلا أطفال .

ولكن كيف ..

إن سالم نفسه فارغ .. إنه ثرى ثراء عائلته وكل ما يضيفه هو مجرد تعليق اسمه على الشركات والمشروعات التجارية التى تفد على الكويت .. أن يعمل كفيلا لبعض التجار الأجانب بحكم قانون الكفالة .. مجرد تعليق اسمه . وهو رئيس مجلس إدارة لشركة ، وعضو مجلس إدارة في شركة أخرى .. أيضا مجرد تعليق اسمه .. فراغ من المخاطرة بأمواله ، والمجازفة بقيمته ليثبت قدرته .. إنه لا يعيش حلاوة الرزق كما كان يعيش أجداده .. يبحر على مركب يصنعها بيديه ويجدف عليها بذراعيه ويصل بها إلى جزر أقصى المحيط ليعود بشيء جديد مما اكتشفه من الكنوز .. إنه واحد من الذين لا يصنعون الرزق ولكنهم يتلقونه .. يتلقونه من آبار البترول ويتلقونه على أيدى التجار الأجانب ..

وضقت بالفراغ .. والفراغ يضطرنى أن أكون امرأة عادية فاستسلمت لغريزة أمومتي وأنجبت ابنى حازم .. ولكن حتى ابنى لم

يستطع أن يملأ فراغي .. إن حوله مربية ، وثلاث جوار في خدمته ، وأطفالا يستأجرون لتسليته واللعب معه .. وأنا أتفرج عليه من بعيد وأعبر له عن أمومتي بقبلة .. مجرد قبلة ..

وفي كل عام نسافر إلى أوربا كما يسافر أهل الكويت .. أقصد أثرياء الكويت فإنه حتى في الكويت يوجد فقراء لا يستطيعون أن يسافروا إلى الخارج في الصيف .. تصوروا .. ولم أكن أستطيع أن أعيش في أوربا مع سالم كما عشتها وحدى وأنا صبية .. إن أوربا مع سالم هي مجال مشتريات ومطاعم وسهرات مكررة مملة ولا شيء آخر .. لا شيء نكتشفه .. لا شيء نغامر فيه .. المغامرة كانت من حقوق سالم وحده .. مغامرات رخيصة .. قمار ونساء .. بل إننا بعد العام الثالث من الزواج كنا عندما نسافر نستأجر فيلا أقيم فيها أنا وحازم والمربيات ، ويقيم هو في فندق ليكون على حريته في لعب القمار والترنح بين النساء .. ولم أكن أهتم .. لم أكن أغار .. إنى لا أحبه .. يبدو أن الزواج لا يصلح لزراعة الحب .. ولكنى لا أكرهه .. إن الزواج يقيم ألفة تحميني من الكراهية .. ثم إني دائما حرة .. زواجى لا يقيدني بشيء .. وسالم المجنون المغرور كأى زوج آخر لا يقدر أني أنا أيضا أستطيع أن أملأ فراغي بلعب القمار واستجلاب الرجال . ولكنى لا أفعل لأني لا أريد .. ليست هذه هي طبيعتى .. والفراغ بقلبى ..

وقد حاولت أن أحيط نفسى بنشاط اجتماعى واسع داخل الكويت .. ولكن كان سالم يصد نفسى عن هذا النشاط فإن المجتمع لا يفتح النفس إلا إذا قام على تبادل الخدمات .. خذ وهات ..

مشروعات ومغامرات وصفقات .. ولكن سالم لا يحس بالمجتمع إلا كمقهى يتردد عليه لمجرد الدردشة .. وحاولت فى فترة أن أقيم حفلات كالأفراح أسلى بها نفسى فأدعو إليها من أعرفهم ، وكنت أرسل فى طلب أشهر الفنانين والموسيقيين من مصر ومن لبنان .. ولكنى بدأت أحس كأنى أصبحت متعهدة حفلات أقيمها ليتسلى الناس دون أن يدفعوا أجرا ، وأنا لا أخرج بشىء سوى لحظات أشغل بها وقتى .. وحاولت .. وحاولت .. ثم استسلمت لطبيعة المرأة الضعيفة التى تملأ فراغها بأمومتها فأنجبت ابنتى صابحة ..

ثم لم أعد أطيق ..

مرت سبع سنوات منذ تزوجت ..

هذا يكفى ..

وقلت لزوجى سالم وأنا مازلت أقدره وأحترمه وأحبه هذا النوع من الحب :

ـــ سالم .. لننفصل ..

وقال سالم فى دهشة هادئة :

ـــ لماذا ؟

قلت وأنا أرجوه فى نظرة توسل لم يتعودها :

ـــ لا سبب .. أنت لم تخطىء فى حقى وأنا لم أخطىء فى حقك .. ولكنى أريد أن أحاول حياة أخرى ..

قال :

ـــ طول عمرك مجنونة ..

قلت وأنا أبتسم له :

ـ عيك أنك لست مجنونا ..

قال :

ـ وهل وجدت المجنون ..

قلت :

ـ صدقني لا .. إنى أتركك لأبقى وحدى ..

وسكت سالم ..

والذى ثار هو أبى ، ولكنه هو الآخر استسلم لجنونى .. والطلاق بين العائلات الكبيرة فى الكويت سهل .. إن كل شىء سهل بما فيه الطلاق ..

وقد طلقت ..

وبدأت قصتى ..

حتى الآن لم تكن قصتى قد بدأت ..

— ٢ —

ربما مرت بى أيام ندمت فيها على أنى أصررت على الطلاق من زوجى سالم فقد فوجئت بأن الفراغ قد اتسع حولى .. فراغ خارج البيت وفراغ داخل البيت .. وكان يمكن أن أبدأ التفكير فى شغل فراغى بأن أبدأ البحث عن زواج جديد .. ولكن لا .. إن أى زوج سيكون كسابقه وسأعانى ما عانيته ، فإن أى رجل لا يرانى إلا فى صورة واحدة .. صورة ابنة العائلة الكبيرة وابنة البترول .. لن أتزوج مرة أخرى إلا بعد أن أثبت شخصيتى الذاتية .. أن أكون شيئا قائما بذاتى بعيدا عن العائلة الكبيرة وعن البترول ..

وقد فكرت فى هذه الفترة وحتى أثبت شخصيتى أن أعمل بالتجارة باسمى .. أى أن أفتح مكتبا تجاريا أو أنشىء شركة .. فكرت فى أن أحتكر جميع الواردات النسائية التى تصل إلى الكويت ، وبدأت فعلا فى دراسة عدة مشروعات ، ولكنى ترددت كثيرا قبل أن أبدأ العمل فعلا وقبل أن أتصل بأى شركة من الشركات الخارجية .. إنى لا أريد أن أتحمل العمل بنفسى .. هذه ليست شخصية المرأة الكويتية .. ليست شخصية جدتى وجدة جدتى .. لم تكن جدتى تخرج مع الرجل إلى البحر لتتاجر أو تصطاد اللؤلؤ ولم نسمع عن امرأة كويتية كانت تقود معارك القراصنة .. إن المرأة عندنا مسئولة عن تدبير الحياة

لا العمل .. الرجل يعمل والمرأة تتحمل مسئولية حياته ومسئولية تدبير نتاج عمله .. لذلك لم أكن متحمسة كثيرا لأن أتاجر باسمي أو أن أكون صاحبة شركة ، ولا حتى مساهمة في شركة .

وفكرت في أن أكون صاحبة منتدى أدبي .. أن أقيم في المجتمع الكويتي ندوة أسبوعية داخل بيتي أدعو إليها المستوى الراقي من الشعراء والأدباء والسياسيين ، تناقش الموضوعات الأدبية والسياسية مناقشة حرة نظيفة بعيدة عن الرشاوى التي تعودت الشخصيات الكويتية أن تدفعها للصحفيين والأدباء والسياسيين أيضا لينشروا قصائد المديح أو على الأقل ليشتروا سكوتهم .. ندوة كالتي اشتهرت بها هدى شعراوي والأديبة مي وفاطمة اليوسف في تاريخ مصر ، وجورج صاند في تاريخ فرنسا .. يجب أن أسجل في تاريخ الكويت أيضا ندوة أدبية وسياسية تحمل فضيلة .. اسمي .. ولكني كنت أيامها ساخطة على المجتمع الكويتي كله ، والمجتمع يبادلني السخط خصوصا بعد طلاقي من زوجي سالم .. كان المجتمع ينظر إلي ويعاملني على أني امرأة عجيبة .. شاذة .. ربما كان هذا هو نصيب العباقرة .. إنهم مجانين بين أهلهم إلى أن يعترف بعبقريتهم الجيل الذي يأتي بعدهم ..

وكل ما وصلت إليه لأتغلب على فراغي هو السفر إلى الخارج .. أصبحت أقضي أكثر من ستة شهور كل عام خارج الكويت .. أسبانيا .. إيطاليا .. إسكندينافيا .. أمريكا .. اليابان .. كندا .. و .. و .. وفي كل بلد لا أشعر بنفسي إلا كبرميل بترول .. وكل من حولي يعاملني كبرميل بترول .. أنفق وأدفع بسخاء ولكن ليس بغباء فإني لا أريد أبدا شخصية أهل الكويت الأذكياء عندما يدفعون .. بهدود

الخليج .. وكل ما كنت أتمتع به خلال هذه الرحلات هو الحركة نفسها .. مجرد الحركة والانتقال من بلد لبلد وركوب الطائرة والنزول من الطائرة ، والتباهى بأنى أطوف العالم حتى لو لم أر من العالم ما يستحق أن أتباهى به ..

إلى أن التقيت بغسان ..

إن غسان هو قصة حياتى كلها ..

لم يكن سوى عامل فى محل « لا موديل » بشارع الحمراء ، وعرفته وهو يتقدم إلى ليخدمنى داخل المحل .. وهو وسيم ، وبصراحة أكثر فهو جميل وإن كان الجمال ليس صفة يوصف بها الرجل .. ولا أدرى لماذا يعطى الرجال أنفسهم حق الانبهار بجمال المرأة ، ولا يعطون المرأة حق الانبهار بجمال الرجل .. وقد بهرت بجمال غسان .. مجرد رجل جميل دون أن يهمنى قيمة هذا الرجل غير جماله ، تماما كما يرى الرجل امرأة جميلة فى الشارع ويجرى وراءها وربما يدفع عمره ثمنا دون أن يسأل عن قيمتها الاجتماعية .. ولكن غسان كانت له يومها قيمة أخرى غير جماله .. قيمته فى الأسلوب الذى يعرض به بضاعته ورنة صوته المهذبة .. وقد كنت أشترى يومها ثوبا ، ودخلت إلى الحجرة المخصصة للقياس ودخلت معى إحدى عاملات المحل ولكنى بعد أن بدلت الثوب ولبست الجديد طلبت من العاملة أن تستدعى غسان ليقول رأيه .. وجاء غسان وأنا واقفة أمام المرآة أتظاهر باستعراض ثوبى فى الوقت الذى كنت أركز كل عينى على صورة غسان المنعكسة أمامى على المرآة .. وربما تعمدت يومها أن أظهر له مفاتن جسدى فإنى أعترف أن جسدى

أجمل من وجهي .. ولا أدرى ما الذى يدفعنى إلى هذه المحاولة .. محاولة إغراء غسان .. ربما كان ذلك نتيجة الحرمان الطويل الذى مر بى بعد طلاقى والذى كان نقطة ضعفى أمام غسان .. ولم يبد على غسان أنه تأثر بجمال قوامى ، بل إن لمساته وهو ينظم الثوب الذى أجربه لمسات سريعة عابرة ليس فيها تحريض ولا أى دعوة لى كما تعود الرجال المختصون بتجهيز ثياب النساء أو كما تعود حلاقو شعوز النساء .. ربما لا يعرف من أنا .. وكدت أقول له من أنا حتى أغريه بأن يعطينى أكثر من اهتمامه .. ولكنى عدت وحمدت الله على أنه لا يعرفنى ، فهو على الأقل لا يعاملنى كبرميل بترول .. واطمأننت له أكثر .. واشتريت يومها خمسة أثواب .. كشفت نفسى .. فإن هذا العدد من الأثواب لا يمكن أن تشتريه إلا امرأة داخل برميل بترول .. وكانت الثياب كلها فى حاجة إلى إصلاح .. فطلبت منه أن يحملها إلى بنفسه فى الفندق بعد إصلاحها ، وقلت له :

ـــ إنى أثق فى ذوقك .. واسترحت لك .. وأفضل أن تكون حاضرا ..

وقال كأنه اكتشف من أنا :

ـــ هذا يشرفنى ..

وسار معى حتى ركبت سيارتى الكاديلاك ، ووقف يتبعنى بعينيه كأنه يبحث عن الطريق إلى ..

ولأول مرة بعد شهور طويلة أدخل فراشى لأنام وفى خيالى وإحساسى رجل واحد هو غسان .. وقضيت الليل وأنا أستسخف نفسى وأقاوم نفسى .. إنى لست تافهة إلى حد أن أريد شابا يعمل عاملا

فى محل تجارى .. ثم ما هى قيمة هذا الشاب .. إنى أستطيع أن أشتريه ببضعة دولارات . أشتريه ليلة أو ليلتين كما يفعل أى رجل عندما يشترى مومس .. وأنا لست من هذا النوع .. إنى أرفض أن أكون من هذاالنوع .

وفى اليوم التالى جاء غسان إلى الفندق يحمل الأثواب ..

وعدت أنظر إليه ..

إنى ما زلت مبهورة به ..

لماذا لا أمتع نفسى به .. ماذا سأخسر .. إن المرأة تحتاج أحيانا إلى الرجل كمجرد سياحة ، وكما تجوب فى داخل بلد للمعرفة والتجربة والتسلية فقد تجوب أيضا لنفس الأسباب في داخل رجل .. وبدأت نظراتى إليه تحرضه على ، وبدأ يفهم ما أريده منه ، وبدأ يلبى مطالبى برفق .. همسة همسة وخطوة خطوة .. إنه أذكى من أن يلقى بنفسه مرة واحدة إنما يتعمد التخطيط ، وقد بدأ هذا التخطيط يظهر فى لمسات أصابعه فوق جسدى وهو يقيس لى الثوب ، وفى ابتسامة تحمل معنى جديدا بين شفتيه ، وفى المواضيع التى يختارها لحديثه ونحن واقفان أمام المرآة .. إنه يتحدث عن جمال ضواحي لبنان وعن هدوئها وعن قصص الغرام التى شهدتها ، كأنه يدعوني إلى قصة من هذه القصص ، وقلت له ونحن نتناول الشاى بعد أن انتهى من قياس الثياب :

— إنك خبير فى أزياء النساء .. إنك رائع .. هل كنت طول عمرك خبير أزياء ..

وقال وعلى شفتيه ابتسامة كأنه يسخر بها من نفسه :

ــ أبدا .. لقد بدأت العمل فى بيوت الأزياء منذ عامين فقط .. قبلها كنت أعمل فى تجارة السيارات .. وقبلها كنت أعمل فى صناعة أعواد الكبريت فى نيجيريا .. وقبلها عملت شهورا فى السعودية ..

قلت :

ــ إن حياتك أوسع من عمرك ..

قال ساخرا :

ــ إن عمرى حتى الآن سلسلة من الفشل .. أيامى كلها أحلام لا تتحقق ..

قلت كأنى أتقدم لإنقاذ شهيد الأحلام :

ــ ما هى أحلامك ..

قال :

ــ النجاح .. إنى أستطيع أن أعمل فى أى شىء نظيف ، لا يهمنى نوع العمل ولكن تهمنى نتيجة العمل .. والناتج حتى الآن لا شىء .. إنى مجرد إنسان عادى .

ونقلتنى أحلام غسان إلى أحلامى .. إلى تصورى بأن أكون المرأة التى تدبر الحياة للرجل .. المرأة التى تترك رجلها يعمل وتأخذ هى نتائج عمله لتخلق الحياة .. أن يعود القرصان بغنائمه وتتولى المرأة التصرف فى مصيرها ..

ولكن ..

هل يمكن أن يكون غسان رجلى ..

لقد جاء إلى الفندق فى الليلة التالية بناء على طلبى وبحجة عرض كتالوجات للأزياء .. وكنا قد أصبحنا أكثر تقاربا رغم أنه لم يكن قد

مضى على تعارفنا سوى يومين .. وقد أصبح يشدنى إليه بجانب جماله حلمى فى أن أحقق له حلمه .. وجلس ملتصقا بى وكتفه فى كتفى وهو يعرض على الكتالوج ، وقلت وأنا أشير إلى إحدى الصفحات :

ـ أريد هذا الثوب ..

قال وهو يأخذنى بكل عينيه وشفتاه تتطلعان إلى شفتى :

ـ تستطيع أن نطلبه من باريس ..

قلت وأنا أدعى الحياء وكلى رغبة فى الارتماء فوق صدره :

ـ لسنا فى حاجة إلى طلبه من هنا .. إنى مسافرة إلى باريس بعد أيام وأدعوك معى بصفتك خبيرا فى الأزياء .

قال وهو يزداد التصاقا بى :

ـ إنى أقبل دعوتك ولكن ليس بصفتى خبير أزياء ..

قلت :

ـ إنى أدعوك بأى صفة تريدها ..

قال وهو يمد ذراعه فوق كتفى :

ـ ليس لأى منا صفة .. فضيلة تدعو غسان .. وغسان يتمنى أن تدعوه فضيلة ..

وشفتاه تبحلقان فى شفتى .. إن نقطة الضعف فى شفاه الرجل .. أكثر ما يثيرنى فى الرجل شفتاه وأكثر ما أشتهيه هى القبلات .. وقد كان أكثر ما أعانيه من زوجى سالم أنه لا يؤمن بالقبلات ولا يحتاج إليها ، وكنت إذا حرضته عليها افتعلها افتعالا .. فانهرت أمام شفتى غسان .. إنى أريد الآن كل شىء .. إنه أول رجل يتعامل مع جسدى بعد زوجى .. ولكنى لست وحدى فى الجناح الذى أقيم فيه

بالفندق .. إن معى ابنى حازم وابنتى صابحة والمربيات .. وقلت لغسان وأنفاسى تتهدج :

— لا أستطيع .. إننا لسنا وحدنا ..

وقام وشدنى من ذراعى قائلا وشفتاه تنادى شفتى بابتسامة حلوة :

— تعالى .. لعلنا نهدأ فى الجبل ..

وخرجت معه من الفندق بجانبه في سيارته الصغيرة الكالحة المسكينة كأولاد الفقراء .. ولم أنتبه ساعتها إلا أنى أثرت دهشة بواب الفندق وسائق سيارتى الذى كان واقفا على الرصيف .. وانطلق بى إلى الجبل فى طريق بلدة عاليا ، وأخذنى إلى فندق متواضع بعيدا عن الشارع العام ..

أخذنى كلى ..

وأخذته كله ..

وأصبحت كلى حياتى لغسان ، وبدأت أعد نفسى للسفر معه إلى باريس ، وكان المفروض أن أصحب معى ابنى وابنتى ولكنى عدلت وأعدتهما مع المربيات إلى الكويت حتى أكون وحدى مع غسان ، وقد بدأت وأنا فى بيروت أخفى حياتى الجديدة عن الناس فلم يعد يأتى إلى فى الفندق ، بل أصبحت أذهب إليه فى فندق يختاره فى الجبل وكل ليلة فى فندق جديد .. وكان هو الذى يدفع إيجار هذا الفندق دون أن يطالبنى بشىء ، ولكنى كنت فى كل صباح أجوب فى الأسواق وأنتقى له هدية أقدمها إليه فى الليل .. هدية غالية .. أغلى مما كانت تتحمل طبيعتى الحريصة الحذرة ولا أقول البخيلة .. وقبل موعد سفرنا بيومين قال لى ونحن مستلقيان فى راحة الفراش :

ـــ هل تستطيعين أن تشترى مجموعة أخرى من بضائع لا موديل ..

قلت في دهشة :

ـــ لماذا ؟

قال :

ـــ بصراحة لأنى أريد أن أحصل على مبلغ العمولة قبل السفر ..

قلت :

ـــ أنت لست فى حاجة إلى شيء للسفر .. أنت مدعو ..

قال وشفتاه تهتزان أمامى بكل إغرائهما :

ـــ دعينى أتحدث إليك كرجل أعمال .. إنى أريد أن أكسب ثقة صاحب المحل لأنى سأحاول فى باريس أن أحصل على توكيل أتعامل به معه .. فإذا حققت له صفقة أخرى معك كان هذا كافيا لثقته بل قد يقبل أن يجعلنى شريكا له .. أنت لا تعرفين كم كسب منك فى الصفقة الأولى ..

ونظرت إليه كأنى أقدر ثمن شفتيه وقلت ضاحكة :

ـــ سأعطيك .. وتصرف .. ولكنى لست فى حاجة إلى ثياب أخرى من لا موديل ..

وأعطيته ألفى دولار وقال :

ـــ سأقدم لك كشف حساب ..

قلت وأنا أختبيء بين ذراعيه كأنى أتذوق البضاعة التى دفعت ثمنها :

ـــ لا .. قبلنى ..

وسافرنا بعد أيام إلى باريس وأقمنا في فندق جورج سانك .. هذا خطأ فإن كل الشخصيات العربية تقيم في هذا الفندق ، ولكني لم أكن أعرف غيره وغسان كان فرحا لأنه لأول مرة في حياته سيقيم في مثل هذا الفندق وتعمدت طبعا ألا أظهر معه .. كانت له غرفة بعيدة عن الجناح الذى تعودت أن أقيم في مثله .. وقد استقبلت السفير وكثيرا من الأصدقاء في جناحي وغسان ليس معي فلم نكن نتقابل في الفندق ، ولكن لقاءنا دائما في الخارج ، وفي الليل يتسلل من غرفته إلى غرفتي ..

وبعد يومين سافرنا إلى قمة جبال تطل على ساحل الريفيرا وفوقها قلعة قديمة حولت إلى فندق في منطقة اسمها « كاستلاراس » .. كان غسان هو الذى اكتشف هذا المكان من النشرات السياحية التي يطلع عليها .. إنه مكان لا يعرفه السواح العرب ، بل لا يعرفه إلا قلة من المليونيرات العجائز الذين يبحثون عن الهدوء كله ، بعد أن لم تعد لهم متعة إلا متعة مشاهدة جمال الطبيعة .. وعشنا في الجنة .

لقد أدمنت غسان .

أدمنته ..

هذا الإدمان جعلني أفكر في مستقبلي معه .. هل هو يحبني حقا كما تعبر لمساته .. ومن أنا بالنسبة له .. هل أنا امرأة يريدها العمر كله ، أم أنا برميل بترول يستنزف ما فيه من دولارات .. إني لا أستطيع أن أبني مستقبلي وأن أحقق أحلامي وأنا مجرد برميل بترول .. إن جدتي لم تكن تدفع للرجل هو الذى كان يدفع لها .. ويجب أن أختبر غسان .. يجب أن أتأكد من نوع حبه .. يجب أن أجعل منه رجلا

يعطيني لا مجرد رجل أشتريه ..

وقضينا في الجنة عشرة أيام ..

أمتع عشرة أيام في عمرى إلى اليوم ..

وعدنا إلى باريس ، وانفصلنا كل منا في حجرة ، وجاء السفير لزيارتي وبعد أن انصرف دعوت غسان إلى حجرتي رغم أننا اتفقنا على ألا يدخل الغرفة في النهار واستقبلته في هلع مفتعل وقلت له كأني جننت :

ــ لقد عرفوا كل شيء .. عرفوا كل شيء .. انتهينا يا غسان ..

وقال في تعجب ودهشة وهو يأخذني بين ذراعيه ليهدىء من جنوني :

ــ عرفوا ماذا ومن الذى عرف ..

قلت وأنا أشد شعرى وأبكي :

ــ أهلي .. أبي وأخي .. لقد اتصلوا بالسفير وطلبوا منه أن يرسلني حالا إلى الكويت .. لقد عرفوا حتى اسمك .. والسفارة كانت تبحث عنا في كل فرنسا منذ خمسة أيام ..

قال وهو ينظر إلى في حيرة :

ــ وما العمل ..

قلت صارخة :

ــ لا أدرى . لا أدرى ..

ونظر إلى طويلا كأنه يحاول أن يغوص داخل عقلي وقال بعد تردد :

ــ إننا نستطيع أن نتزوج فيفقدوا حقهم عليك ..

وابتعدت عنه وقلت كأنى أضعه فى الاختبار الأكبر :

ــ هل تعرف ماذا يحدث لو تزوجتك .. إنك غريب وليس من حق بنات العائلة أن يتزوجن من خارج الكويت .. وإذا تزوجت أجنبيا تبرأوا منها وحرموها من كل فلس بل حرموها من الميراث أيضا .. إن رجال الكويت لا يسمحون لأى غريب أن يرثهم أو يحصل على شىء من أموالهم ، وهم يعتقدون أن الذى يتزوج بنتا من بناتهم إنما يتزوج أموالهم ..

وعاد غسان ينظر إلى طويلا كأنه يشك فيما أقوله وشفتاه تنقلبان كأنه قرفان من هذه المصيبة الجديدة ، ثم قال :

ــ ماذا تعنين بكل هذا ..

قلت :

ــ أعنى أننا لو تزوجنا فسنضطر أن نعيش معتمدين على أنفسنا .. وسأحرم من كل ما أعيش به ..

قال :

ــ وهل أنت مستعدة أن تعيشى معتمدة على نفسك وعلى ..

قلت :

ــ إنى سأكون امرأة أخرى غير فضيلة التى عرفتها .. فهل تقبلنى كامرأة أخرى ..

قال وقد ارتاحت ملامحه قليلا :

ــ إننا نستطيع أن نتزوج فى السر حتى لا يحرموك من حقك ..

قلت ضاحكة :

ــ مستحيل .. لا أستطيع .. إنهم يريدون اليوم أن أعود إلى

الكويت وإذا عدت فلن يسمحوا لى بالسفر وحدى مرة ثانية ولن يعطوك حق دخول الكويت ، فما جدوى أن أكون زوجتك فى السر ..

قال وهو يبتسم كأنه أقوى منى :

ـ إذن نتزوج علنا ..

قلت :

ـ وهل تقبلنى امرأة لا تملك شيئا ..

قال وهو يعود ويحتضننى :

ـ إن فضيلة التى أحبها لا تتغير سواء كانت تملك أو لا تملك يكفى أن أملكها وتملكنى ..

وقلبى يرقص فرحا بهذا الكلام الحلو .. يرقص بفرحة النصر .. لقد انتصرت .. أثبت لنفسى أن غسان لا يحبنى لأنى برميل بترول بل لأنى امرأة .. مجرد امرأة .. وقد كان كل ما قلته له كذبا .. مجرد حكاية افتعلتها حتى أجرب قيمة غسان عندما يعلم أنى أصبحت فقيرة ، ثم يقبل أن يعيش معى فقيرة .. كل شيء كان كذبا .. فلم تكن عائلتى قد عرفت شيئا عنى وعن غسان ، ولا اتصل أحد منهم بالسفير ، ولا بحثت السفارة عنا .. كل هذا كان من خيالى .. وصحيح أن عائلات الكويت الكبيرة الغنية لم تكن تسمح لبناتها ـ زمان ـ بأن يتزوجن من أغراب ومن غير مستوى معين من الكويتيين ، ولكنى أنا بما لى من دلالة فى عائلتى كنت أستطيع أن أتزوج من غسان دون أن أحرم من شيء .. ولكنى كذبت .. كذبت حتى أضع غسان فى الحياة التى أريدها وحتى أجعله يعمل ويعطينى لا أن يعيش عالة على أموالى وأموال

عائلتي ..

وفي نفس اليوم .. وغسان يتحرك وكأنه يقامر بكل حياته ويلعب لعبة لا يدرى نهايتها .. أخذنى إلى جامع باريس وجلسنا أمام الشيخ واستدعى لنا اثنين من الشهود وتزوجنا ..

كان عمرى يومها أربعة وعشرين عاما ..

وعمر غسان سبعة وعشرين ..

وبعد إتمام الزواج مباشرة ذهبنا إلى السفارة ووقفت أقدمه إلى السفير :

— زوجى .. غسان رحمى ..

وسقط السفير على مقعده كأنه أغمى عليه ..

وقد أثار خبر زواجى ضجة كبيرة فى مجتمع الكويت وبين أفراد العائلة ، وقدرت أن أبى لا شك غير راض عنى وإن لم أستطع أن أقدر كيف سيتصرف ، كما بدأت صحف لبنان تكتب قصصا غريبة بذيئة عن هذا الزواج ، ولكن لا أحد من أهل الكويت اتصل بى ، ولا من عائلتى ، كما أنه كان من السهل على العائلة إسكات صحف لبنان وقد سكتت فعلا ..

وكنت قد قلت لغسان إن كل ما معى من مال سائل لا يتجاوز عشرين ألف دولار .. وكان هذا كذبا فإن لى فى البنك حسابا مفتوحا بضمان العائلة .. ولم يناقشنى غسان .. استسلم لما قلته فى بساطة وقررنا أن نترك الفندق ونستأجر شقة متواضعة فى حى مونبرناس حتى نوفر من المصروف وحتى نختفى عن الناس ..

ولأول مرة فى حياتى أعيش كزوجة عادية متواضعة فى بيت صغير

أنا المسئولة عنه وحدى .. لا جوارى ولا خدم ولا طباخين ولا سائقين .. أنا المسئولة وحدى .. وضحكت وضحك معى غسان عندما حاولت أن أطبخ طعام العشاء .. إنى لا أعرف شيئا .. لا أعرف حتى مجرد استعمال البوتاجاز .. وكنت أبذل مجهودا كبيرا فى تسوية الفراش وتنظيف البيت ، وكان غسان يعود ليدبر كل شىء من جديد كأنى لم أفعل شيئا لا فى تنظيف البيت ولا فى تسوية الفراش .. وكان غسان يتركنى كل يوم ليبحث عن مستقبل حياتنا .. كان يبحث عن توكيلات من الشركات الكبيرة ، وعن ملامح صفقات .. وأحيانا كان لا يعود إلا فى الساعة الخامسة أو السادسة مساء .. وكنت سعيدة .. لم أكن طول عمرى سعيدة كل هذه السعادة .. إنى أعيش كامرأة لا كبرميل بترول .. والمرأة فى أى وضع من أوضاعها أسعد من البرميل ..

وكنت أسير فى أحد شوارع مونبرناس فى الصباح أشترى علبا من الأكل المحفوظ الذى تعلمت وتعودت الاعتماد عليه فى إعداد الطعام لبيتى ، عندما قابلت عبد الرحمن وهو من أصدقاء العائلة وقبل أن أختفى عن عينه وأهرب منه لحقنى .. وصرخ فى وجهى :

ــ أين أنت .. إن أخاك جابر هنا فى باريس وهو يبحث عنك منذ أيام ..

ولم أهتم بما قاله عبد الرحمن بعد ذلك .. ولم أهتم بكل ما قاله عبد الرحمن بعد ذلك .. إن أخى هنا .. أريد أن أراه حتى أطمئن على ابنى وابنتى وأبى وأمى .. حتى أطمئن على العائلة كلها وعلى مصيرى .. وقد أوحشنى أخى .. إنه الوحيد الذى يفهمنى فى الكويت كلها وهو

دائما يثق بى حتى فى جنونى ، ودائما يرحمنى ..

واتصلت به بالتليفون فى فندق جورج حيث تعود أن يقيم فى باريس .. واستقبل صوتى فى هدوء كأن لا شىء قد حدث لى .. وعندما رجوته أن نلتقى بعيدا عن الفندق وافقنى بلا مناقشة .. وفى مطعم بين أشجار غابة بولونيا التقينا ، وعلى غير عادتى معه ألقيت نفسى فوق صدره وبكيت طويلا .. لقد رأيت فيه ابنى حازم وابنتى صابحة .. وقال بعد أن طمأننى على كل أفراد العائلة وبعد أن سرد وقع خبر زواجى على كل واحد منهم .. كلهم اتهمونى بالجنـون .. وكلهم لم يجدوا عذرا لى أنى امرأة غير طبيعية .. وشاذة ..

وقال أخى وهو يضمنى بابتسامته :

ــ أنا موافق على هذا الزواج .. إنه رجل ليس من مستوانا وهو غريب ولكن ما حدث قد حدث .. وأريد أن أراه اليوم لأبلغه موافقتى على الزواج حتى يعرف أنك لست وحدك وأنك لا زلت فى حمايتنا ..

قلت فى جزع وكأنى أرى كل ما بنيته على وشك أن ينهار :

ــ لا .. لن تراه .. ولن تقول له شيئا ..

وقال أخى جابر فى دهشة :

ــ لماذا ؟

قلت ودموعى تتوسل إليه :

ــ إنك الوحيد الذى تفهمنى فى العائلة كلها .. وأنا أريد أن أعيش مع زوجى غسان وهو متصور أنكم جميعا قد تبرأتم منى وأنكم طردتمونى من العائلة وأنكم أيضا قد قطعتم عنى كل مساعدة .. لم يعد لى حق فى أموال العائلة .. إن زوجى وحده أصبح المسئول عنى ..

هل فهمتنى .. إنى أريد أن أتأكد من أنه يحبنى لشخصى لا طمعا فى أموالى .. يريدنى أنا لا عائلتى ..

وابتسم أخى قائلا :

ــ طول عمرك مجنونة .. ولكنها تجربة لك حق فيها .. لقد زهقنا من أطماع الناس فينا وفى نسائنا .

قلت مرتاحة :

ــ إنها تجربة قصيرة .. بعد أن أتأكد من غسان سأعود به إلى العائلة .. إنى واثقة أن أبى يغفر لى كما غفرت أنت لى ..

قال فى جدية :

ــ ولكن حسابك المفتوح فى البنك سيبقى .. سأتأكد بنفسى أن حسابك مستمر حتى لا تتعرضى لأى حاجة ..

قلت :

ــ إنى لم أفكر أبدا فى الاستغناء عن حساباتى فى البنوك .. ولكنى أخفيت كل شىء عن غسان ..

وتركت أخى على موعد فى صباح اليوم التالى .. لا أستطيع أن ألقاه فى المساء حتى لا أثير شكوك غسان ..

وضحك جابر ضحكة كبيرة قائلا :

ــ لقد تعودت أن ألتقى بنساء كثيرات فى السر .. لم أكن أنتظر أن ألتقى فى السر بأختى أيضا ..

وعدت إلى غسان وأنا أكثر سعادة وأكثر اطمئنانا إلى خطتى ..

وكنت قد تعودت أن يعود إلى غسان وهو منهك متعب الأعصاب ليروى لى كل تفاصيل محاولاته للعثور على توكيل لشركة كبيرة وكل

من قابلهم وكل ما صادفه ، وكنت أحس كأنى جدتى وقد عاد إليها زوجها من البحر يروى لها ما صادفه من قواقع اللؤلؤ ، وكنت أحس بأنى مسئولة معه .. مسئولة عن تدبير الحياة .. إلى أن عاد ليقول لى خلال حديث طويل :

— إنى متأكد أنى أستطيع الحصول على توكيل أزياء كارفن فى كل البلاد العربية .. ولكن حتى أحصل عليه فيجب أن أكون فى ضمانة بنك .. ونحن الاثنان لا نستطيع أن نضع فى البنك أكثر من عشرة آلاف دولار .. لا تكفى .. إننا فى حاجة إلى ثلاثين ألفا على الأقل نضعها فى البنك العربى حتى يضمننا لدى كارفن ..

وفكرت برهة ثم قلت له :

— لماذا لا تعطى التوكيل لصاحب محلات لا موديل ..

قال وهو يلوى شفتيه ازدراء :

— إنى بذلك لن أخرج إلا بعمولة .. إنها فرصتى لكى أصل إلى صفقة كبيرة أستقل بها .. شبعت من أن أكون أجيرا عند لا موديل وقيمة العمولة لا تساوى الجهد الذى بذلته طوال هذه الأيام ..

ثم التفت إلى وقال مبتسما وهو يغرينى بشفتيه :

— فضيلة .. إننا الآن شركة .. أكثر من شركة ، إننا كيان واحد .. وإذا لم يكن معنا سوى العشرة آلاف دولار فإننا نستطيع أن نبيع خاتمك السوليتير .. إنه يساوى أكثر من ثلاثين ألفا .. و ..

ونظرت إلى خاتمى فى فزع .. إنى أحب هذا الخاتم .. إنه هدية زواجى الأول .. وهذا المجنون الجاهل لا يدرى إنه يساوى أكثر من خمسين ألفا لا ثلاثين ألفا ..

وقلت له :

ـــ دعنى أفكر .

قال فى حدة :

ـــ ألا يكفى أن أفكر لك ..

قلت وأنا أنظر إلى شفتيه كأنى أستحلفهما بقبلاتى :

ـــ إن هناك طرقا أخرى لا تعرفها .. فإن لى أصدقاء هنا يمكن أن أقترض منهم بضمان اسم والدى .. مجرد الاسم حتى دون أن يعلم والدى شيئا .. فدعنى أحاول ..

وسكت غسان وأدار لى ظهره ..

وليلتها هجرنى فى الفراش .. ولم أحاول من ناحيتى تحريضه فقد كنت أنا أيضا أفكر ..

وفى صباح اليوم التالى خرجت وحدى وذهبت إلى البنك وسحبت عشرين ألف دولار وعدت إليه لأروى له قصة طويلة كاذبة ادعيت فيها أنى قابلت فلانا وفلانا إلى أن استطعت أخيرا أن أقنع فلانا بأن يقرضنى هذا المبلغ وأنى وقعت له كمبيالة دائنة ..

وفرح غسان ..

طار من الفرح ..

وأعطانى ليلتها كل ما يسعدنى وأكثر ..

وأصبح غسان فعلا وكيل بيت كارفن للأزياء فى دول الخليج ..

وعدنا بالتوكيل إلى بيروت ..

واستقبلتنا بيروت كأنها تستقبل حفلة افتتاح عرض فيلم سينمائى مثير .. لقد أصبحت مشهورة لا كبرميل بترول ولكن كقصة غرام ،

وغسان أصبح مشهورا أيضا كبطل يخطف بسحره النساء .. وقد خرجت بشهرتي وبدأت أغار على غسان من شهرته .. وبدأت الدعوات الاجتماعية تنهال علينا .. لا أريد أن أبدو بقصتي أمام الناس .. ولا أريد أن يتردد اسمي في صحف بيروت حتى لا تدفع عائلتي أكثر لإسكات هذه الصحف .. ولكن غسان أقنعني بأنه في حاجة إلى زبائن لكارفن ، إن كارفن ليس بيت الأزياء الوحيد في بيروت ، والمنافسة عنيفة ، وأهم الوسائل التي تعتمد عليها المنافسة هي العلاقات العامة أي الاتصال بالمجتمع وتلبية الداعوات ، وتوجيه الدعوات ، واضطررت لذلك أن أقبل كثيرا من الدعوات ، وأن أضع ذراعي في ذراع غسان ونواجه مجتمع بيروت ، ولكني كنت أتعمد أن أختار الدعوات بعد أن أتأكد أني لن أجد بين المدعوين أحدا من أهل الكويت ، لا لأني أخاف منهم ولكن حتى أبقي غسان بعيدا عنهم فلا يثيرون أطماعه في أن يحصل على موافقة العائلة على زواجنا .. ولكني بعد قليل اكتشفت أن أصحاب الدعوات لا يستقبلونني لشخصي ولكنهم يستقبلوني كقصة .. قصة برميل البترول الذي اختطفه عامل في محل تجاري .. وبدأت أضيق من هذه الدعوات وألح على غسان حتى نعتذر عن الكثير منها فكان يتركني وحدي ويذهب هو إلى الدعوة معتذرا للداعين بأني مريضة أو بأي عذر آخر وكنت أثور عليه .. كيف يتخلى عني في سبيل هؤلاء الناس ثم ماذا يساوي هو من غيري أمام الناس .. إن كل قيمته هو أنه زوجي ، لم يكن شيئا قبل أن يكون زوجي .. ثم إني لاحظت أن غسان يرفض كل الدعوات التي توجه إلينا من أفراد عائلته هو ومن أصدقائه القدامى .. إنه يتجاهل

أصله .. ولم أر أمه وأباه إلا مرة واحدة ولم أر أخته ولا شقيقه أبدا ، وعندما كنت أسأله عنهم كان يقول لى :

ــ إن من تقاليد عائلتنا أن يكون كل منا فى حاله .. وأنا أتصل بأمى كل يوم وأطمئن عليها وألبى كل طلباتها هل تريدين أن أطلبها لك بالتليفون ..

ولم أكن أريد أن أتحدث مع أمه ولا مع أحد من عائلته وأصدقائه القدامى ولكنى كنت أريد أن أعيش معه .. أعيش الحياة المتواضعة التى يهرب منها غسان ..

وكان غسان قد استأجر لنا منذ وصلنا إلى بيروت شقة واسعة تطل على البحر وأثثها أثاثا فاخرا دفعت أنا كل تكاليفه من حساب الدولارات التى يعرف غسان أنى أحتفظ بها ، وعندما كنت أعترض على كل هذا الإسراف فى تأثيث البيت كان يقول لى ضاحكا :

ــ إن وكيل كارفن يجب أن يعيش فى مستوى كارفن ..

وكان غسان فى حاجة إلى محل يتخذه مكتبا ومعرضا لكارفن .. وهو لا يريد محلا تجاريا على قارعة الطريق ، ولكنه اختار طابقا كاملا فى إحدى عمارات شارع الحمراء إيجاره السنوى خمسون ألفا من الدولارات أى حوالى مائة وخمسين ألف ليرة .. وجاء إلى يطلب خاتمى السوليتير والسوار الماسى ليبيعهما أو يرهنهما حتى يستطيع أن يستأجر هذا المحل .. وقد كنت بينى وبين نفسى مقتنعة بأنى يجب أن أساعده فعلا .. إنه لا يريد المال لنفسه ولكنه يريده ليبنى المشروع الذى يعقد عليه مصيرنا .. إن جدة جدتى كانت لا شك تعطى كل ما تستطيع حتى يبنى المركب التى سيبحر بها لصيد اللؤلؤ أو للتجارة أو

للفرصة .. ولكنى أيضا لا أستطيع أن أضحى بمجوهراتى .. إنى أحبها وتعودت عليها .. إن الماس يحيط بى منذ ولدت .. أصبح كأنه قطعة من شخصيتى ..

وقلت :

— ألا تستطيع أن تقترض بضمان توكيل كارفن ..

قال وهو يغرينى كعادته بشفتيه :

— إن التوكيل يا حبيبتى لا يساوى شيئا .. إنه إشبه برخصة القيادة .. المهم هو ما نكسبه من هذا التوكيل ونحن إلى الآن لم نكسب شيئا ..

قلت وأنا أتنهد فى مرارة :

— دعنى أجرب طريقتى ، لعلى أستطيع أن أقترض مرة أخرى باسم والدى ..

وتعمدت أن أقضى عدة أيام أتظاهر بأنى أبحث عن الشخص الذى أستطيع أن أقترض منه .. كنت أخرج من البيت وأقضى اليوم كله وحدى وأعود إليه دون شىء وأروى له تفاصيل كاذبة وهو يستمع إلى فى عصبية دون أن يسلط شفتيه لإغرائى .. ويهجرنى فى الفراش .. له حق .. إنى أقدر أن الرجل عندما تتسلط عليه متاعب عمله لا يصلح للفراش .. وبعد أسبوع كنت قد سحبت من حسابى المفتوح خمسين ألف دولار أعطيتها له وأعدته إلى فى ليالى الفراش ..

وبدأ غسان يعمل بجد وذكاء .. وأصبح بيت كارفن فى بيروت أنجح وأرقى بيوت الأزياء .. وأنا فرحة .. بهذا النجاح .. كأنه نجاحى .. وأستقبل غسان كل مساء كأنى أستقبل زوجى بعد أن قضى

يومه في قاع المحيط وعاد يحمل قفصا مليئا بحبات اللؤلؤ ..

ولكنى بدأت أعانى من شيء آخر ..

أعانى من غيبة ابنى وابنتى عنى ..

مضى أكثر من عام وهما بعيدان عنى ..

أريدهما ..

ولكن .. كيف أصل إليهما وأنا مازلت محتفظة باقتناع غسان بأن عائلتى قد تبرأت مني وحرمتنى من كل شيء حتى من أولادى ..

ـ ٣ ـ

كنت دائما مطمئنة على ابنى حازم وابنتي صابحة فقد كنت أتصل تليفونا ببيتنا فى الكويت وكانت ابنة عمي تتصل بى وأحيانا أخى جابر وإن كنت لم أجرؤ أبدا على الاتصال بأبى ولا بأمى ولم يتصلا هما بى ، وكنت أخفى هذه الاتصالات عن زوجى غسان وإن كنت أحيانا أبلغه أن ابنة عمى أو إحدى صديقاتى قد اتصلت بى من الكويت أو أنى اتصلت بصديقتى لأطمئن على ابنى وابنتى ..

ولكن الاطمئنان لم يعد يكفينى ..

لقد مر أكثر من عام دون أن أراهما وأسمع صوتهما وأحتضنهما إلى صدرى ..

وكان يمكننى أن أطير إلى الكويت وأبقى هناك ولو ليوم واحد لأرى أولادى ، ولكنى أصبحت كأنى أخاف مجتمع الكويت أو على الأقل أحمل هم وثقل مواجهته بعد قصة زواجى ، وكنت أيضا أستطيع أن أقنع عائلتى بأن ترسل لى ابنى وابنتى ليقيا معى أياما فى بيتى ولكنى لم أكن أريد أن أشعر زوجى غسان بأن العائلة تتساهل معى حتى لا أثير فيه شهوة براميل البترول ..

وجاءت الفرصة التى أنتهزها لأرى ابنتى وابنى ، فقد قرر غسان أن يسافر فى جولة إلى دول الخليج والسعودية حتى يشرف على أسواق

كارفن هناك . ولم يكن غسان يجرؤ على أن يدخل الكويت فقد كان يخيل إليه أنه سيقتل هناك بعد أن تزوجنى وكنت أنا أؤكد له هذا الوهم ، فكان يستعين بوكيل له لترويج بضائعه هناك ، ثم كان المفروض أن يسافر غسان بعد هذا إلى باريس لألتقى به هناك ، ولكنى استطعت أن أقنعه هذه المرة بأن يعفينى من السفر إلى باريس ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى أتركه يسافر وحده ، فقد كنت أرتاح لأن يسافر وأنتظره كما كانت جدتى تنتظر زوجها إلى أن يعود من البحر ، ولكنى فى هذه المرة لم أتركه يسافر وحده لأرتاح ولكن لأرى أولادى ..

وكنت قد أعددت كل شىء .. سافر غسان ، وفى اليوم التالى جاء إلى ابنى حازم وابنتى صابحة مع ابن عمى والمربيات ، وأخذتهم إلى قرية فرايا فوق ثلوج الجبل لأنها منطقة لا يتردد عليها أحد من الكويتيين .. وعشت مع حازم وصابحة هناك .. عشت وأنا لا شىء سوى أم .. أحسست أن أمومتى هى كل ما فى .. لست امرأة ولا برميل ولكنى أم .. وبدأت أستسخف كل ما فعلته .. أستسخف حبى لغسان وقصة زواجى منه ..

وقضيت مع حازم وصابحة عشرة أيام أحسست خلالها أن هذا هو وجودى الطبيعى .. أن أكون بين أهلى وأن أكون أما .. ولم أشعر خلال هذه الأيام بشىء من الفراغ الذى كنت أشكو منه دائما .. بالعكس ، اكتشفت أن الأولاد هم مسئولية تملأ فراغ الحياة كلها .. إن الأولاد مشاريع مستمرة لبناء الحياة .. مشاريع يدخل فيها العلم والاقتصاد والفن والمبادىء والمتعة وكل ما يمكن أن يشغل فراغ

الإنسان .. وكانت تمر عليّ حالات تنتابنى فيها نوبات البكاء التى تعودتها .. أبكى حيرتى فى نفسى .. فى شخصيتى .. هل أنا أم .. هل أنا امرأة .. هل أنا برميل .. ولماذا لا أستطيع أن أجمع كل ذلك فى شخصية واحدة هادئة مستقرة ..

وكان يجب أن يعود حازم وصابحة إلى الكويت قبل أن يعود زوجى غسان من باريس .. وقد تأخر غسان فى عودته .. غاب أكثر من عشرين يوما .. وعندما عاد أخذ يقبلنى وهو يصيح :

— الشيكولاته بافضيلة .. الشيكولاتة ..

ثم فتح أمام دهشتى حقيبة من حقائبه فإذا بها معبأة بقطع وصناديق مختلفة الأشكال من الشيكولاتة الإنجليزية ماركة كادبورى .. وبدأ يروى لى مشروعه الجديد .. إنه التقى فى باريس بعملية كبيرة جريئة وسافر إلى لندن من أجلها ثم ترك لندن وسافر إلى موسكو وفى خلال أيام استطاع أن يتمها .. عملية غريبة تقوم على تصدير شيكولاتة كادبورى إلى الاتحاد السوفيتى فى مقابل استيراد أسمنت وحديد يصدرهما إلى إيران ودول الخليج .. وصاح غسان :

— إننا بذلك نصبح أصحاب شركة عالمية ..

وكنت أسمع إليه وأنا فى ذعر داخلى فإنى أعرف ما يتطلبه أى مشروع جديد من مشاريع غسان .. يتطلب أن أدفع . وقد بدأ غسان يمهد لإقناعى بالدفع بنفس الأسلوب .. أسلوب إغرائى بشفتيه .. واحتضننى كلى وقبلنى قبلة طويلة كأنه لن يترك أبدا شفتى .. ثم نام بجانبى وهو يتحسس جسدى بأصابعه وقال :

— إنه مشروع كبير .. فى حاجة إلى رأس مال ضخم .. أكثر من

مائة ألف دولار .. وقد فكرت أن نبيع توكيل كارفن ولكن خسارة .. يجب أن نحتفظ به .. فما رأيك ..

وكان غسان عندما يحدثني عن مشاريعه يتحدث باسمنا نحن الاثنين كأننا شركاء ، ولكن الواقع أني لم أكن أعرف شيئا عن هذه المشاريع ، ولم يكن شيئا منها مسجلا باسمي ، بل لم أكن أعلم كم أصبح غسان يملك .. لا أدرى قيمة حسابه في البنك الذي يتعامل معه ، والأموال التي أعطيتها له لا أدرى شيئا عن مصيرها ، وصحيح أنه يدفع مصاريف البيت ، واشترى سيارتين واحدة له وواحدة لي ، وكان يزداد سخاء يوما بعد يوم ولا يرفض لي طلبا وإن كنت قد تعودت أن لا أطلب منه الكثير .. ولا شك أن كل ذلك من مكاسب كارفن .. وهي مكاسب تكفينا وتكفي الحياة التي أريدها والتي تختلف عن الحياة التي ولدت فيها .. تختلف حتى في لذاتها .. فإن طعم البترودولار يختلف عن طعم الكارفن دولار ..

وقلت لغسان :

ـــ لا تطلب مني أن أقترض مرة ثانية .. إننا لم نسدد حتى الآن شيئا من القروض القديمة ..

وقال وهو يريح جسده عن جسدى :

ـــ إنه لم يمض علينا سوى عام وبضعة شهور ولا نستطيع أن نسدد في هذه المدة القصيرة .. إننا نكسب ولكن مكاسبنا محدودة خصوصا وأننا نتوسع ونفتح محال جديدة لكارفن .. واسم والدك ضمان كاف حتى لو تأخرنا في السداد عشرات السنين ..

قلت وأنا أشد مقاومة من كل مرة :

— إن أبي لا يعلم شيئا عن هذه القروض وقد يعلم في أي وقت وأنا واثقة أنه لن يوافق عليها وسيترك الدائنين يطاردوننا ..

قال مبتسما وهو يعود ويقترب من جسدي بعد أن أحس بمقاومتي :

— لن يطاردنا أحد .. إنهم في أي لحظة يستطيعون أن يأخذوا منا كل شيء ما دمنا سيبقى كل منا للآخر ..

وبدأت ألين ، ولكني كنت أتغير في داخلي .. لم أكن ألين بنفس الروح التي سبق أن استجبت فيها لمشروعاته .. بدأت أحس وأنا أستسلم له بسخافتي وعبطي ، ولكني كنت ما زلت أضعف من أن أقاوم هذه السخافة .. وهذا العبط ..

وكررت نفس القصة .. تظاهرت بأني أبحث عن دائن ثم سحبت من حسابي في البنك مائة ألف دولار سلمتها له بشيك باسمي بعد أن أقنعته أن الدائن حول المبلغ إلى حسابي في البنك ..

وكانت العملية تفرض علينا أن نقيم في لندن .. واستأجر لنا غسان شقة في حي بيكاديللي وبدأ كل شيء في حياتي يتغير ..

إن غسان يغيب عني طويلا .. يقيم معي أياما في لندن ثم يطير إلى موسكو ثم من موسكو يختفي في بيروت وفي البلاد العربية ، ويعود إلى بعد شهر أو شهرين .. إني لا أستطيع أن أتحمل ما كانت تتحمله جدة جدتي عندما كان رجلها يغيب عنها في البحر شهورا طويلة ليتاجر أو ليصطاد اللؤلؤ أو ليقوم بعمليات القرصنة .. لا .. إن نساء الكويت اليوم لسن نساء الأمس .. وبدأت أتقلب على نار الوحدة والفراغ .. وكنت أحيانا أسافر معه هنا أو هناك ،

ولكن حتى عندما أسافر معه كنت أحس بالوحدة والفراغ فهو دائما بعيد عني .. وكنت أحيانا أتصل بأخي أرجوه أن يأتي إلى في لندن ليخفف وحدتي وفراغي .. وأحيانا كنت أدعو ابني حازم وابنتي صابحة في غياب غسان .. وأحيانا كنت أفكر في أن أصارح غسان بكل شيء .. أصارحه بأن عائلتي كلها يمكن أن توافق على زواجنا وأننا يمكن أن نسافر ونستقر في الكويت .. ولكني كنت أتردد وأرفض لا أدرى لماذا .. ربما لأني كنت أبخل على غسان بأهلي وعائلتي وأبخل عليه بوطني الكويت .. وربما لأني لم أكن أريد أن يصبح زواجي بغسان زواجا عاديا لا يمثل قصة أو مشكلة .. إذا كنت سأعيش كزوجة عادية فالأفضل أن أتزوج رجلا من بلدى .. كويتي .. لا غريبا من لبنان ..

وكان غسان نفسه قد بدأ يتغير بعد أن نجحت عملية كادبورى كما نجحت عملية كارفن .. ولا شك أنه جمع أرباحا ضخمة لا أدرى مداها فقد كان يتعمد أن يحدثني عن تفاصيل كثير من عملياته ولكنه لم يكن يصارحني أبدا بنتيجة أى عملية .. كم دفع وكم كسب .. وخيل إلى أنه بدأ يصبح إنسانا مغرورا ، وبدأ يتعلق بمظاهر مجتمع الأغنياء .. لقد استأجر فيلا كبيرة بحديقة واسعة في لندن انتقلنا إليها ، وبدأ يقيم حفلات ساهرة في كل الليالي التي يقضيها في لندن .. ولم أكن أرتاح لهذه المظاهر إنها تعيدني إلى إحساسي بأني برميل بترول .. ولم أستطع أن أحس بالنجاح في المجتمع الإنجليزى .. وكرهته .. كرهت كل النساء وكل الرجال حتى الذين ينضمون إلى هذا المجتمع من العرب ..

ولكن ..

الأخطر من ذلك هو أن غسان نفسه بدأ يعاملني بأسلوب جديد .. إنه لا يهتم بى .. كأنه أصبح في غنى عنى .. كأنه أخذ كل ما يريده من البرميل .. ثم لا شك أنه أصبحت له حياته النسائية الخاصة .. له نساء غيرى .. يخوننى ربما دون أن يحس بالخيانة كأى رجل من الكويت يستأجر في كل ليلة امرأة دون أن يحس بأنه يخون زوجته .. إن غسان أصبح كأى رجل كويتي .. ربما لم تكن هذه صفة رجال الكويت ولكنها صفة الرجال الأغنياء سواء كانوا من رجال البترول أو من رجال كادبورى أو من رجال كارفن .. إنها صفة الاعتزاز بالقدرة على الشراء بما فيها القدرة على شراء النساء .. وبدأت أتأكد أن غسان يخوننى .. إن الخيانة تكتشفها المرأة من طعم قبلة زوجها ومن أسلوب معاشرته لها فى الفراش .

إنه يخوننى ..

إلى أن كانت ليلة .. وكان غسان قد دعا إلى حفلة ساهرة في بيتنا في لندن .. كان عدد المدعوين أكثر من خمسين رجلا وامرأة واحدة وكنت أتنقل بينهم في برود . وأتحمل تقربهم إلى وهم يلتفون حولى ولا أحد منهم يحس بى كزوجة لغسان ، ولكن كلهم يحسون بى كبرميل بترول ويتحدثون معى عن الكويت وعن أبى أكثر مما يحدثونني عن غسان وعن كادبورى وكارفن .. ثم خطر على بالى أن أبحث عن غسان ليعيننى ويرحمنى من مدعويه .. إنى لا أجده .. ربما خرج إلى الحديقة مع عدد من المدعوين كما تعود كثيرا ، وخرجت أبحث عنه .. ووجدته .. وجدته خلف شجرة وبين أحضان كارول

ابنة سير لوفورد صاحب إحدى الشركات الكبيرة التى يتعامل معها غسان .. وكان يقبلها .. شفتاه بين شفتيها .. شفتاه التى ضعفت أمامهما واشترانى بهما ..

وتعمدت أن أخطو أمامهما حتى يرانى غسان ، ثم أسرعت عائدة إلى داخل القصر دون أن أنطق بكلمة .. وبقيت متماسكة مبتسمة إلى أن انتهت الحفلة وودعت المدعوين ، حتى كارول ودعتها حتى الباب وهى تنظر إلى بعينين مرتعشتين وتصافحنى بيد يجمد فيها دمها البارد .. إنها أصغر منى .. وهى أجمل .. لا شك أنها أصغر وأجمل ..

وصعدت إلى غرفتى صامتة وجاء ورائى غسان يحاول أن يلمسنى بيديه فرفضته بعنف ، وقال لى وهو يسلط على كل شفتيه :

ـــ فضيلة .. أرجوك .. افهمينى واعذرينى .. كنت مضطرا أن أجاملها فأنت تعرفين مدى اعتمادنا على شركات أبيها .. وأعمالنا تفرض علينا أن ندفع عمولات ورشاوى .. وأحيانا تكون العمولة أو الرشوة مجرد قبلة .. إنها رشوة دفعتها لكارول حتى أكسب أباها ..

وقلت ساخرة :

ـــ وهل تكتفى كارول بقبلة ..؟

قال وهو يحاول أن يلمسنى :

ـــ إنها لا تفكر فى شىء أكثر .. لقد كانت تتسلى بى بعد أن شربت كأسا ..

قلت وأنا أصرخ فى وجهه مبتعدة عنه :

ـــ إنى لا أسمح أن تدفع هذه الرشاوى فى بيتى .. إذا لم تحترم

البيت فأنت لا تحترمنى .. هذا إذا كان كل ما بقى بينى وبينك هو الاحترام ..

قال وقد أمسك بى بالقوة وضمنى إلى صدره :

ـ إن ما حدث فى البيت دليل على البراءة .. لو كان هناك شيء أكثر لما حدث فى البيت ..

وسقط بشفتيه على شفتى ..

واستسلمت ..

وكان أسلوبه معى ليلتها يعبر عن خيانته .. أقصد أسلوب الفراش ..

وقررت من يومها أن أبدل من شخصيتى فى مواجهة غسان .. لن أكون المرأة التى تنتظر عودة زوجها من البحر .. سأكون المرأة التى تفرض أوامرها على الرجل .. المرأة صاحبة الفضل على الرجل .. وأنا صاحبة فضل على غسان .. أنا التى خلقته وجعلت منه إنسانا ناجحا له قيمة .. أنا .. أنا .. أنا برميل البترول الذى استنزفه واستمد منه كل كيانه ..

وبعد أيام تركته يخرج من البيت إلى مكتبه ثم اتصلت به بالتليفون بعد فترة وقلت له وأنا أدعى الجزع كأن مصيبة وقعت على رأسى ورأسه :

ـ غسان .. يجب أن أراك حالا .. تعال الآن فورا ..

وقال :

ـ لا أستطيع .. إنى مرتبط بمواعيد حتى المساء ..

وقلت كأنى أصدر الأوامر :

ــ ألغ جميع مواعيدك وتعال حالا .. إن أخى جابر اتصل بى وهو يعلم كل شىء ..

وصمت غسان قليلا كأنه يفكر ثم قال :

ــ سأكون عندك بعد ساعة واحدة ..

وجاء غسان .. وطبعا لم يكن أخى جابر قد اتصل بى ولا حدث شىء .. ولكنى استمررت فى تمثيل دور المرأة المذعورة ، وقلت وأنا أضع فى صوتى رعشة :

ــ جابر أمضى أكثر من ساعة وهو يتحدث إلى فى التليفون .. لم يكن يتحدث ولكن كان يصرخ ويشتمنا نحن الاثنين .. إنه يعتقد أنى أنا وأنت لصوص استغللنا اسم أبى للنصب على الناس والاقتراض منهم .. وهو يعلم كل الأرقام .. لابد أن الدائنين طالبوهم بالسداد ..

وقال غسان فى هدوء ..

ــ وماذا يريد أخوك ..

قلت :

ــ يريد أن ندفع .. ويجب أن ندفع يا غسان .. إن الديون وصلت إلى ثلثمائة ألف دولار تقريبا ..

قال وهو لا يزال هادئا :

ــ لك حق .. يجب أن ندفع .. خلال شهرين أو ثلاثة سأدبر المبلغ ..

قلت وأنا ما زلت أفتعل الأنفاس المبهورة :

ــ لا لن ينتظر أبى شهرين ولا يومين .. العائلة كلها فى ثورة .. إما

أن ندفع لأخى الآن أو ندخله شريكا معنا فى عملية كادبورى أو كارفن و .. و ..

وما كاد غسان يسمع كلمة « شريك » حتى قفز من على مقعده وصرخ فى وجهى كأنه يهم أن يصفعنى :

ـــ اسمعى يا امرأة .. أنا لست مغفلا ولم أكن مغفلا أبدا .. وأنا أعرف كل شيء منذ اليوم الأول .. ومن بين ما أعرفه أن هذه المبالغ التى أخذتها منك لم تكن قرضا من أحد ولكنك سحبتها من حسابك الخاص المفتوح إلى آخره فى البنك ..

وصدمت .. أحسست كأن صخرة ثقيلة وقعت على دماغى فاهتززت وسقطت فوق المقعد .. إنه يعرف .. يعرف كل شيء .. وقد عشت معه ثلاث سنوات ولم أكن أنا وحدى التى أخدعه فهو أيضا يخدعنى .. نعيش وكل منا يكذب على الآخر .. لا حب ولا وفاء ولكن كذب وخداع .. مجرد عملية تجارية .. يبيعنى شفتيه ويأخذ الثمن .. أنا لست امرأة كما توهمت .. أنا دائما برميل بترول ..

وأجبته بأنفاس تتهدج :

ـــ هذا صحيح .. إنها قروض ..

وصرخ :

ـــ كفاك كذبا .. إن عندى أسماء البنوك التى تتعاملين معها وأرقام الحسابات أيضا .. واحمدى ربنا لأنى لم آخذ منك أكثر ..

وصرخت فى وجهه وقد قررت أن أتحداه وأضعه فى مكانه :

ـــ لو اعتبرت أنى كنت أقترض فقد كنت أقترض باسم أبى .. ولو اعتبرت أنى كنت أسحب من حسابى فى البنك فهو حساب باسم أبى

أيضا .. أى أن المصدر دائما واحد .. ومن حقى أن أسترد أموالى أو أكون شريكة لك فى كل فلس ، وأنت لم تشركنى أبدا فى شيء .. لا أعرف أين ذهبت أموالى ولا ماذا جنيت منها .. كل أموالى تختفى بمجرد أن تلمسها بأصابعك ..

وقال وكأنه يبصق فى وجهى :

ــ أموالك وأموال أبيك على طرف حذائى .. لقد أصبحت فى غنى عن أموالك وأموال أبيك .. ولكنك لن تكونى أبدا شريكة لى.إنك أنت نفسك لم تحاولى أبدا أن تكونى شريكة لى لا فى التجارة ولا فى الحياة نفسها .. وقد قلت لك إنى أعرف كل شيء .. أعرف أن عائلتك كان يمكن أن توافق على زواجنا وقد زارك أخوك جابر أكثر من مرة ، وأرسلوا لك أولادك أكثر من مرة ولكنك أنت التى لا تريديننى أن أنضم لعائلتك ولا أن تعترف عائلتك بى كأنك تستعرين منى .. لا تريدين لعائلة الكويت الكبيرة أن تناسب صعلوكا مثلى .. وتفضلين أن ترفضنى العائلة حتى لو كنت أنت فى حاجة إلى .. فى حاجة إلى كمجرد رجل يعاشرك معاشرة الأزواج ..

وصرخت :

ــ هذا غير صحيح .. والرجال كثيرون .. إن الكويت لا ينقصها الرجال حتى أحتاج إلى رجل غريب .. ولكنى أخطأت وأحببتك ..

وضحك ضحكة كبيرة ساخرة ثم قال :

ــ يا فضيلة أنت مغرورة .. غرورك صور لك أنك ذكية فى حين أنك أغبى امرأة عرفتها .. وقد كان من غرورك بنفسك وبعائلتك أنك تعمدت ألا تنجبى منى .. لا تريدين أن يكون لك أبناء يحملون اسم

الرجل الغريب حتى لا يدخل إرث آبار البترول غرباء ..

فقلت وأنا أحس كأنه يعريني .. ويعرى حقيقتي :

ــ كنت أؤجل أن ألد منك حتى أتأكد من حبك ..

قال وكلماته تقطر بسخرية :

ــ ليس المهم هو حبي لك ولكن حبك لي .. فالحب يدفع المرأة إلى الإنجاب من حبيبها .. ولكنك لم تعطيني الحب أبدا أخذت مني جسدي وأعطيتني الثمن بالدولارات ..

وقلت :

ــ الآن نتحدث عن الأولاد لماذا لم تطالبني من قبل أن أنجب لك .

وقال في قرف :

ــ لا أريد منك أولادا .. لا أريد أن يحمل اسمي ويرثني ابن كويتية ..

وصرخت في غيظ :

ــ ماذا تريد ؟

قال في تعال :

ــ أريد أن يأتي أبوك وأمك وأخوك وكل عائلتك إلى هنا ليتشرفوا بمعرفتي وبعد ذلك نتحدث فيما يمكن أن يحدث ..

ونظرت إليه كأني وصلت إلى حد الجنون .. إنه يستهين بأبي وعائلتي .. كأنه أصبح في مستوانا .. هذا الصعلوك اللبناني ..

وصرخت :

ــ طلقني .. طلقني الآن .. حالا ..

وقال في دهشة :

ــ طلاق .. لماذا الطلاق ؟

قلت وأنا أقطر غيظا :

ــ لأني لم أعد أطيقك .. لأني أريد أن أهرب من فضيحتي وخطيئتي التي ارتكبتها بك .. لأني خدعت فيك .. لأني صنعتك وكأني صنعت قالبا من السم القذر يسمم دمي ..

وقال في برود :

ــ إلى هذا الحد تريدين الطلاق ..

وعدت أصرخ :

ــ طلقني .. وإلا والله العظيم أقتلك ..

قال وهو يجلس مستريحا على مقعده :

ــ الأغبياء هم الذين يقتلون ..

قلت :

ــ يشرفني أن أكون غبية إلى حد قتلك ..

وقال كأنه يستهين بتهديدي :

ــ إني مستعد للطلاق .. ربما كنت أكثر منك حاجة إلى الطلاق .. ولكن المسألة ليست سهلة .. فإن طلاقك سيكلفني غاليا لأني أتعامل في السوق باسمي ولكن الواقع أن أقوى ضمان لاسمي هو أني زوجك .. زوج فتاة من عائلة بترولية معروفة .. إنه رصيد كرصيد البنوك يسهل لي كل عملياتي .. فإذا طلقتك فإني سأفقد هذا الرصيد وهذا الضمان .. ويجب أن أحصل على مقابل .. كل شيء بثمنه .. وثمن طلاقك مليون دولار ولا أقل .. إن حسابك المفتوح يتسع لهذا

المليون ..

وقام فى هدوء وخرج من البيت قائلا :

ــ فكرى .. وأبلغينى قرارك بالتليفون ..

وأنا أصرخ وراءه :

ــ سافل .. لص .. قذر ..

وسقطت على الأرض أبكى كل دموعى ، وأحس أنها دموع طعمها مر كأنى أذرف قذارتى ..

ولم يعد غسان ليلتها إلى البيت ولا فى اليوم التالى وعندما سألت عرفت أنه سافر .. ولا أدرى إلى أين .. ولكنى قدرت أنه كعادته سيغيب إلى أن يتصور أنى لم أعد أطيق غيابه فيعود إلى ويستغل ضعفى أمام شفتيه ويفرض على ما يريد ..

ولكنه واهم .. لن أعود وأضعف أمامه أبدا .. انتهت قصتى معه .. كانت قصة تقوم على محاولتى الهروب من نفسى كامرأة من عائلة كويتية غنية بالبترول .. أن أتحرر وأن أخلق من نفسى شخصية امرأة خارج البرميل .. امرأة عادية يريدها الرجل لذاتها لا طمعا فى أموالها أو فى الانتساب إلى عائلتها .. وقد كان غسان غبيا عندما صارحنى بأنه كان يعرف كل شىء .. لقد هدم القصة من أساسها .. هدم حتى ذكريات الأيام الحلوة .. لقد كان يخدعنى فى كل أيامى كما كنت أخدعه .. إنه غبى .. حمار .. لو كان قد انتظر أياما فربما كنت أنا التى صارحته لا هو ، وكنت سأبدو أمامه كأنى أنا التى خدعته وكنت أعطيته أكثر .. ولكنه راح ضحية غروره .. أنا التى حولته إلى إنسان مغرور .. أعطيته وساعدته إلى أن اشترى الغرور وخيل إليه أنى

أصبحت عبدة له ولن أستطيع أبدا الاستغناء عنه ..

لا يا غسان .. استغنيت عنك ..

وعدت بسرعة إلى شخصيتي الكاملة .. شخصية العائلة .. شخصية القبيلة .. ودعوت السفير وطلبت منه أن يبلغ أبي أني عائدة إلى الكويت ..

وبعد يومين كنت هناك ..

في بلدى ..

في بيتي ..

وقد استقبلتني العائلة في تكتم شديد كأنها تدارى عورة ورغم ذلك فقد أحسست بمجرد أن دخلت البيت براحة تسرى في كل أعصابي .. راحة عجيبة .. كأني قضيت الأربع سنوات الماضية واقفة على قدمي .. وبين فرحة أمي وأولادى وكل العائلة بما فيها الخدم نمت .. نمت نوما لم أنمه خلال كل سنوات قصتي .. كلي نائم نوم الراحة والهدوء والأمان .. ثلاثة أيام بلياليها ومتعة النوم تغمر فرحتي بعودتي فأنام ..

ولم ألتق بأبي إلا بعد أربعة أيام .. لم يرفض أن يراني ، ولكني كنت أحسب حساب لقائه وكان هو أيضا يحسب هذا الحساب فلا يدعوني إليه ولا ينهار أمام وحشة لقاء ابنته .. وعندما التقينا لم يسألني شيئا وكأنه يعرف كل شيء ويعرف أن ابنته مجنونة شاذة في تصرفاتها كما كنت معروفة منذ صغرى .. لم يتكلم أبي معي كثيرا وكانت هذه هي طبيعته ، لا يتكلم إلا ليصدر قرارا ولم يكن لديه قرار ليصدره بالنسبة لي حتى يتكلم ..

ومع الأيام بدأت أسترد كيانى فى مجتمع الكويت ولكن بصورة جديدة .. صورة تميل إلى العزلة وتميل إلى الصمت .. وكنت أروى قصتى أمام صديقاتى كل يوم فى شكل جديد .. مجرد كلام .. ولكنى كنت أحس بأنى متهمة بأنى ضحية غسان وأنه خدعنى ليستنزف أموالى .. هذا كلام فاضى .. إن مجموع ما أعطيته لغسان خلال أربع سنوات لا يزيد عن ثلثمائة أو ربعمائة ألف دولار .. وصحيح أنه لم يرد لى المبلغ ولن يرده ولكنه كان يعمل وكان يكسب وكان ينفق على من كسبه .. أنا لست عبيطة .. أنا أذكى امرأة فى الكويت .. ولو كانت امرأة أخرى لاستطاع رجل مثل غسان أن يأخذ منها أضعاف ما أخذه منى .. ثم إن هذا المبلغ لا يزيد عن ثمن ما تشتريه نساؤنا بنات العائلة الكبيرة من ثياب ومجوهرات فى عام أو عامين ، وأنا لم أشتر مصاغا طول فترة حياتى مع غسان وكان هو الذى يدفع لى ثمن ثيابى .. أنا الأذكى أذكى حتى من الرجال الذين ينفق كل منهم فى أوروبا كل عام أضعاف أضعاف ما أنفقته على غسان ، وهناك حكاية معروفة عن رجل من الخليج دفع لامرأة لبنانية ابنة شخصية مهمة مليون دولار ونصف المليون ليتزوجها ليلة واحدة ويطلقها فى الصباح التالى ، وكان هذا هو شرطها .. ليلة واحدة بمليون ونصف المليون .. هذا العبيط .

ومضت شهور وغسان لا يسأل عنى ولا أعرف عنه شيئا .. وقد تركت موضوع الطلاق لأبى وأخى .. طلاق بلا مناقشة فلم يعد بينى وبين غسان شىء يستحق المناقشة ..

وقد سافر أخى جابر والتقى بغسان فى لبنان وعاد يحمل ورقة الطلاق .. لا أدرى كيف دار النقاش بينهما ، ولكننى متأكدة أننا لم

ندفع له ولا فلسا .. ولا أخى ولا أبى من هذا النوع الذى يستجيب للتهديد .. ونحن الأقوى .. نستطيع أن نهدده بقطع كل معاملات شركاته في الكويت ، وهو ما يسيء إلى سمعته كرجل أعمال .. ونستطيع أن نغريه بأن نفتح له أبوابا أوسع للاستيراد وللمعاملات .. ومجرد أن يعرف غسان أن الموضوع قد انتقل إلى أبى وأخى سيجعله يستسلم لهما .. إن أحدهما لن يضعف أمام شفتيه كما كنت أضعف ..

وانتهى كل شيء ..

أصبحت مرة أخرى امرأة مطلقة ..

ولا شك أني تغيرت .. لم أعد أحلم بأن أكون هذه المرأة التى تحكم الأرض بينما الرجل يعيش في البحر بحثا عن الرزق كما كانت جدتى وجدة جدتى .. يجب أن أعترف بالواقع كاملا .. الرزق لم يعد في البحر ولكنه أصبح في براميل البترول .. والمجتمعات تتطور حسب الحاجة ، ورجل الكويت هجر البحر لا لأنه أصبح كسولا ولا لأنه أصبح مغرورا يترفع عن العمل الشاق ويكتفى بالرزق السهل الذى ينبع من باطن الأرض .. لا .. أبدا .. رجالنا لم يتغيروا عما كانوا عليه منذ بدأت القبيلة ولكن الذى تغير هو سبيل الرزق وهو الحاجة .. يجب أن أعترف بهذا .. وقد أدى بي هذا الاعتراف إلى محاولة إقناع نفسى بأني لم أعد في حاجة إلى رجل .. لا أريد أن يكون في حياتى رجل ثالث بعد سالم وغسان .. أصبحت أعيش وحدى واخترت أن أملأ فراغى بالفكرة القديمة التى حاولتها يوما ، وهى أن أقيم في مجتمع الكويت ندوة خاصة أدبية وسياسية ، حتى تقلدنى النساء المعروفات

وتقيم كل منهن ندوة أخرى .. وتتعدد الندوات حتى ترتفع بالكويت فوق مستوى براميل البترول .. تصبح الكويت منتدى عربيا عالميا للأدب والسياسة .. وحددت فعلا ليلة فى الأسبوع أدعو إليها الشخصيات الأدبية والسياسية من أهل الكويت ومن خارج الكويت .. واخترت ليلة الثلاثاء حتى أترك الرجال ليلة الجمعة لزوجاتهم حسب السنة ..

وأثرت فى هذه الندوات إلى أن كتبت هذه القصة .. قصتى ..

ولكن ..

من يدرى ؟

ربما اتهمت بأنى استأجرت كاتبا من ضيوف الندوة ليكتبها لى فهكذا يتهم دائما الذين يعيشون فى البراميل ..

وأضيع أنا وسط الاتهام وأكاد أعود لأفكر ثانية فى البحث عن رجل يأخذنى من هذا البرميل .

خيوط فى مسرح العرائس

هذه القصة من وحى أى يوم من أيام العشرين عاما التى مضت

ـ ١ ـ

كانوا يذكروننى بما يسمونه الوفاء ، ويكاد الموظفون يتجمعون في مظاهرة أمام باب مكتبى وهم يهتفون .. أين الوفاء يا عبد السميع .. لا تنس فضل من أحسن إليك يا عبد السميع .. من طرده يطردك ولو بعد حين يا عبد السميع ..

أعط لأصدقائك كأنك تموت غدا يا عبد السميع ..

هؤلاء الأغبياء .. إن عقولهم كانت تضيق عن فهم مسئوليات رئيس مجلس الإدارة .. إنهم لا يعلمون أن كل المقاييس تختلف عندما تصل إلى مستوى رئيس مجلس الإدارة حتى مقاييس الوفاء بل ومقاييس الصدق والأمانة وأيضا الحب .. إن الحب الذى ينبض به قلب رئيس مجلس الإدارة يختلف عن الحب الذى ينبض به قلب كاتب الحسابات .. بل القبلة .. مجرد القبلة .. إن أى امرأة تستطيع أن تفرق بين طعم قبلة رئيس مجلس الإدارة وطعم قبلة موظف في الأرشيف مثلا .. بل إن المرأة المجربة تستطيع أن تحدد منصب الرجل ومركزه بمجرد أن تبادل معه قبلة حتى لو لم تكن تعرف عنه شيئا وحتى مع تقارب المناصب والمراكز .. قبلة الوزير وقبلة رئيس مجلس

الإدارة .. إن الفرق بينهما كثير .. قبلة الوزير — كما قالت لى إحداهن — فيها إحساس بالتحفظ الرسمي وتبدأ كأنها فتح باب المناقشة فى موضوع لم يستقر عليه رأى بعد ، أما قبلة رئيس مجلس الإدارة فهى أكثر تحررا من الرسميات وأقرب إلى اجراء تنفيذى لتحقيق عقد فى صالح الشركة لتشغيل الآلات ..

وأنا أفهم كل ذلك لأنى رجل إدارى موهوب .. والإدارة ليست أرقاما وحسابات ولكنها علم وفن .. والعلم الإدارى يأتى فى المرتبة الثانية من الفن الإدارى .. فالعالم الإدارى الذى ليس فنانا إداريا ينتهى حتما إلى الفشل .. ولكن الفنان الإدارى يضمن النجاح حتى بلا علم إدارى ..

والفن الإدارى يعتمد أساسا على التحليل النفسي للمجاميع والأشخاص ، ثم على قياس وتحديد مسئولية المنصب أو المركز الذى يحتله الرجل الإدارى .. أى أن فن الإدارة هو فن التعامل مع الناس وهو ما يفرض عليك أن تفهم الناس وتفهم مدى القدرة التى تتعامل بها معهم .. فقوة مدير شئون العاملين فى إحدى الشركات تختلف عن قوة العضو المنتدب فى نفس الشركة وتختلف عن قوة رئيس مجلس الإدارة .. ولذلك فإن الثلاثة حتى لو تساووا فى مستواهم الفنى كإداريين فإنهم يختلفون عادة فى تحديد القرارات .. فقوة رئيس مجلس الإدارة تعتمد على اتصالاته السياسية بالرئاسة ، ولذلك قد يتخذ قرارات هدفها سياسي حتى لو كانت تضر بالإنتاج وهو ما لا يمكن أن يوافق عليه العضو المنتدب لأن قوته ليس لها جانب سياسى ، والعضو المنتدب يستمد قوته من مسئوليته الكاملة عن كل نشاط

الشركة داخليا وخارجيا ، وقد يرفض قرارات تخص الشئون الداخلية لأنها تؤثر فى الشئون الخارجية وهو ما لا يمكن أن يوافق عليه مدير شئون العاملين لأن قوته مستمدة من إشرافه على الشئون الداخلية وحدها ..وهكذا ..

والمهم فى كل هذا هو الفن .. الفن الإدارى .. إنك لن تتقدم وترقى فى مجال الإدارة إلا إذا كنت فنانا كمحمد عبد الوهاب أو محمود ياسين أو أم كلثوم أو فاتن حمامة .. تعطى وتأخذ .. مع اختلاف المجتمع الذى تعطيه وتأخذ منه .. ولذلك فإن الإدارى الناجح لا يقال عنه إنه عالم ولا يوصف بأنه من أهل العلم حتى لو كان يحمل شهادة دكتوراه فى الإدارة بل يقال عنه إنه شاطر ويوصف بالشطارة ، أى بالذكاء حتى لو ارتفع الذكاء إلى حد الفهلوة والتحايل .

وقد كنت منذ شهور قليلة مديرا لشئون العاملين بالشركة العربية لإنتاج المتطلبات الشعبية .. هذا اسمها .. وكنت أيامها محبوبا من جميع الموظفين والعمال .. كانوا كلهم فى يدى وبين أصابعى ، بل كنت أنا الذى أختار أعضاء نقابتهم وأعضاء لجنة الاتحاد الاشتراكى .. أختارهم لينجحوا بأمرى فى الانتخابات .. وقد وصلت إلى كل هذا لأنى حددت مسئوليتى بأنها خدمة العاملين فى الشركة واكتساب حبهم وصداقتهم ورضائهم . ليس لى أى مسئولية أخرى داخل الشركة .. ومطالب العاملين لا تنتهى .. وكانوا يتقدمون إلى مثلا — وكما حدث فعلا — بطلب تعديل المرتبات وصرف بدل طبيعة عمل (وهو نوع من البدلات أصبح موضة هذه الأيام) ، وطبعا كان

لا يمكن أن يتقدموا بهذا الطلب إلا بعد استشارتى مقدما وموافقتى ، ورغم موافقتى فإنى كنت أجمع أكثر من لجنة وأعقد أكثر من اجتماع حتى أثبت أن الموضوع قد استنزف جهدا كبيرا فى بحثه ودراسته رغم أنها كلها لجان واجتماعات مظهرية .. وكنت دائما أترك المناقشة تنتهى إلى رفع قيمة المرتبات والبدلات أكثر مما كان يطالب بـه العمال .. إذا كانوا يطالبون بعشرة فإنى أوحى لهم بأن يطالبوا بخمسة عشر .. فإذا دهشوا من أن أكون أنا .. أنا المدير المسئول هو الذى يطلب لهم الزيادة قلت لهم إن هذا هو الأسلوب الإدارى الصحيح ، لأنهم عندما يطالبون بخمسة عشر سيحصلون على عشرة ، أما إذا طالبوا بعشرة فسيحصلون على خمسة .. تماما كالتاجر الشاطر الذى يرفع الأسعار إلى أكثر مما يطمع فيه هو شخصيا حتى يترك الفرصة للزبون ليساومه فينزل إلى السعر الذى يريده أصلا بعد أن يكون قد أرضى الزبون وتركه يقتنع بأنه ذكي حويط وأجدع من التاجر .. وكذلك العاملون في الشركة يجب أن يتركوا الفرصة للرؤساء حتى يقنعوا من هم أعلى منهم بأنهم حريصون على مصالح الشركة وقادرون على قيادة العاملين إلى حد أنهم خفضوا من قيمة العلاوات التى طالبوا بها ..

وكانت قيمة هذه العلاوات والبدلات تكلف الشركة أكثر من نصف مليون جنيه وأنا أعلم أن ميزانية الشركة فى حالة تدهور فظيع .. ولكن هذه ليست مسئوليتي ولا مسئولية منصبى .. لست مسئولا عن ميزانية الشركة ولا مكاسبها وخسائرها .. ولكنى مسئول فقط عن شئون العاملين .. هذه شئونهم .. وكنت بعد ذلك أحمل القرار وأرفعه

إلى رئيسي سليمان عبد العزيز المدير العام للشركة ، وأعرضه عليه بأسلوب يختلف عن الأسلوب الذى كنت أتباحث به مع العاملين ..

إن أسلوب العرض هو أهم ما يجب أن يحرص عليه الرجل الإدارى .. فالأسلوب هو الذى يحدد النتيجة التى يصل إليها الموضوع .. وقد قرأت فى كتاب صدر أخيرا عن جهاز المخابرات السوفيتى أن أهم وأخطر العملاء لا يكون عادة من بين الشخصيات الرئيسية فى البلد بل أهمهم هو الرجل الذى يعرض الموضوعات والأوراق على الرئيس سواء كان سكرتيره الخاص أو مدير مكتبه.المهم أن يكون هو الرجل الذى يتولى العرض بنفسه على الرئيس .. فالرؤساء عادة ليس لديهم الوقت الكافى لدراسة كل موضوع دراسة كاملة ولكنهم يعتمدون على العروض الملخصة سواء كانت مكتوبة أو شفهية .. والتلخيص فى الكتابة أو الكلام يعتمد على الأسلوب الذى يتعمده صاحب حق الاتصال المباشر بالرئيس .. وكنت أتعمد أن أعرض على رئيسي سليمان عبد العزيز المدير العام مشروع العلاوات بحيث أسجل رأيي بأنه مشروع سيخرب بيت الشركة وفى الوقت نفسه أسجل أنه مشروع يرفع من مستوى العاملين مما يرفع من مستوى إنتاج الشركة .. أى أنى كنت أرفض وأؤيد فى وقت واحد ، حتى لا يتهمنى العمال بأنى تخليت عنهم ولا يتهمنى المدير العام بأنى أحرض العمال على الإضرار بمصالح الشركة .

والمدير العام يحمل مسئوليات أوسع وأكبر من مسئولية مدير شئون العاملين ، وهو يعمل مباشرة تحت رئاسة عضو مجلس الإدارة المنتدب ، لذلك فهو لا يستطيع أن يكتفى بدراسة المشروع من جانب

واحد وهو جانب العمال والموظفين ، بل يجب أن يقدمه إلى العضو المنتدب بعد دراسة كل جوانب الشركة ، ثم هو فى الوقت نفسه لا يتجاهل ما يمكن أن يسببه العاملون من متاعب له وللشركة إذا رفض المشروع ، وكان الرفض من جانبه ، لذلك فهو يستخدمنى حتى أقنع العمال بتخفيض مطالبهم ..فإذا كانوا يطالبون بخمسة عشر يكتفون باثني عشر فقط .. وطبعا أتعمد أن أتظاهر بإعادة تكوين لجان وعقد اجتماعات وبذل الجهود المضنية حتى يوافق العمال أخيرا على مطالب المدير العام ويحفظ لى جميلا أستطيع أن أستغله كلما أردت ..

ويحمل المدير العام المشروع إلى عضو مجلس الإدارة المنتدب .. وقد كان المفروض أن يحمله إليه منذ البداية ولكن المدير العام الشاطر يتعمد أن يصل بنفسه إلى نتائج ناجحة وقبل أن يتدخل العضو المنتدب حتى لا يفقد حقه فى التقدير .. ويبحث العضو المنتدب المشروع فى نطاق مسئوليته التى تتسع اتساعا أكبر من مسئولية المدير العام .. إنه المسئول التنفيذى عن كيان الشركة وهو المسئول المباشر أمام رئيس مجلس الإدارة ، وكثيرون من رؤساء مجالس الإدارة يلقون الهم كله على العضو المنتدب حتى يعفوا أنفسهم من مسئولية الفشل ويكتفون بحمل مسئولية النجاح .. وأى عضو منتدب حريص من جانبه على أن لا يضيع ضحية لرئيس مجلس الإدارة ، وهو على قدر ما يتعمد ألا يقع فى تصرفات قد يأخذها عليه رئيس المجلس يتعمد فى الوقت نفسه أن يكسب العمال والموظفين إلى جانبه حتى يحموه من الرئيس أو على الأقل حتى لا يستخدمهم الرئيس ضده .. لذلك فهو يقع أمام المشروع فى حيرة أكبر من حيرة

المدير العام ، وتدخل فى حسابه مقاييس أبعد من مقاييس المدير العام .. وإذا وصل إلى الموافقة على المشروع فهو عادة يعلن موافقته حتى يكتسب الاعتراف بفضله على الموظفين والعمال .. وهو لا يعلن موافقته رسميا لأن هذا من حق رئيس مجلس الإدارة وحده ، ولكنه يعلنها باتصالاته الخاصة حتى يصل إلى الموظفين والعمال .. أما إذا كان اتجاه العضو المنتدب هو الرفض فهو لا يعلن رفضه حتى لأقرب المقربين إليه خوفا من سخط العاملين ، ولكنه يترك قرار الرفض بكامله لرئيس مجلس الإدارة ، ويكتفى هو بأن يحاول تخفيض قيمة العلاوات ، وهذا ما حدث فعلا ، واستغلنى العضو المنتدب أيضا فى إقناع العاملين بتخفيض العلاوة من اثنى عشر إلى عشرة .. وكسب العضو المنتدب بذلك موقفا أمام رئيس المجلس ، وكسبت أنا موقفا أمام العضو المنتدب بعد ما كسبته أمام المدير العام ..

ويأتى بعد ذلك دور رئيس مجلس الإدارة ، وهو دور يعتمد كالعادة على الأسلوب الذى يعرض به المشروع عليه .. إن هناك أسلوبا يمكن به أن تحصل على موافقة رئيس المجلس فى دقيقتين .. يكفى أن يعرض العضو المنتدب المشروع على أنه مشروع عادى تنص عليه اللوائح وسبق أن طبق فى سنوات سابقة وفى عهد رئيس مجلس الإدارة السابق .. وكل رئيس مجلس إدارة يجب أن يكون أكرم وأسخى على العمال من رئيس المجلس السابق ، فيوافق مباشرة فى انتظار أن يقيم له العمال حفل تكريم .. ولكن .. هناك أسلوب آخر ينتهى برئيس المجلس إلى الحيرة وهو أن يعرض عليه المشروع على الوجهين .. حق العمال وعجز الشركة .. وفى هذه الحالة يتحمل

رئيس المجلس المسئولية وحده .. وهو قد يقبل حتى لو تأكد من خراب الشركة لأنه يتحمل المسئولية السياسية وهى مسئولية تقديم الرشوة للعمال فى صورة علاوات وبدلات حتى يزدادوا إيمانا بالاشتراكية وبالثورة التى تحقق لهم كل هذا الرخاء .. أما إذا تردد رئيس مجلس الإدارة وخاف أن يخرب ويفلس الشركة بهذا المشروع فإنه لا يستطيع وحده أن يقرر الرفض ، لأن الرفض سيؤثر على الأوضاع السياسية ، فهو يلجأ ليستأذن الوزير الذى يتبعه إذا كان الوزير هو الذى عينه وهو صاحب الفضل عليه ، أو يستأذن رئيس الوزراء ، أو مركز القوة الذى يتبعه .. ويجب بعد ذلك أن ينسب الرفض أو القبول لنفسه .. ليس من حقه إطلاقا أن ينسب — خصوصا الرفض — إلى الدولة أو إلى إحدى الشخصيات الرئيسية وإلا فقد مركزه كرئيس مجلس الإدارة فى لحظة ووجد نفسه فى الشارع .. إن الاتصالات بالجهات العليا هى دائما اتصالات سرية يجب أن تبقى بعيدا عن الشارع .. بل إن مهمة رئيس مجلس الإدارة وأسس اختياره هى تحمل مسئولية إصدار قرارات باسمه دون أن يكون له ذنب فيها .. وهى دائما قرارات سياسية .. تعيين موظف قرار سياسى .. ونقل موظف قرار سياسى .. وعقد صفقة خارجية قرار سياسى .. وعقد صفقة داخلية قرار سياسى .. وتوزيع العلاوات والبدلات قرار سياسى .. والنجاح نجاح سياسى .. والفشل فشل سياسى ..

هذه هى بعض جوانب الفن الإدارى الذى أعتبر نفسى أحد عباقرته وأحد الفنانين الإداريين الموهوبين .. والواقع أنى لا أستطيع أن أنكر فضل الأستاذ سليمان عبد العزيز .. إنه أستاذى ورئيسى .. وظل أستاذى ورئيسى حتى اليوم الذى وجدنى فيه رئيسا لمجلس الإدارة ..

أى رئيسا له .. والواقع أن سليمان لم يكن أستاذى ورئيسى فحسب بل إنه صاحب فضل مباشر على فهو الذى وضعنى موظفا فى هذه الشركة ، وكان أيامها لا يزال يشغل مركز وكيل الإدارة ، وكنت تائها لم أستقر بعد على وضع معين .. كانت أحلامى أن أكون رجل أعمال .. أن أكون حرا أجرى وراء الصفقات وأخرج بالعمولات والسمسرة ، وظل هذا الحلم يطاردنى حتى كان يضطرنى إلى الاستقالة من كل وظيفة أحصل عليها لأتفرغ للأعمال الحرة ، وأفشل فأعود إلى الوظيفة .. أى وظيفة .. ثم أستقيل لأجرب الأعمال الحرة مرة أخرى وأفشل وأعود أبحث عن الوظيفة .. وكنت فى حالة ضياع عندما التقيت بالأستاذ سليمان فى مقهى « ريش » ، وأنا لست من زبائن المقهى ولكنى أتردد عليه أحيانا عندما أتذكر صديقا من زبائنه ، وكنت أرى سليمان هناك من بعيد .. إنه صديق لأصدقائى ولكنى لم أحاول أن أصادقه إلى أن تذكرت وأنا فى حالة الضياع التى كنت فيها أنه موظف كبير فى « الشركة العربية لإنتاج المتطلبات الشعبية » ، فقررت أن أتقرب إليه .. لماذا لا أحاول العمل فى هذه الشركة .. وأسخف وأغبى ما يمكن أن يتعرض له إنسان هو أن يقدم نفسه على أنه طالب وظيفة .. هذه حكمة يجب أن يؤمن بها كل من يبحث عن مستقبله .. لم أحاول أن أطلب من سليمان وظيفة ولكنى تقربت إليه عن طريق الأصدقاء المشتركين من زبائن المقهى .. وكنت أعرف أنه من هواة لعب الطاولة والشطرنج فبدأت أعطيه أوقاتا ممتعة من الطاولة والشطرنج .. إنى أستطيع بسهولة أن أكسبه فى كل مرة ألاعبه ولكنى حريص على إرضاء غروره بنفسه فكنت أتعمد أن أدعه يكسبنى دون أن

أضحى باحترامه لى كلاعب .. واستطعت فى أيام أن أكسب صداقته فعلا حتى أصبح يأتى إلى المقهى ليبحث عنى ، وأصبحت أتغيب متعمدا حتى يشتاق إلى أكثر .. وسليمان أكبر منى بعشر سنوات وتخرج فى كلية التجارة قبلى بخمس سنوات وقد تركه يحس بهذا الفارق دائما حتى أوجد نوعا من الكلفة بينى وبينه .. إن هذا أيضا نوع من الفن الإدارى أو فن العلاقات العامة وهو ألا ترفع الكلفة كلها بينك وبين من تتعامل معه حتى لا تعرض نفسك لفقد احترامه .. ولم ينقض أسبوعان حتى بدأ سليمان يعرض على العمل معه فى شركة المتطلبات الشعبية بعد أن سمع من بقية الزبائن أنى عاطل أو على الأقل لست موظفا ، وقد تظاهرت بالاعتذار فى أول الأمر مدعيا أنى أفضل التفرغ للأعمال الحرة ، وقال لى سليمان وهو يتحدث كأستاذ :

— إذا كنت رجلا إداريا فعلا فإن المجال الوحيد أمامك لممارسة الشخصية الإدارية هو أن تهاجر لتعمل حرا فى الخارج أو أن تعمل فى إحدى المؤسسات العامة فى مصر ، إلا إذا اكتفيت من الأعمال الحرة بافتتاح كشك سجاير أو دكان طرشى ..

وضحكت وقبلت أن أعمل موظفا معه فى « شركة المتطلبات الشعبية » كأنى أتنازل عن كل أحلامى من أجله ، والواقع أنى لم أقبل إلا بعد أن كنت قد درست كل كيان الشركة وتتبعت كل أخبارها .. إنى أستطيع بسهولة أن أجمع بين العمل الرسمى والعمل الحر داخل هذه الشركة .. فهى شركة لها حق التصدير والاستيراد ، ولها اتصال مباشر مع الجمهور فى توزيع إنتاجها .. لهذا تقوم بالأعمال الحرة بصفة رسمية .. وأى شركة من هذا النوع يستطيع أى موظف فيها أن

يعتبر نفسه رجل أعمال حرة ، أى أن يصبح من حقه فرض العمولات ووضعها فى جيبه سواء فى تعامله مع الخارج أو فى تعامله مع تجار الداخل ..

ومنذ اليوم الأول الذى بدأت فيه سير العمل فى الشركة وأنا أطبق المبادىء الثلاثة التى تعتبر أسس النجاح فى أى عمل إدارى ، وهى المبادىء التى لا يؤمن بها ولا يعرفها ـ للأسف ـ معظم القيادات الإدارية عندنا .. هذه المبادىء هى :

أن تكسب رؤساءك ..

أن تكسب زملاءك ..

أن تكسب مراكز القوى فى الدولة ..

والطريق لأن تكسب أى إنسان ليس هو طريق الاكتفاء بالمعرفة الشخصية وحدها ، وأن تتزاور معه عائليا ، وتجلس معه فى المقهى لتلعب معها الطاولة والشطرنج .. ليس هذا هو طريق الكسب الصحيح .. ولكن الطريق الوحيد هو طريق تبادل الخدمات .. أن تعطى وتأخذ .

ومنذ اليوم الأول وأنا أتحرك داخل المؤسسة باحثا عن الخدمات التى أستطيع أن أقدمها قبل أن أبحث عن الخدمات التى أطلبها لنفسى .. بل إنى بدأت أقدم كثيرا من الخدمات دون أن أترك أحدا يتصور أنى أريد منه أى خدمة ..

وكان أهم من أحرص على صداقته من بين الرؤساء هو طبعا الأستاذ سليمان صاحب الفضل على .. ومنذ الأيام الأولى تأكدت أن سليمان يمكن أن يكون عالما إداريا .. إنه يتصرف بنفس الطريقة التى يلعب بها

الطاولة يجيد أصول اللعبة ولا يستعمل المؤثرات الخارجية ضد من يلعب معه .. وهو يتعامل فعلا داخل المؤسسة على إنه عالم يحتاج إليه رؤساؤه كي يصيغ قراراتهم في صياغة علمية دون أن يحاول توجيه هذه القرارات بحيث تخدم أى رأى خاص به .. وحتى صغار العاملين في المؤسسة وأعضاء النقابة كانوا ينظرون إليه نفس النظرة .. عالم .. فإذا احتاجوا لشيء لا يتطلب العلم إنما يتطلب الفن الإدارى أى الفهلوة الإدارية .. لجأوا إلى غيره ..

وكان سليمان عنصرا مطمئنا محترما بين رؤسائه في حدود أن كل ما يقدمه من خدمات هي الخدمات العلمية . وقد قررت أنا أن أستغل عنصر الضعف فيه وأستولى على الجانب الفنى للإدارة .. والفن أقوى من العلم ، أو على الأصح أن الفن يستطيع دائما أن يضلل ويخدع العلم .. وقد نجحت فعلا في أن أحرك سليمان كما أريد لخدمة أهدافى .. بل استطعت عن طريقه أن أصل إلى كسب الرؤساء الأكبر .. رئيس المجلس والعضو المنتدب وأعضاء المجلس .. كسبتهم بوضع فنى في خدمتهم .. الفن الذى يستطيع أن يضع المكاسب الشخصية في صورة مكاسب عامة ، وأن يغطى الخسائر ويضعها في صورة أرباح ، وأن يجعل من الفواتير واللوائح أدوات بين أصابع المدير لا أدوات تهدده ..

وكان ذلك دون أن أخسر صداقة وثقة سليمان ، وكان أهم ما أعتمد عليه هو ألا أعامله كصديق بل أعامله دائما كرئيس .. إذا دخلت إليه في مكتبه بقيت واقفا أمامه إلى أن يدعونى إلى الجلوس .. ولا أناديه إلا بلقب أستاذ .. ولا أناقشه إلا في أسلوب يقنعه بأن الأمر له .. بل

إنى تعمدت ألا أتردد على مقهى ريش حتى لا أجلس معه بلا كلفة وأضطر أن ألعب معه الطاولة أو الشطرنج .. هذا أسلوب رئيسى للاحتفاظ برضاء وثقة رئيسك أى أن تجعله يشعر دائما بأنه رئيس .. ترضى غروره وتعفى نفسك من المسئولية .. وقد لامنى مرة سليمان لأنى لا أتردد على المقهى وقلت له مبتسما فى تواضع ..!

— يا فندم إنك تفتح نفسى للتفكير فى أعمال الشركة ، وأخشى إن التقينا فى المقهى أن تشعر كأننا لازلنا فى المكتب ..

وضحك سليمان ..

وهو يزداد ثقة بى واعتمادا على ويقفز بى فى كل مناسبة إلى درجة أعلى إلى أن أصبحت فى مركز مدير شئون العاملين ، ثم بعد أن أصبح سليمان مديرا عاما قرر أن أكون نائبا للمدير العام مع احتفاظى بسلطاتى كمدير لشئون العاملين .. وطبعا لم يكن سليمان وحده يستطيع أن يقفز بى لولا أنى استطعت فى نفس الوقت أن أكسب رضاء رؤسائه .. وأيضا فى نفس الوقت كنت أكسب ثقة من هم أقل منى من الموظفين والعمال بتقديم مزيد من الخدمات لهم حتى تبدو ترقيتى إلى مركز أعلى كأنها استجابة لمطالبهم ..

ونقطة ضعف أخرى كانت فى شخصية سليمان كرجل إدارى وهى النقطة الخاصة بالمبدأ الثالث من المبادىء الثلاثة .. المبدأ الذى يطالبك بأن تكسب مراكز القوى فى الدولة ..

إنه أهم المبادىء الثلاثة ..

هل سمعتم عن السيد « أوبروى » رجل الأعمال الهندى صاحب فنادق أوبروى العالمية .. لقد بدأ حياته موظفا صغيرا فى أحد فنادق

الهند .. كاتب حسابات .. ووصل إلى أن أصبح مؤسسا لشركة فنادق عالمية ، وحتى يضمن تحقيق مصالح الشركة بدأ العمل كشخصية سياسية داخل بلده فكون حزبا سياسيا يمثل فى مجلس النواب بعدد من النواب ، والسيد أوبروى نفسه كان نائبا .. وفجأة حل أوبروى حزبه السياسى واستقال من مجلس النواب .. وكنت متبعا لتاريخ حياته ومعجبا به كمثل لأحلامى كرجل إدارى .. أنا أيضا أتمنى أن أؤسس شركة عالمية .. وقد زار أوبروى مصر ليحضر افتتاح الفندق الذى أقامه عندنا ، وكنت أنا قد أصبحت رئيسا لمجلس الإدارة وطلبت مقابلته وقابلنى بتواضع شديد وترحاب فائق .. وسألته خلال حديثنا :

ــ لماذا استقلت من مجلس النواب وحللت حزبك السياسى ..

وقال أوبروى فى بساطة :

ــ أنا لست رجلا سياسيا أنا إدارى يبحث دائما عما يحقق مصالح أعماله ، وقد كنت مضطرا أن أكون حزبا سياسيا وأن أرشح نفسى لأن الحياة العامة فى الهند كانت تتطلب منى هذا حتى أضمن مصالح شركاتى .. ولكن الحياة السياسية تغيرت فى الهند .. وقد استطعت أن أتبين أن الحياة السياسية على وشك أن تتغير وأن القوة الكبرى ستفرض نفسها على الأحزاب وعلى النواب ، كما حدث عندكم فى أوائل الثورة ، وحتى أضمن استمرار مصالح شركاتى كان يجب أن أحل الحزب وانضممت أنا وبقية الأعضاء إلى هذه القوة الكبرى .. أى إلى حزب المؤتمر .. واستسلمنا لقيادة السيدة إنديرا غاندى .. إن رجل الأعمال الإدارى يجب أن يرتفع بأعماله فوق المعارك السياسية .. أن يستغل السياسة وهو حريص على ألا يضيع ضحية السياسة ..

ولم أكن فى حاجة إلى درس من السيد أوبروى فمنذ البداية وأنا أعرف أن الفنان الإدارى مضطر أن يلعب بفنه فى مجال السياسة .. وقد بدأت من الحضيض السياسى .. أى من اللجان الشعبية التى كانت تؤلف فى الأحياء .. لم أكن أرفض أبدا أى دعوة للاشتراك فى أى تجمع مادام تجمعا رسميا .. ولم أكن أتعمد أبدا أن أبدى رأيا سياسيا .. والواقع أن كل هذه اللجان والهيئات ليست فى حاجة إلى آراء سياسية .. والرأى المطلوب منك معروف مقدما .. ولكن كان نشاطى السياسى كله يعتمد على تقديم الخدمات الشخصية والتى قد لا يزيد بعضها عن تقديم دواء مستورد أو زجاجة ويسكى .. وقد تطور نشاطى فى المجال السياسى إلى أن وصل إلى أعلى المستويات .. وهو نشاط بعضه تتطلبه مصالح العمل كالعلاقة الشخصية مع الوزراء لتسهيل الإجراءات .. وشركتنا .. شركة المتطلبات الشعبية كانت أعمالها تتطلب الاتصال بوزارة التجارة ووزارة الاقتصاد ووزارة السياحة ووزارة الزراعة ووزارة الخارجية .. و .. و .. ولو اكتفى المسئولون عن الشركة بالاعتماد على الإجراءات الرسمية لما حققوا شيئا ، خصوصا وأن معظم أعمالها تحتاج إلى استثناء من الإجراءات الرسمية وتحايل على الإجراءات الرسمية ولم يكن هناك إلا طريق الاتصال الشخصى بالوزير أو بالشخصية القوية فى الوزارة ، لأن الوزير ليس هو دائما أقوى شخصية فى الوزارة .. ثم كانت هناك أغراض أخرى تحرك نشاطى السياسى ، وهى الاعتماد على قوة أعيش فى حمايتها ، وأحقق من خلالها أهدافى الخاصة ، وقد وصلت فى ذلك إلى أنى كنت يوما فى لجنة من لجان التنظيم السرى الذى كان يسمى

التنظيم الطليعى .. وكانت عضوية هذا التنظيم تفرض تقديم التقارير إلى الجهات العليا .. أعلى الجهات .. كل عضو يقدم تقريرا عن مجال نشاطه .. وكنت أقدم تقارير عن أعمال الشركة وعن علاقة هذه الأعمال بالأجهزة الحكومية ، ولكنى كنت حريصا على ألا أجرح فى تقاريرى أحدا .. بل كنت أقدمها كتقارير علمية وأترك من يصل إليه هذا التقرير أن يفسره كما يشاء .. وكان حرصي على ألا أذكر أحدا بالاسم فى أى تقرير هو أن هذا الأُحد الذى قد أذكره قد يعلم بما ذكرته وقد يكون من القوة بحيث يطيح بى ، وأنا إدارى حريص فنان لا أعرض نفسى لمثل هذه الاحتمالات خصوصا وأنى لم أعلم حقيقة هذا التنظيم الذى أنا عضو فيه ولا أعلم أين تذهب هذه التقارير التى نكتبها .. وكان أهم ما وصلت إليه هو صداقة وثيقة باثنين من الشخصيات المتصلة اتصالا مباشرا بالرئاسة .. إنى لا يمكن أن أصل إلى الرئيس نفسه .. وأى رئيس لا يمكن أن يجمع فى جدول أصدقائه كل من يحتاج إليهم ولكنه يكتفى بجدول صغير ثم يعتمد على أفراد هذا الجدول فى اختيار من تحتاج إليهم المناصب والمراكز الهامة .. إن القرار الجمهورى الذى يصدر بتعين رئيس مجلس إدارة مثلا، أو موظف كبير كوكيل وزارة أو سفير ، هذا قرار لا يعنى أن الرئيس شخصيا يعرف هذا الشخص وأنه اختاره بنفسه ، ولكنه يعنى أن الرئيس قد وصلته معلومات كافية عن هذا الشخص .. من أين وصلته المعلومات ومن رشح هذا الشخص .. طبعا عن طريق القلة المختارة ممن يحيطون بالرئيس .. هذا ما يحدث فى جميع دول ونظم العالم .. وقد أصبح لى اثنان من هذه القلة المختارة .. وكل هذا ينقص الأستاذ

سليمان .. كان ينقصه الاتصال بمراكز القوى وكسب صداقة الشخصيات الرئيسية الهامة ..

ولكن ....

كان أكثر ما يحيرني في الأستاذ سليمان هو علاقته بخديجة .. السيدة خديجة مرتضى .. واسم الدلع جيجي .

وأقول الحق إني لم أكن أغار من شيء في سليمان إلا من علاقته بجيجي .. العلاقة التي لا أعرف أصلها ومداها .. سليمان أصبح كله في جيبي ولكن جيجي ليست في جيبي معه .. وهي تثير فيّ كل إحساسي كرجل إدارة .. إنها صفقة رابحة من كل نواحيها .. مجموعها يساوي الملايين .. الأنف + العينان + الشفتان + القوام + النظرة + الابتسامة + ملامح الذكاء = ألف مليون فرصة نجاح ..

وكانت جيجي تزور سليمان في مكتبه مرة أو مرتين في الشهر ، وفي كل مرة كان سليمان ينقلب إلى شخصية أخرى .. فالباب يغلق عليه وعليها ساعتين أو أكثر .. ماذا يحدث خلف الباب .. الله أعلم .. إن المكاتب الرسمية أيضا تشهد لقاءات مثيرة بين الرجل والمرأة كعيادات الأطباء ، مادام صاحب المكتب — كالطبيب — مطمئنا إلى أن الباب لن يفتح .. وكان سليمان في هذه الزيارات ينتابه نوع من النشاط ليس من طبيعته فهو يتركها في انتظاره ويجري ليجتمع برئيس مجلس الإدارة ، ثم يجري ليجتمع بالعضو المنتدب ، مع أنه ليس من عادته أبدا أن يتحمل مسئولية الإجراءات التنفيذية .. إنه عالم إداري وليس منفذا إداريا .. وكان يعهد إليّ دائما بإجراءات التنفيذ بما فيها الاتصال برئيس مجلس الإدارة والعضو المنتدب إلا إذا زارته جيجي

فإنه يتولى بنفسه كل شيء ويتركنى أنا كالساعى أنقل الأوراق وأحولها من مكتب إلى مكتب محتفظا طبعا بالسرية المطلقة للعملية ..

العملية التى كانت تجيء من أجلها جيجى هى الحصول على أذون استيراد باسم الشركة لتستورد بها بضائع تتاجر بها لحسابها .. بضائع شعبية .. غسالات كهربائية .. أقلام باركر .. سيارات .. أدوات مكياج .. إلى آخر هذا النوع من البضائع التى يحتاج إليها الشعب .. وهذه العملية التى تقوم بها جيجى هى نوع من العمليات التى كانت شائعة قبل عصر الانفتاح وضاق مجالها بعد الانفتاح .. وهى ما يمكن أن تسمى عمليات من الباطن .. أى من باطن القطاع العام والمؤسسات الرسمية .. جيجى تقوم بالصفقات من باطن شركة المتطلبات الشعبية .. وكثير من كبار الموظفين يعملون لحسابهم الخاص من باطن الشركات التى يعملون بها ، سواء كانت شركات تجارية ، أو شركات المقاولات ، أو حتى شركات الصناعة والزراعة .. وهى عمليات لها منطق مدروس ، فبدلا من أن تعمل لحساب الشركة وتحصل لنفسك على عمولة ، فأنت تعمل لحسابك الخاص وتعطى الشركة عمولة .. منطق معقول لا عيب فيه إذا ما تجاهلنا كل ما يقال عن النظم الاشتراكية .. نوم العوافي بالاشتراكية ..

وقد حاولت أن أعرف كل شيء عن خديجة .. جيجى .. ولكنى لم أعرف الكثير .. إنها سيدة معروفة فى المجتمع ، وتدعى إلى كثير من الحفلات الخاصة والعامة ، وزوجها يدعى معها وليست هى التى تدعى معه .. وهو موظف كبير محترم وصل إلى درجة وكيل وزارة ولكن ليس له شأن كبير فى وزارته بل إن وصوله إلى درجة وكيل وزارة

ينسب الفضل فيه إلى زوجته جيجي .. هي تتولى بنفسها وأحد أصدقاء شقيقها .. وهو مسيحي من عائلة مسيحية كبيرة كانت في منتهى الثراء قبل الثورة .. وهناك كلام عن علاقة هذا الصديق بجيجي .. إنه صديقها وليس صديق شقيقها .. ولكنه كلام لا يصل إلى حد الفضيحة .. من يدرى ربما كان مجرد كلام .. وسليمان أيضا صديقها .. صديق العائلة .. ولم أسمع أكثر من هذا عن علاقتها بسليمان .. وأنا حائر ، فلا يمكن أن يبذل سليمان كل هذا الجهد من أجل جيجي ويعطيها كل هذا الاهتمام الذى قد يمس سمعته ومستقبله وليس بينه وبينها أكثر من الصداقة ..

وكان سليمان يدعوني أحيانا إلى مكتبه خلال زيارة جيجي له حتى يعرض على الإجراءات التي تدخل في اختصاصي .. وكنت أتعمد في هذه اللحظات أن أكسب اهتمامها .. أن أغريها بنفسي .. فأطيل في شرح الموضوع حتى أقنعها بشطارتي وأشعرها بأني كاشف لكل أسرار العملية حتى تحسب حسابي ، ثم كنت أتعمد أن أبدو رجلا يثير أحلام النساء ، أضع رنة مخصوصة في صوتي .. وأرسم على شفتي ابتسامة لها معنى .. وأطلق من عيني نظرة فيها قوة رجل معتز بنفسه .. ولكن كل ذلك لم يبد أن يؤثر على جيجي .. إنها تواجهني بنوع من التعالي كأنها لا يمكن أن تنزل بنفسها إلى مستوى أقل من مستوى مدير عام حتى لو كنت نائب مدير عام .. وأكثر من ذلك .. لقد تعمدت يوما أن أفتعل كأن هناك مشكلة خاصة بعملية جيجي واتصلت بها بالتليفون .. إنها بداية يمكن أن تؤدى إلى علاقة تليفونية ثم إلى علاقة شخصية .. ولكن جيجي ردت علىّ بجفاء وحسم قائلة :

ـــ آسفة الموضوع كله في يد سليمان بيه .. اعرضه عليه ليتصرف ..

وكأنها صفعتني ..

وطبعا أسرعت يومها لإبلاغ سليمان بأني اتصلت بجيجي قبل أن تسبقني وتوقع بيني وبينه ، فقد كان الفن الإداري الذي يفرض على اكتساب ثقة الرؤساء أقوى دائما من اندفاعي وراء أغراضي الخاصة ..

إلى أن فوجئت بأن أصبحت رئيسا لمجلس الإدارة .. لقد كانت مفاجأة لي فعلا ، وليس معنى هذا أني لم أكن أحلم بأن أكون رئيسا لمجلس الإدارة وأن أسعى إلى أن أكون .. ولكن الأحداث أحيانا تكون أسرع من الأحلام .. ولم يكن هناك أي حدث جديد خاص بأعمال الشركة أو بتصرفات رئيس مجلس إدارتها ، ولكن الأحداث كانت تخص تصارع مراكز القوى القيادية .. وقد ضعف المركز الذي كان يستند عليه رئيس الإدارة السابق ، وازدادت قوة المركز الذي يضم الشخصيتين اللتين كنت قد كسبت صداقتهما وثقتهما .. ولا داعي لذكر الأسماء فوجدت نفسي رئيسا لمجلس الإدارة ..

ولا شك أني أصبحت رئيسا لا تقديرا لكفاءتي كرجل إداري ولكن تقديرا لإخلاصي لمن سعوا إلى تعييني ولأنهم يمنحونني شهادة ثقة هي أقوى من أي شهادة علمية يمكن أن أحصل عليها .. نفس النظرية المعروفة التي تفرق بين أهل الثقة وأهل الخبرة .. ولكن لا شك أيضا أني رغم ذلك رجل إداري كفء وذو خبرة .. وهذا هو أصعب ما يمكن أن يواجه أي رئيس وهو يختار من يعمل تحت رئاسته .. رئيس

الجمهورية يحتار وهو يبحث عن رئيس وزراء يجمع بين الثقة والخبرة .. ورئيس الوزراء يحتار فى اختيار وزراء يجمعون بين الثقة والخبرة .. وكل وزير أيضا يحتار فى اختيار معاونيه ممن يجمعون بين الثقة والخبرة وكذلك رؤساء مجالس الإدارة .. والمفروض أنه عندما تتعاون الثقة مع الخبرة فإن ما يتغلب هو الثقة .. أى أن ثقة بلا خبرة خير من خبرة بلا ثقة ..

ولكن

ما هى الثقة التى يمكن أن تجمع بين رئيس ومرؤوسيه ؟

إن العنصر الأساسى لوجود هذه الثقة هو أن يكون الرئيس صاحب فضل على المرؤوس وأن يعترف المرؤوس بهذا الفضل اعترافا كاملا .. وفى الوقت نفسه يكون الرئيس ممسكا دائما بكل الخيوط التى تتحكم فى وجود المرؤوس .. ليست الخيوط التى تمسك به دائرة العمل فحسب بل أيضا الخيوط التى تمسك به فى حياته الخاصة والحياة الاجتماعية .. هناك رؤساء يتعمدون أن يتركوا المرؤوس يقع فى مصيبة ، كأن يزور أو يختلس أو يتآمر ، ثم يكشفه دون أن يقدمه للتحقيق أو المحاكمة حتى يظل ممسكا بعنقه طول عمره .. وهو كما كان يقال عن أحد زعماء الأحزاب التى كانت قائمة قبل الثورة ، فقد كان هو نفسه رجلا أمينا نزيها نظيفا ولكنه كان يترك أعضاء حزبه يسرقون من أموال الدولة ويزورون ويأثمون حتى يكون لكل واحد منهم ذلة يمسكه منها ويضمن بها انطواءه تحت رئاسته وإخلاصه للحزب ..

أى أن المطلوب دائما أن يكون المرؤوس تابعا للرئيس بمعنى التبعية .. خادما مطيعا مستسلما .. لا بحكم الإيمان المشترك بالمبادىء والأهداف ولكن بحكم تبادل الخدمات ..

هذا هو أول ما واجهنى بعد أن أصبحت رئيسا لمجلس الإدارة .. أن يكون كل من حولى ملكى .. أتباعى .. يعترفون بفضلى عليهم .. وبعد ذلك نتبادل الخدمات .. وكانت أول مشكلة هى مشكلة عضو مجلس الإدارة المنتدب ..

والمشكلة هى أن عضو مجلس الإدارة يعين بقرار جمهورى كرئيس المجلس .. أى أنه لا يتبعنى .. ولكنه يتبع الجهات العليا .. والعضو المنتدب فى أى مؤسسة هو مفتاح الخزينة .. المفتاح ليس فى جيب رئيس مجلس الإدارة ولكنه فى جيب العضو المنتدب .. ومهما سجلت حسابات الخزينة فى دفاتر ورروجعت فى تقارير فإن أسرار الخزينة تبقى ملكا للعضو المنتدب وحده ..

ولذلك فإن العضو المنتدب هو دائما مركز القوة الحقيقية فى كل مؤسسة لأنه مركز التحكم فى كل قرش ، وكل موظف أو عامل يعلم أن لا يمكنه الوصول إلى أى قرش إلا عن طريقه ..

وهذه القوة التى يستولى عليها العضو المنتدب بحكم منصبه تجعله يصاب بنوع من الغرور يدفعه لأن يتخيل أنه أحق من أى إنسان آخر بتولى منصب رئيس مجلس الإدارة ، ويجعله يستهزىء ويحتقر فى قرارة نفسه أى رئيس .. وكثير من رؤساء مجلس الإدارة راحوا ضحايا للعضو المنتدب ، وكثيرون أيضا من الأعضاء المنتدبين راحوا ضحايا

لرئيس مجلس الإدارة ..

وقد صدم عبد الستار برعى العضو المنتدب لشركة المتطلبات الشعبية صدمة أذهلته بتعييني رئيسا لمجلس الإدارة ، فقد كنت مرؤوسا في الصف الثالث من مرؤوسيه ، ورغم أنني كنت أتبادل معه بعض الخدمات الخاصة وكان يعرف عني أني ذكي وشاطر إلا أنه لم يكن يتصور أبدا أن أكون رئيسا عليه .. وهذا في الواقع هو من أبرز عيوب حركات التعيينات الذى تتخذها المراكز العليا .. يرفعون مرؤوسا فوق رئيسه دون أن يقدروا أثر ذلك على نفسية الاثنين ..

وقد تأخر عبد الستار برعى ثلاثة أيام قبل أن يأتى إلى ليهنئنى بالمنصب الجديد ، وذلك حتى يثبت أنه لا يهتم كثيرا بى ولا بمنصبى وأني لا أساوى شيئا بجانبه ، إنما أنا فقط أحد المنافقين للجهات العليا وقد جعلوني رئيسا على سبيل منحى وسام نفاق لا على أن أكون ذا شأن في الشركة ..

وقد استقبلته في منتهى التواضع ، وتحملت نظراته التي تصب الحقد وابتسامته المفتعلة التي تقطر سما ، ولم أفاتحه في أى موضوع من موضوعات العمل ، وحتى عندما حاول أن يعرض على موضوعا قلت له في تواضع :

— يا عبد الستار بيه .. أنت أدرى والأمر لك ..

وقد تعمدت ذلك لأنني منذ تلقيت خبر تعييني رئيسا للمجلس وقد قررت أن يخرج عبد الستار من الشركة كلها .. وسعيت .. ومنطقى معى ويمكن أن أقنع به كل المسئولين .. وفعلا .. لم يمض أسبوعان

حتى نقل عبد الستار إلى شركة أخرى ..

وكنت أنا الذى رشحت بيومي عبد الله عضوا منتدبا جديدا للشركة .. لم يكن صديقا حميما ولكنى كنت أعرفه كإدارى له قيمته .. وقد كان يعمل فى شركة أخرى ثم راح ضحية رئيس مجلس إدارة آخر كما راح عبد الستار ضحية لى .. وكان يتقاضى مرتبه بلا منصب وبلا عمل .. وطبعا فرح فرحة الدنيا عندما وجد نفسه فى المنصب الجبار .. منصب العضو المنتدب .. واعترف لى بفضلى عليه واستسلم لكل تعليماتى اعترافا بهذا الفضل ..

وبعدها أجريت تنقلات كثيرة بين كبار موظفى الشركة .. إنى أريد أن يشعر كل منهم بأنى صاحب فضل عليه .. وكل منهم تابعى ومن كان تابعا للرئيس السابق أو للعضو المنتدب السابق وبقى مصرا على ما يسمى الوفاء للقديم تخلصت منه بسرعة ووضعته حيث لا يجد لنفسه شأنا ولا قيمة دون أن أطرده من الشركة لأن قوانين العمل لا تبيح الطرد .

وقد كانت هذه التنقلات تثير ضجة داخل الشركة فالعضو المنتدب السابق وكبار الموظفين لا شك أن لكل منهم أعضاء وأتباعا بين الموظفين والعمال ، ولكنى كنت أغطى هذه الضجة بتوزيع علاوات ومكافآت جديدة ولو حسبت قيمة العلاوات التى توزع فى مناسبة تعيين كل رئيس مجلس إدارة جديد لوجدت أنها أكبر من قيمة أى علاوة تصرف فى أى مناسبة أخرى .. كل رئيس يبدأ عهده بتوزيع علاوات .. توزيع رشاوى .. حتى يكسب تأييد وهتاف الموظفين

والعمال .. وبجانب هذا فإنى بحكم وظيفتى السابقة كمدير شئون العاملين كنت أعرف نقطة الضعف فى كل عامل وموظف ، وكنت أصل إليه من خلال ضعفه لأكسبه ، واستطعت بذلك أن أكسب حتى من كانوا يدعون الوفاء لرؤسائهم السابقين ..

وهكذا أصبحت الشركة فى يدى .

لم يبق أمامى إلا مشكلة أستاذى سليمان ومعه خديجة .

— ٢ —

إن سليمان عبد العزيز صاحب فضل علىّ هذا صحيح وأنا معترف بفضله .. وهو أيضا أستاذى .. وأنا معترف بأستاذيته .. ولكن من المستحيل أن تكون رئيسا على من هو صاحب فضل عليك ثم تستطيع أن تمارس عليه سلطات رئاستك ، ولا يمكن أن يكون التلميذ رئيسا على أستاذه .. هذه هى القاعدة العامة حتى بالنسبة لأعلى المراكز .. وجمال عبد الناصر كان لا يمكن أن يمارس رئاسته كاملة بالنسبة لأصحاب الفضل عليه ، وكان مضطرا أن يتخلص منهم كلهم حتى يستطيع أن يرتاح فى رئاسته .. كما لو يحس أن وضع أى أستاذ من أساتذة الثورة فى أى منصب أو مركز هام .. الأساتذة الذين حرضوا فكريا على الثورة ، وخططوا التنظيمات الثورية ، ووضعوا التفسير السياسى للثورة ، ورسموا الإجراءات الثورية .. هؤلاء كلهم أبعدوا عن المناصب القيادية والمراكز التنفيذية وكرموا بمنحهم معاشا استثنائيا وبتحقيق بعض مطالبهم الشخصية ، ومن لم يكتف منهم بذلك وطالب بحقوق ومركز الأستاذ نزعت عنه صفة الأستاذية وراح فى داهية .. بل حتى أعضاء مجلس قيادة الثورة الأوائل لم يستطيعوا أن يستسلموا لرئاسة ولا أن يعتبر واحد منهم نفسه مرؤوسا للآخر ، لأن كلا منهم لا يعترف للآخر بفضل عليه .. ومنذ العام الأول للثورة

اعتقل مجلس الثورة أحد أعضائه ، ونفى عضوين آخرين إلى الخارج ، ثم مع السنين أخذ مجلس القيادة يأكل بعضه بعضا ، حتى اكتملت قوة الرئاسة لجمال عبد الناصر ..

وهذا أيضا كان مقدرا أن يحدث بالنسبة لي بعد أن أصبحت رئيسا لمجلس إدارة « الشركة العربية لإنتاج المتطلبات الشعبية » .. كان لا يمكن أن أستسلم لصاحب فضل عليّ أو أستاذ لي حتى لو اعترفت بفضله وأستاذيته .. الاعتراف شيء وممارسة السلطة شيء آخر ..

وأقول الحق إن أي رئيس يصاب بنوع من الغرور بالنسبة لمرؤوسيه .. وأعترف أني أصبت بهذا الغرور .. لقد وجدت نفسي أهم شخصية في الشركة .. أنا الحاكم بأمر الله .. ثم وجدت رئيس الوزراء ونواب رئيس الوزراء والوزراء يتصلون بي بالتليفون ليسألوا أو يطلبوا .. ووجدت أنه أصبح من حقي أنا الآخر أن أتصل بكل منهم لأعرض موضوعا وأحيانا لمجرد السؤال عن الصحة .. ثم أني دائما مدعو في الاحتفالات الرسمية ، وأوضع في الصف الأول وأتقدم لمصافحة رئيس الدولة .. ومكتبي الفخم المكيف الهواء ، والسيارة الرسمية المخصصة لي وسائقها .. لقد أصدرت أمرا منذ اليوم بتغيير سائقي الخاص .. يجب أن يكون أسمر الوجه من أهل النوبة وأن يرتدي حلة كاملة زاهية .. هكذا يجب أن يكون سائق رئيس مجلس الإدارة .. و .. و ..

وسليمان لم يعترف بكل هذا الذي حدث لي .. لم يحاول أن يعترف بسلطاتي الجديدة أو يرضي غروري .. كان يدخل إلى وليس في ملامح وجهه هذه اللمسات التي تعلن الخضوع والاستسلام للسيد

الرئيس ، ثم يجلس دون أن أدعوه للجلوس ، ويتكلم كأنه يلقي درسا .. وكنت في الوقت نفسه أجد نفسي أقوم واقفا لاستقباله وهو شيء لا يمكن أن يحدث بين رئيس مجلس الإدارة ومجرد مدير عام .. وكما لا يستطيع سليمان أن ينسى أنه كان رئيسا على ، كنت أنا أيضـ لا أستطيع أن أنسى أني كنت مرؤوسا له .. بل أنه منح نفسه حق الدخول على في مكتبي دون استئذان السكرتير أو تحديد موعد سابق ، وكان أحيانا يتصل بي بالتليفون ويقول في بساطة :

ــ هناك موضوع يجب أن يعرض عليك .. أتحب أن تأتي إلى أ. آتي إليك .. ؟

إلى هذا الحد يرفع الكلفة بيني وبينه ، وقد كان هذا ممكنا لو كـ أصدقاء ، ولكني قلت له إنه منذ اليوم الأول الذي عينت بفضله في الشركة تعمدت أن أتنازل عن أسلوب الصداقة وأضع الكلفة الرسميا بيني وبينه وهو ما يفرضه الفن الإداري كالأسلوب الأضمن في استمرار علاقة العمل بين الرئيس والمرؤوس ..

ومنذ اليوم الأول لتولي الرئاسة وأنا أقدر كل هذا في تصرفات سليمان ، ولذلك لم أفكر في أن أطلب تعيينه عضوا منتدبا بعد أن عزلت العضو المنتدب السابق ، وهو ما كان ينتظره كل من في الشرك ظنا منهم أني يمكن أن أستسلم لفضل سليمان علي وأستاذيته لي . وربما كان هذا هو المعقول .. المدير العام يرتقي إلى مركز العضو المنتدب .. ولكن الفن الإداري أي فن الذكاء والفهلوة الإدارية يرفض هذا المعقول .. لأن الرئيس في حاجة لموظف هو الذي يصنعه ويصبح مالكا له ، لا موظف ليس للرئيس فضل عليه .. ثم أن سليمان كموظف

قديم في الشركة على علم بكل أسرارها وخصوصا بكل الأسرار التى تتعلق بى .. إنه يعرف عن الشركة أكثر مما أعرف .. وهذا ليس فى صالحى كرئيس مجلس إدارة ، وكان يجب أن أبحث عن رجل من خارج الشركة أعينه عضوا منتدبا حتى أكون أنا العالم بالسر .. وأنا الذى أعطيه من الأسرار ما يهمنى أن يعرفه .. وأى موظف فى هذه الشركة ــ شركتنا ــ لا يمكن أن يعرف من الأسرار إلا ما يعيشه منها ، وسليمان عاش معظمها أما العضو المنتدب الذى اخترته فلم يعش منها شيئا ولا يمكن أن يصل إلى أكثر مما أبيح له من أسرار ..

ورغم ذلك ، فإن سليمان أعطى لنفسه حقوق ممارسة اختصاصات العضو المنتدب دون أن يحاول استئذانى أو الاتفاق معى .. وقد حدث أن أصدرت أمرا إلى العضو المنتدب بتعيين ثمانية موظفين جدد .. خمسة شبان وثلاث آنسات .. أقول أصدرت أمرا لأنى منذ البداية وأنا أتعامل بالأوامر لا بالقرارات .. وكنت أعتقد أن أمر التعيين قد نفذ بالنسبة للثمانية .. ولكنى فوجئت بعد أسبوع بسليمان يتصل بى بالتليفون الداخلى للشركة ويقول لى بكل وقاحة :

ــ هذه التعيينات لا يمكن أن تتم .. ليس بينهم واحد مؤهل للوظيفة التى وضع فيها ، والآنسات الثلاث ، مازلن طالبات فى الجامعة ولا يصلحن لوظائف السكرتارية كما ينص القرار ..

وقلت فى حدة :

ــ هذا الكلام لا يقال فى التليفون يا أستاذ سليمان .. أعد الأوراق إلى مكتب السيد العضو المنتدب وسأبحث الموضوع معه ..

وقال سليمان مستمرا فى جرأته :

— سأحمل الأوراق بنفسى إليك .. انتظرنى .

وقلت وأنا أكثر حدة :

— آسف .. مشغول .. والعضو المنتدب هو المختص ..

وألقيت بسماعة التليفون كأنى ألقيها فى وجه سليمان ..

والمفروض أنه مادام العضو المنتدب قد وافق على أوامر رئيس المجلس فإن مرور الأوراق على باقى الموظفين يعتبر مجرد إجراءات شكلية .. ليس من حق أحد منهم أن يعترض .. ثم من أدرى سليمان بأسباب تعيين هؤلاء الثمانية .. إن واحدة من الآنسات هى ابنة أخت وزير الخارجية ، والثانية والثالثة أوصى عليهما وزير الاقتصاد ، واثنين من الشبان المعينين أصدقاء ابن محمد عبد الرحمن رئيس شركة الاستيراد والتصدير وقد أوصانى عليه شخصيا ، والثالث هو ابن عم شخصية بارزة فى مجلس الأمة .. و .. و .. كل منهم وراءه سند ودافع قوى لتعيينه .

وأنا فى كل حفل عام أو خاص أدعى إليه ، وأكثر من ستين فى المائة من الزائرين الذين استقبلتهم فى مكتبى، أواجه بطلبات تعيين موظفين أو بطلبات الحصول على بعض أنواع البضائع المستوردة .. إن رؤساء مجالس الإدارة كالأطباء تلاحقهم دائما مطالب الناس .. فكل من يقابل طبيبا يسأله عن مرض أو عن دواء ، وكل من يقابل رئيس مجلس إدارة يطلب منه وظيفة أو بضاعة .. وهذه هى الدنيا .. حتى لو التقيت برئيس الوزراء نفسه لا يخلو اللقاء من طلب تعيين أو طلب بضاعة .. وأنا أتلقى هذه الطلبات دائما بترحاب فإن ما يرضى غرورى أن تمتد إلى يد تطلب وتستجدى .. ثم أقيس قيمة من يطلب منى ، ثم قيمة ما

يمكن أن أطلبه أنا منه فى مقابل تحقيق طلبه .. أقيس كل ذلك ثم أصدر أمرى إلى العضو المنتدب ، أو أتجاهل الطلب أو أنساه ..

وكل هذا لا يكون دائما على حساب مصالح الشركة فأنا أعلم أن الشركة تعانى من زيادة العمالة وأعلم أنه يفرض عليها كل عام تعيين نسبة من خريجى الجامعة .. وكل من ترسلهم الدولة للتعيين لا يصلحون عادة للعمل فى الشركة .. والسياسة التى أتبعها لا شك أنها تخفف من ثقل ضغط تعيينات على الشركة ، فأنا ألبى طلب الشخصيات المسئولة فى تعيين أقاربائهم وأولاد أصدقائهم ، ولكنى نظير ذلك أستطيع دائما أن أخفض من نسبة تعيينات الخريجين الذين ترسلهم إدارة القوى العاملة .. فإذا أصدرت الدولة مثلا قرارا بتعيين خمسين موظفا جديدا استطعت أن أخفض الرقم إلى ثلاثين ، وأكون أنا قد عينت خلال العام وعن طريق الوساطات عشرة موظفين فيصبح عدد المعينين خلال العام أربعين موظفا .. أى أننى وفرت على الشركة عشرة من مجموع المعينين سواء عن طريق الواسطة أو عن طريق إدارة القوى العاملة .. وكل هذا لا يعرفه سليمان ..

وليس من حقه أن يطلب منى أن أطلعه على أسرار أوامر التعيينات التى أصدرها .. هذا بالكثير هو من اختصاص العضو المنتدب إذا أراد أن يعرف شيئا من الأسرار ، وسليمان ليس عضوا منتدبا ..

وقد استدعيت يومها العضو المنتدب وأمرته أن تتخذ قرارات التعيين بتخطى المدير العام السيد سليمان عبد العزيز ..

وقال العضو المنتدب : حاضر ..

وقد بدأت بعد ذلك عملية تجاهل اختصاصات المدير العام ، أى

تجاهل اختصاصات سليمان ، ولا شك أن سليمان أحس بذلك ولكنه لم يحاول أن يثير ضجة أو يجعل من نفسه مشكلة في مواجهتي ، فهو كما قلت عالم إداري وليس فنانا إداريا ، والفنان الإداري هو الذي يستطيع أن يدخل المعارك ويثير المشاكل .. ومن ناحيتي فإني لم ألق بكل ثقلي على سليمان بل كنت أتعمد الاتصال به بين وقت وآخر ، وأتظاهر كأني أستشيره وأستعين برأيه في مشكلة من مشاكل الشركة ، والواقع أني كنت حريصا على الاحتفاظ به إلى أن أستطيع أن أصل إلى خديجة .. جيجي .. المرأة التي يصل مجموع جمال ملامحها إلى أكثر من ألف مليون ، والتي كانت حلما من أحلامي البعيدة منذ كنت مجرد موظف في الشركة ..

وقد سبق أن قلت لم أستطع أبدا أن أحدد علاقة خديجة بسليمان ، ولكنها تتردد عليه في مكتبه وتخرجه عن طبيعته فيتحرك إداريا في نشاط عجيب ويجرى إلى رئيس مجلس الإدارة وإلى العضو المنتدب ليصل إلى تحقيق ما تريده جيجي .. وجيجي كانت تريد في كل مرة الحصول على إذن استيراد باسم الشركة تستورد به بضائع تتاجر بها لحسابها .

ومرت فترة طويلة منذ أصبحت رئيسا لمجلس الإدارة وجيجي لا تظهر في الشركة ، ولا تزور سليمان في مكتبه .. وأحب أن أقول إن من بين التنظيمات التي أدخلتها على الشركة تنظيما للمخابرات الخاصة يعمل لحسابي مباشرة .. فكل ما يجرى في الشركة أعلم به في ساعتها وأولا بأول بما فيها الزيارات والاجتماعات التي تحدث في مكاتب كبار الموظفين .. وهذا ليس عيبا ولا يعتبر تجنيا على العاملين في

الشركة بل هو تنظيم طبيعي تعتمد عليه الدولة كلها ، وبما أن الشركة هي شركة عامة فيجب أن تطبق نفس النظم التى تطبقها الدولة ، ورئيس مجلس الإدارة لا تقل مسئوليته في حدود اختصاصه عن مسئولية رئيس الجمهورية ، فهو في حاجة إلى نفس ما يحتاج إليه رئيس الجمهورية مع الفارق الكبير فى المسئوليات ..

إلى أن كان يوم ..

وأبلغتني المخابرات الخاصة أن خديجة قد وصلت إلى الشركة وأنها فى مكتب سليمان .. وجلست في انتظار أن يتصل بى سليمان ويطلب مقابلتي ليسألني الموافقة على طلبات خديجة كما هى عادته التي أعرفها منذ كنت أعمل مرؤوسا له .. ولكنه لم يتصل بى مباشرة بل اتصل بعضو مجلس الإدارة المنتدب السيد بيومي عبد الله .. وقد اتصل بى بيومى بعد أن تركه سليمان مباشرة وقال لى كل ما جرى بينهما من حديث .. إنه يطلب لخديجة نفس الشيء .. أن تصرف لحسابها باسم الشركة .. وقال لى بيومي إنه أبلغ سليمان أنه لا أحد يستطيع أن يتخذ مثل هذا القرار إلا رئيس المجلس .. وقد طلب سليمان من بيومي أن يتولى عرض الموضوع على ، ولكن بيومي اعتذر له وقال له إنه يرى أن يقوم هو ــ أى سليمان ــ بالاتصال بى ..

لماذا لا يريد سليمان أن يواجهني بطلبات جيجى ..

ربما لأنه لا يزال يعتبر نفسه أستاذي وصاحب الفضل علىّ ولا يريد أن يقف أمامي موقف الاستجداء .. أو ربما لأنه يعلم أني مطلع على أسرار العملية كلها وأنها عملية سبق أن تمت أكثر من مرة ، فلا حاجة له أن يتصل بى بخصوصها ..

وقد اضطر أن يلجأ إلىّ بعد أن رفض بيومى أن يتحمل المسئولية ..
ولأول مرة رأيته يجلس أمامي في تواضع متنازلا عن مركز أستاذيته ويتكلم من خلال ابتسامة منافقة وفي صوت أقرب إلى الاستجداء ..
وقلت له بعد أن انتهى من عرض الموضوع :

ـــ اسمع يا أستاذ سليمان .. أنت تعرف أني ملم بالموضوع كله وقد كان يمر على عندما كنت نائبا لك .. نائب المدير العام .. ولكن الموقف الآن تغير بالنسبة لي بعد أن أصبحت رئيسا لمجلس الإدارة .. إنها مسئولية كبيرة ليس من السهل تحملها ..

ونظر إلى في تعجب وقال :

ـــ رئيس مجلس الإدارة السابق كان يوافق ..

وقلت مقاطعا في لهجة الغرور :

ـــ لست مسئولا عن الرئيس السابق .. وربما كانت مثل هذه العملية أحد أسباب طرده من الشركة ..

ورفع سليمان رأسه كأنه قرر أن يتحداني وتكلم كأنه عاد أستاذا لي وصاحب فضل على :

ـــ هذه العملية في صالح الشركة ..

وابتسمت ساخرا وقلت :

ـــ إن السماح باستغلال اسم الشركة والعمل من باطنها ليس من صالحها .. إنها عملية اعتداء على القانون وعلى اللائحة .. وأنت تعلم أن عمليات الاستيراد محرمة على الأشخاص وعلى الهيئات الخاصة ، فإذا استطاع شخص أن يستورد لحسابه الخاص باسم شركة عامة فهذه جناية تزوير في أوراق رسمية ..

ونظر إلى سليمان فى استهانة ولوى شفتيه فى قرف وقال وكأنه يبصق كلامه فى وجهى :

— كلام عجيب يا عبد السميع .. ولماذا كنت ساكتا على جرائم التزوير كل هذه المدة ..

قلت وأنا أنظر إليه فى تحد ..

— لأنى لم أكن مسئولا عنها ..

قال فى حدة وكأنه يلقى خطابا سياسيا :

— لا .. لقد كنت تسكت لأنك تعلم أن هذه العملية تحقق أرباحا للشركة .. إننا نسمح لهؤلاء الأشخاص بالعمل من باطن الشركة نظير عمولة يدفعونها .. وأنت تعلم أن العملية تحتاج إلى رأسمال فى حدود خمسة وعشرين ألف دولار والذين يقومون بها يدفعون عمولة تصل إلى خمسة آلاف جنيه أو حوالى واحد على خمسة من قيمة رأس المال .. عمولة ضخمة .. وقد سبق للشركة أن قامت بمثل هذه العملية فكانت النتيجة أنها خسرت رأس المال كله نتيجة التدخلات التى تعرفها .. وأنت تذكر أننا قمنا بعملية استيراد ساعات وأقلام وقطع غيار ، وأن ستين فى المائة من المستورد وزع مجانا والباقى بيع بثمن يساوى ربع ثمن الشراء وكانت خسارة بشعة للشركة .. وصحيح أن القانون واللوائح لا تعترف بالعمل من الباطن ولكن القوانين واللوائح وضعت لضمان الأرباح للشركة .. وهذه عملية تضمن لنا الربح .. وصحيح أيضا أن الذين يستوردون باسم الشركة يبيعون البضاعة فى السوق السوداء .. وكرئيس مجلس إدارة أنصحك بالموافقة كما سبق أن وافقت قبل أن تكون رئيسا ..

وتحملت خطابه في صبر ثم قلت وأنا أبتسم له حتى أخفف من حدته :

ــ كل هذا أعرفه يا أستاذ سليمان وأنت أستاذى .. ولكن المسئولية تتطلب تفكيرا أكثر .. على كل حال دع السيدة خديجة تمر على ..

وكان هذا هو كل ما أريده .. أن تأتى خديجة إلى مكتبى كما تذهب إلى مكتب سليمان ..

ورد سليمان في دهشة :

ــ لماذا .. ماذا تريد منها ..

قلت :

ــ أريد مناقشتها في التفاصيل ..

قال وهو ينظر إلى كأنه اكتشف شيئا قذرا :

ــ ولكن خديجة هانم ليست هى المسئولة عن العملية ، إنه شقيقها وشركاؤه ..

قلت :

ــ ولكنها على الأقل تعرف التفاصيل . دعها تأتى إلى .. وستكون أنت معها طبعا ..

وقفز واقفا في عصبية وقال وهو ينصرف في خطوات غاضبة :

ــ سأبلغها ..

ومرت ساعة .. ساعتان .. ومواعيد العمل قاربت الانتهاء ولم يعد سليمان إلى مكتبى ومعه خديجة .. إن كل ما أريده هو أن أراها جالسة أمامى وأنا في منصبى الجديد رئيسا لمجلس الإدارة ، إنى أعرف أن

المنصب مغر لهذا النوع من النساء أشد إغراء من الشخصية نفسها .. ورفعت سماعة التليفون واتصلت بسليمان :

ــ لماذا لم تعد إلى ولم تتصل بى ..

وأجاب وكأنه يشتمنى :

ــ السيدة خديجة اعتذرت ، كانت مرتبطة بموعد آخر .. فرصة أخرى ..

ثم ألقى فى وجهى بسماعة التليفون ..

والله عال يا سليمان .. وخديجة .. جيجى .. إنها لا تزال تتعالى على .. ترفض الاستسلام لمكانتى كرئيس لمجلس الإدارة ، كما رفضت من قبل السماح لى بالتقرب إليها وأنا مرؤوس لسليمان .. إنى لا أنسى يوم أن اتصلت بها فى التليفون مدعيا أنى أعرض عليها بعض تفاصيل العملية فرفضتنى وقالت وهى تنهى المكالمة :

ــ الموضوع فى يد سليمان بيه .. اعرضه عليه ..

كأنى خادم لها ولسليمان بيه ..

ولكن ما علاقتها بسليمان وماذا يمكن أن يميزه عنى .. لقد كان رئيسى وأنا الآن رئيسه .. رئيس الشركة كلها .. وحتى كشخصية .. كرجل .. أنا أصغر منه وأكثر إغراء منه ، وإذا كنت متزوجا فسليمان أيضا متزوج ، وخديجة متزوجة .. إن الزواج فى مجتمع العمل هو مجرد غطاء للفضيحة .

هل خديجة تحب سليمان إلى حد أن ترفض أن تدخل فى حياتها أحدا آخر .. مستحيل .. لا حب فى عالم الصفقات .. ربما كان بينها وبين سليمان اتفاق تعامل أى يتقاسم معها الربح أو على الأقل تخصه

بعمولة على كل عملية .. إن سليمان لا يبدو من هذا النوع ، ولكن حتى لو كان ، فإنها لا يمكن أن تضحى بى وهى تعلم أن العملية أصبحت في يدى ..

ومضت أسابيع وسليمان لا يتصل بى ولا يثير موضوع العملية مع أحد المسئولين فى الشركة كأن خديجة عدلت نهائيا عن العمل معنا .. وأنا لا أكف عن التفكير .. إنى أستطيع أن أخرب بيت خديجة .. أستطيع أن أكشف العملية التى كانت تقوم بها مع الشركة على اعتبار أنى لم أكن أيامها مسئولا ، ثم أفتح التحقيق وأنتهى بإحالتها هى وشركائها إلى النيابة ، وأبدو أنا بطلا ينقذ أموال الشركة .. وهى لا شك تعلم أنى أملك هذه القوة ، ولا شك أنها تخافنى ، وربما كان اعتمادها كله على سليمان .. مادام سليمان فى الشركة فهى مطمئنة إلى حد تستطيع معه أن تستغنى بسليمان عنى ..

إذن يجب أن يخرج سليمان من الشركة ..

ساعتها ستجد خديجة نفسها بين يدى ..

ولكنى لا أستطيع أن أطرد سليمان .. ليس فى يدى قانون يبيح لى طرده ، ولا أستطيع أن ألفق له تهمة ، لأن الفترة الطويلة التى قضيتها وأنا أعمل معه تجعلنى معرضا لكل اتهام يوجه إليه .. ولكن الأمر سهل .. لقد قررت أن أنشيء فى الشركة قسم أبحاث علمية .. وأقسام الأبحاث فى جميع الشركات العالمية المحترمة تعتبر المركز الذى تعتمد عليه الشركة فى كل تصرفاتها .. أبحاث عن المخترعات .. وأبحاث عن الأسواق .. أبحاث اقتصادية .. و .. و .. بل إنى قرأت أن القسم الأكبر من المخابرات اليابانية الدولية هى أجهزة تتبع

الشركات الكبرى ومهمتها التجسس على الشركات الكبرى خارج اليابان ، وتسرق آخر اختراع ، أو آخر تخطيط اقتصادى ، واستطاعت اليابان بذلك أن تصبح الدولة الصناعية التجارية الأولى ، وأصبح هم الدول المنافسة هو البحث عن جواسيس اليابان داخل شركاتها .. هذا فى الخارج .. أما فى الداخل .. عندنا .. فإن أقسام الأبحاث داخل الشركات والمؤسسات تعتبر مكاتب صامتة جاهلة ينفى إليها المغضوب عليهم وتوجد كمجرد مظهر تدعى به الشركة أو المؤسسة أنها تعيش عصر العلم والتكنولوجيا .. وهكذا ..

أنشأت إدارة جديدة اسميتها « إدارة الأبحاث العلمية » وطبعا اخترت رئيسا لها أستاذى سليمان عبد العزيز .. ولا يستطيع سليمان أن يعترض فالمنصب الجديد يعتبر تكريما وتقديرا لكفاءته العلمية ، ويعتبر توسيعا لاختصاصه لأنه يعطيه حق الدراسة العلمية لكل نشاط الشركة ، حتى لو كان بينه وبين نفسه يعرف أن المقصود هو إبعاده .. وربما تغاليت أنا فى هذا الإبعاد فأنشأت مركزا للإدارة الجديدة بعيدا عن المبنى الرئيسى للشركة ، وبذلك أصبح سليمان بعيدا .. بعيدا عن كل شيء يخص الشركة .. ومكتبه فى شقة بعمارة فى الدقى وليس معه إلا اثنان من الموظفين وإن كنت قد قررت فى اللائحة أن من حقه الاستعانة بجميع الشخصيات العلمية فى البلد .. فقط لأغطى نفسى ..

وما توقعته حدث ..

إنى فعلا إدارى فنان شاطر وفهلوى ..

فلم تمض أيام على التخلص من وجود سليمان داخل الشركة حتى اتصلت خديجة بمكتبى وطلبت تحديد موعد لقاء ..

جاءت خديجة ..

واستقبلتها وأنا أتعمد رفع الكلفة كأننا أصدقاء قدامى منذ كنت أحد موظفي الشركة ، وتعمدت هي أن تعطيني كأنها لم تبخل على يوما .. تعطيني من ابتسامتها الواسعة ، ومن رنة صوتها ، ومن تمايل قوامها .. ونظراتي ترقد في كل خط من ملامح وجهها الحلو المثير وتتقلب بين خطوط ثدييها وخطوط عنقها وساقيها .. إنها أخيرا جاءت .. أخيرا جئت بها ..

وفتحت لها الموضوع مباشرة كأن ليس بيننا أسرار ، وكأن الشركة في حاجة إليها .. وقلت لها إني موافق على العملية ولكني في حاجة إلى مزيد من التفاصيل فهل نستطيع أن نلتقي لتناول الشاى حتى يكون لدينا الوقت الكافي ..

وابتسمت في بساطة وقالت فورا :

— في بيتي الليلة .. الساعة التاسعة ..

لقد طلبت الشاى ولكن جيجي تدعوني إلى العشاء .. وذهبت إليها وأنا أخطو في شموخ كأني في طريقي إلى فتح عكا ، كما يقولون ، ولم أتنبه يومها إلى أني ارتكبت الخطأ الإداري الذى حطم كل أحلامي مع خديجة .. كان الخطأ هو أني حملت إليها معي كل الأوراق الخاصة بالعملية بعد أن تم إعدادها ، وكان يجب أن أنتظر إلى أن أصل أولا إلى ما أريده منها وأحدد ارتباطي بها ، ولكني سلمت البضاعة قبل أن أضمن استلام الثمن حتى دون إيصال ودون رهن .. إنه خطأ .. خطأ شنيع .. ثم إني فقدت قيمة تهديد خديجة بفتح التحقيق في تعاملها مع الشركة لأني أنا نفسي أصبحت شريكا معها في إحدى

عملياتها .. أصبحت أنا وهي في قفص واحد .. قفص الاتهام .. وأكثر من ذلك لقد سلمتها الأوراق دون أن أتفق معها على نصيبي الخاص من العمولة على افتراض أنها كانت تخصص عمولة لسليمان .. كل ذلك ضاع مني وكل ما كنت أسعى إليه هو إغراء خديجة .. هو الوصول إليها كامرأة .. وأردت أن أطمئنها وأفتح شهيتها بأن أنهي لها العملية مع أول لقاء ..

وطبعا لم أتنبه يومها إلى الخطأ الذى وقعت فيه وأنا في طريقي إلى فتح عكا .. وقد كنت أنتظر أن تستقبلني جيجي ومعها شقيقها وصديقها المسيحي اللذان تتم العملية باسمهما .. وكنت أتصور أنها ربما تدعو معي بعض أصدقائها من المجتمع الذى تعيش فيه ، على اعتبار أنها الدعوة الأولى التي توجهها إلى والتي يمكن خلالها أن نتفق على موعد لقاء خاص .. هكذا يقضي علم العلاقات العامة .. ولكني فوجئت بأني وجدت نفسي المدعو الوحيد .. وجيجي ليس معها إلا زوجها السيد وكيل الوزارة ..

وقد استقبلتني وهي تقدم لي أبرز وأجمل ما فيها .. ثوبها يكشف عن مفاتن أكثر مما رأيته فيها .. وشعرها تتركه منسدلا حتى كتفيها كأنه وسادة تدعوني بأن أنام عليها .. وزوجها يدهشني .. إنه صامت .. صامت .. ويضع على وجهه ملامح جادة كأنه يحتفظ بكل أسرار الكون ويأبى أن يصرح بها .. ويبتسم أحيانا ابتسامات بلهاء سريعة يحاول أن يبدو بها كأنه فوق هذا العبث .. والجلسة كلها تحت قيادة خديجة .. بلباقتها توجهني إلى الحديث في الموضوع الذي تريده هي لا الذى أريده أنا .. وكنت قد قدمت لها أوراق

الموافقة وانطلقت فرحتها من عينيها كأنها مصابيح كشافة تلقى مزيد
من نور جمالها .. ونتحدث في العمل ويتخلل حديثنا تلميحات إلى م
أريده منها إلى ما تريده منى ، وقلت لها وأنا أضحك وفي صوت هامس
حتى لا يسمعه زوجها السيد وكيل الوزارة .

ــ بصراحة .. إنى كنت أغار من سليمان .. كنت أعتقد أ
بينكما ما هو أبعد من أعمال الشركة ..

وضحكت قائلة :

ــ سليمان رجل طيب .. أما أنت .. أنت خطر ..

قلت كأنى أطالبها بنصيبى من العمولة :

ــ أريدك أن تعرفينى أكثر ..

قالت :

ــ أريد أن أطمئن إليك ..

قلت :

ــ أنا مسافر الأسبوع القادم إلى لندن .. فلنلتق هناك ..

قالت وابتسامتها تقطر بأنوثتها ونظرات عينيها تتسلل إلى ما تحت
ثيابى :

ــ ألم أقل لك إنك خطر .. ولكنى مستعدة إلى أن ألتقى بك
هناك .. إن خطورتك مغرية ..

وتركتها ليلتها وأنا أعيش أحلام لقائنا فى لندن .. هناك وحدنا .
عشرة أيام وكلها لى .. إن ليلة واحدة مع جيجى تعتبر عمولة كافية لأى
عملية .. ولن آخذ ليلة واحدة .. ليال كثيرة .. ربما ليالى العمر
كله ..

وكنت قد قررت السفر إلى لندن لتوقيع عقد استيراد جديد .. وعندما تقبل الشركة على توقيع عقد استيراد أى شىء ، يبدأ بين كبار موظفيها نوع من التنافس الصامت الخطر .. كل منهم يريد أن يسافر لتوقيع العقد لأن الذى يوقع العقد هو الذى يقبض العمولة ، وهى ليست عمولة رسمية ، أى لا تسجل فى العقد وليس المفروض أن يكتشفها أحد .. إنها رشوة .. أموال مهربة .. وكبار الموظفين يعلمون أن كلا منهم قد سبق وتقاضى عمولة ، وأنه يحتفظ بها فى بنوك الخارج ، وكل منهم يحمى الآخر حتى لا ينكشف أحدهم فينفضح الباقون .. واختيار الشخص الذى يسافر لتوقيع العقد هى مهمة رئيس مجلس الإدارة .. ورئيس مجلس الإدارة النبيه والفنان الإدارى يجب ألا يخص نفسه بكل الغنائم ، بل يحرص على توزيعها بين معاونيه من كبار الموظفين حتى يمسك بأعناقهم كما يمسكون بعنقه .. وقد وضعت تقليدا فى الشركة يقوم على أساس أن أختار من يسافر لتوقيع العقد حسب قيمة العمولة التى يمكن أن يخرج بها .. فإذا قدرت أن قيمتها لا تتجاوز ألفين أو ثلاثة آلاف دولار أرسلت إليها مدير الشئون القانونية،وإذا قدرت أنها قد تصل إلى خمسة آلاف أرسلت المدير العام .. وإذا ارتفع التقدير إلى عشرة آلاف مثلا أرسلت العضو المنتدب أما ما هو أكثر من ذلك فإنه من حق رئيس مجلس الإدارة نفسه .. وهذا مع حساب الحالات التى يسافر فيها أكثر من واحد للاتفاق على صفقة واحدة وتصبح العمولة مقسمة بينهم .

وقد سافرت إلى لندن وحدى لا يصحبنى سوى سكرتيرى الخاص ، ولم ألتق بخديجة قبل سفرى .. كنا نتحدث فى التليفون كل

يوم أكثر من مرة .. وقد أردت أن أراها قبل سفرى ولكنها اعتذرت .. إن ارتباطاتها كثيرة وظروفها صعبة ولكنها كانت دائما عند وعدها بأن تلحق بي في لندن ، وكانت تقول لى فى التليفون ضاحكة :

ـ الأصول أن العريس لا يلتقى بالعروس قبل ليلة الدخلة ..

وكنت أضحك وأنا أعيش فى أحلام ليالى لندن ..

وبقيت فى لندن خمسة عشر يوما .

ولم تأت جيجى إلى ..

وكان يمكن أن أعود بعد عشرة أيام ولكنى تعمدت أن أطيل بقائى لعل جيجى تأتى فإنى لم أستطع أن أصدق أنها يمكن أن تتخلى عنى .. وحاولت خلال هذه المدة أن أتصل بها تليفونيا من هناك ولكنى لم أستطع الاتصال بها ، وفى اليوم العاشر أمرت سكرتيرى الخاص أن يعود قبلى إلى القاهرة وأن يحاول الاتصال بجيجى ويسألها ثم يتصل بى ليبلغنى هل ستأتى إلى فى لندن أم لا .. واتصل بى السكرتير من القاهرة ليقول لى إنه لا يستطيع أن يتصل بجيجى ..

وقررت أن أعود دون أن أفقد الأمل .. إن غرورى يرفض الاستسلام لليأس أو الاعتراف بالهزيمة .. وكنت أقول لنفسى إنها لا شك لم تستطع الحصول على إذن بالسفر .. وكان لا أحد من المصريين يستطيع أيامها أن يسافر إلا بإذن .. كل مصرى كان مهما إلى حد لا يستطيع أن يسافر إلا بإذن من مجلس الوزراء .. يا سلام .. وكان ما يخفف عنى هو أنى حصلت على عمولة نظير الصفقة التى وقعتها تبلغ عشرين ألف دولار .. ولولا أن الشركات التى نتعامل معها تعلم أن هذه ليست عمولات رسمية ولكنها رشاوى تدفع إلينا ، لكانت العمولة

الرسمية قد وصلت إلى خمسين ألف دولار ..

وعدت وأثمن هدية أحملها هى الهدية التى سأقدمها إلى جيجى .. ساعة حريمى مرصعة بالماس دفعت ثمنها أربعمائة دولار .. أغلى وأثمن من الهدية التى كنت أحملها لزوجتى أو لابنتى ..

وفوجئت عندما استطعت أن أتحدث إلى جيجى فى التليفون بأنها تحادثنى بصفة رسمية وفى برود وفتور ، وحاولت أن أستخف دمى وأنا أحدثها عن أيام انتظارى لها فى لندن ، ولكنها لم تضحك ولم تعتذر عن تخلفها لوعدها وقالت فى إهمال :

ــ ستعرف كل شىء يوما ما ..

وبعد إلحاح حددت لى موعدا لزيارتها فى بيتها لتناول الشاى .. هذه المرة شاى لا عشاء .. ولم أجدها وحدها ، ولم أجد معها شخصيات اجتماعية تليق بالاجتماع بى ، ولكنى وجدتها مع سيدات من عائلتها وأولاد شبان وأطفال ، وزوجها السيد وكيل الوزارة يقرأ صحف الصباح .. ولم أستطع أن أصل إلى حديث يجمعنا وحدنا ، ولكنى بعد أن قدمت لها هديتها فرحت بها وأخذت تعرضها على قريباتها وعندما رآها زوجها رفع إلى عينيه وقال كأنه يتكلم بشريط مسجل :

ــ متشكرين ..

وربما أحست هى بعد الهدية أنها يجب أن تقدم لى تفسيرا عن تصرفاتها فأخذتنى إلى الشرفة وقالت لى هامسة :

ــ أنت لا تعرف ماذا فعل زوجى عندما عرف أنى مسافرة .. إنه يشك فيك منذ أول مرة رآك .. وقد اكتشف أنى مسافرة إليك .. أنت

خطر على كل النساء وكل الأزواج وعيلك أن خطورتك مكشوفة ..

وضحكت ضحكة خافتة مفتعلة ..

ولم أردد ضحكتها فإنى أحسست بأنها تكذب .. طبعا تكذب ..

إن زوجها لم يتعود اكتشاف أى شىء يخصها ..

وتركتها وليس بيننا وعود إلا التحدث فى التليفون ..

ولكنى كنت بدأت أحس أن الجو من حولى يتغير .. جو العمل .. أصبحت لا أستطيع أن أتصل بسهولة بالشخصية التى كان لها الفضل فى الوصول بى إلى رئاسة مجلس الإدارة .. الشخصية صاحبة المركز القوى .. ثم أنى لما تحدثت إلى الوزير سمعت رنة فى حديثه لم أتعود سماعها بل إنه قال لى مرة :

— إنى أسمع عن مشاكل كثيرة داخل شركتك .. خذ بالك قبل أن تكبر المشاكل ..

ولم يكن هناك أى مشاكل جديدة فى الشركة .. إنها نفس المشاكل التى ولدت معها .. ولكن الوزير رفض أن يقنع بما أقول وأنهى المكالمة بسرعة ..

بل إنه مضى أكثر من شهور دون أن يتصل بى أحد من كبار المسئولين ليرجونى فى تعيين أحد أو فى طلب بضاعة من البضائع المستوردة .. شىء غريب ..

إلى أن كانت ليلة .. وكنت مدعوا إلى حفلة زفاف كريمة السيد محمد البسيونى رئيس مجلس إدارة الشركة الصناعية لأعمال البناء وفوجئت بخديجة هناك .. إنها تجلس على المائدة الرئيسية بجانب الشخصية التى أدين لها بالفضل .. الشخصية المتصلة .. وهى

تتضاحك في بساطة معه ومع زوجته كأنهم عائلة واحدة .. إني أنا نفسي لا أستطيع أن أتضاحك معه أو أجلس معه هذه الجلسة .. يا خبر .

ربنا يستر ..

وكنت قد بدأت أعترف بفشلي في كل أحلامي المتعلقة بخديجة ..

لقد أخذت مني ولم آخذ منها ..

لقد كانت طول هذه المدة تربطني دون أن تربط نفسها بشيء .. لقد ربطتني في عملياتها حتى تحمي نفسها إذا حاولت أن أكشفها .. وتركت لي حبل أحلامي وشجعتني على أن أشتهيها إلى أن تم لها تحقيق العملية .. ثم بعد ذلك لا شيء .. وربما لم تنس أني كنت موظفا صغيرا وليس من حقي أن أتطاول عليها .. ولم تنس أني أبعدت عن العمل صديقها سليمان عبد العزيز رغم أنه أستاذى وصاحب فضل علي ورغم أنها — هي وهو — كانا يطمئنان إلي ..

فشلت مع خديجة ولكني لم أستطع أن أقدر نتيجة هذا الفشل .. ثم ..

بعد شهرين من عودتي من لندن قرأت في صحف الصباح أني لم أعد رئيسا لمجلس الشركة العربية لإنتاج المتطلبات الشعبية ..

من هو الرئيس الجديد ..

إنه السيد سليمان عبد العزيز ..

أي خديجة .. جيجي .. إنها هي .. هي التي عزلتني وهي التي وضعت مكاني سليمان عبد العزيز ..

لا يهم إن هذا يحدث لكل رؤساء مجالس الإدارات وكل الوزراء .. أن يستيقظوا فى الصباح ليقرأوا فى الصحف أنهم أصبحوا فى الشارع ..

وأنا مازلت رجلا إداريا فنانا ، وفن الإدارة كان يوحى إلى وأنا رئيس مجلس الإدارة أن أحسب حساب اليوم الذى سأبعد فيه عن المنصب وكنت أعلق أمامى يافطة مكتوب عليها « إن دامت لغيرك دامت لك » . وأعد بناء المستقبل الجديد الذى ينتظرنى .. وقد أعددته واستطعت خلال العامين اللذين قضيتهما رئيسا لمجلس إدارة أن أرتبط بأربع شركات أجنبية أصبحت وكيلا لها فى الشرق الأوسط بعد أن تركت المنصب ..

إنى الآن صاحب شركة استمارات دولية ..

ومركز الشركة فى أبى ظبى ولى مكتب فى الكويت وأفكر فى افتتاح مكتب فى ليبيا .

ولم أنس .. خديجة .. جيجى ..

رقم الإيداع ٧٧٢١ / ٨٥
الترقيم الدولى ٨ ــ ٠٢٠٢ ــ ١١ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٣٥٠ قرشا